

ناتج العرب

(مُطَوَّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أدور دجرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الأول

١٩٥١

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

ناتج العرب

(مِطْوَل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

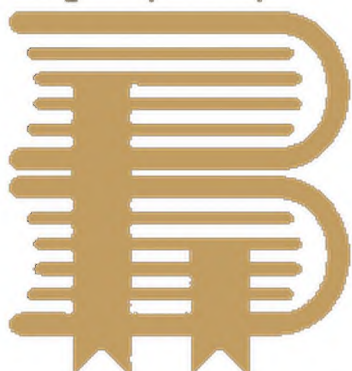
الدكتور أودرد جرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الأول

شبكة كتب الشيعة

١٩٤٩

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع



shiabooks.net

رابطہ پیدل < mktba.net

مقدمة

لقد وضع كتاب تاريخ العرب في الأصل باللغة الانكليزية وطبع اول مرة في مطبعة مكملان «Macmillan» في لندن عام ١٩٣٧ . ثم توالى طبعاته منذ ذلك العهد حتى بلغت اربعاً آخرها سنة ١٩٤٩ . ونقل في خلال هذه السنوات الى اللغات الالمانية والافرنسية والاوردية والتركية والمحابة جارية بشأن نقله الى غيرها من اللغات الاوربية والآسيوية .

اما هذه الترجمة التي تقدم الجزء الاول منها فقد قام بها اول الأمر تلميذي وزميلي الدكتور ادورد جرجي الاستاذ المشارك في كلية برنستون للاهوت . ولقد عرض القسم الاوفر من المخطوطة على انيس الخوري المقدسي استاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية فتلطف وراجعها وهذب بعض عبارته فله شكرنا الجزيل . واخيراً عهد الى تلميذي الدكتور جبرائيل جبور الاستاذ المشارك في الجامعة نفسها ان يحرر الكتاب ويساهم معنا في نشره فراجعها وتقحه بدوره ووقف على طبعه وتعهده بعنايته الخاصة .

ولهذه الترجمة العربية ميزة خاصة وهي انه سيظهر فيها لأول مرة قسم جديد لم يظهر بعد في الطبعة الانكليزية او في اي من الطبعات الأخرى وهو القسم الذي يبحث تاريخ العرب منذ اول العهد العثماني حتى زمننا الحاضر .

ولعل القارئ يذّ له ان يعرف ان للكتاب موجزاً ظهر عام ١٩٤٣ عن مطبعة جامعة برنستون بعنوان « The Arabs : A Short History » . وقد أصدر المجلس الحربي الاميركي منه طبعة خاصة للجيش عدد نسخها خمسون ألفاً . وفي عامنا هذا (١٩٤٩) أخرجت مطبعة برنستون الطبعة الخامسة من الموجز . وكذلك اصدرت في العام الفائت مطبعة مكملان في لندن طبعة خاصة منه . ولقد نقل الموجز حتى الآن الى الاسبانية والبرتغالية والهولندية والعربية . وقد ظهرت الترجمة العربية عن دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٤٦ بعنوان « العرب : تاريخ موجز » ويسرني الآن أن تكون دار الكشاف التي تولت طبع الموجز العربي لدار العلم للملايين هي نفسها التي تتولى اليوم نشر تاريخ العرب « المطول » وطبعه في مطابعها الحديثة .

فهرس المحتويات

القسم الاول - عصر ما قبل الاسلام

- الفصل الاول - العرب ساميون ، الجزيرة مهد الجنس السامي ١٤-١
جدارة الموضوع - رواد الجزيرة في العصر الحديث - الجزيرة مهد الجنس السامي .
- الفصل الثاني - جزيرة العرب ٢٨-١٥
صفة الجزيرة - الاقليم ... نبات الجزيرة - النخل - حيواناتها - الحبول العربية - الجمل
- الفصل الثالث - حياة البدو ٣٧-٢٩
القبائل الرحل - الغزو - التدين - العشائر - العصية - الشيخ .
- الفصل الرابع - العلاقات الدولية الاولى ٦٢-٣٨
عرب الجنوب - العلاقات العربية المصرية - نحاس سيناء - اللبانت - اتصال العرب
بالسومريين والبابليين - توغل الاشوريين في البادية - صلة العرب بالكلدانيين والفرس :
تياء - اتصال العرب بالعبرانيين - العرب في التوراة والانجيل - العرب في آداب اليونان
والرومان - الحملة الرومانية - بلاد الطيوب - الذهب .
- الفصل الخامس - الدولة السبئية وغيرها من بلاد العرب الجنوبية ٨٧-٦٣
عرب الجنوب وتجارهم - النقوش العربية القديمة - الدولة المعينية - الدولة السبئية -
سد مأرب - الدولة الحميرية الاولى - الاحباش وأصلهم السامي - قصر غمدان - تحول
تجارة العرب البحرية الى الرومان - دولة حمير الثانية - النصرانية واليهودية في اليمن -
حكم الأحباش - انفجار سد مأرب - عصر الفرس .
- الفصل السادس - دولة الانباط وغيرها من دويلات شمال الجزيرة واواسطها ١١٦-٨٨
الانباط . أصل الابجدية في سيناء - البتراء - مملكة تدمر - اذينة وزنوبيا -
الغساسنة - الدولة السورية العربية في ابان مجدها - المنذر ابن الحارث - زوال دولة
غسان - دولة لحم - الحيرة في ذروة زهوها - تنصر الاسرة المالكة - كندة .

الفصل السابع - الحجاز عشية ظهور الاسلام ١١٧-١٥٢
العصر الجاهلي - ايام العرب - حرب البسوس - يوم داحس - لغة الشمال العربية
واثرها الكبير - عصر البطولة والفروسية - الشعر - القصيدة - المعلقات - الشعر الجاهلي -
ما يكشفه الشعر الجاهلي من مكنونات الطبع البدوي - البدوي والوثنية - مركز الشمس
في نظام آلهتهم - الجن - بنات الله - الكعبة في مكة - الله - مدن الحجاز الثلاث :
الطائف - مكة - المدينة ، - المورثات الثقافية في الحجاز : سبأ - الحبشة - فارس -
ارض غسان - اليهود .

القسم الثاني - ظهور الاسلام ودولة الخلافة

الفصل الثامن - محمد رسول الله ١٥٥-١٦٨
الفصل التاسع - القرآن كتاب الله ١٦٩-١٧٥
الفصل العاشر - الاسلام دين الخضوع لارادة الله ١٧٦-١٨٨
العقائد - الازكان الخمسة : الشهادة - الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج ، - الجهاد .
الفصل الحادي عشر - عصر الفتوح والتوسع والاستعمار ١٨٩-١٩٨
الحلفاء الراشدون - خلافة الراشدين : عصر الحكم المشيخي - الجزيرة تتوحد -
اسباب اقتصادية .
الفصل الثاني عشر - فتح الشام ١٩٩-٢٠٨
مغامرات خالد في البادية - يوم اليرموك - ادارة شؤون الشام .
الفصل الثالث عشر - فتح العراق وفارس ٢٠٩-٢١٤
الفصل الرابع عشر - الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة ٢١٥-٢٢٥
مكتبة الاسكندرية .
الفصل الخامس عشر - ادارة الممتلكات الجديدة ٢٢٦-٢٣٦
عهد عمر - الجيش - حقيقة المدنية العربية - اخلاق الحلفاء الراشدين .
الفصل السادس عشر - النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ٢٣٧-٢٤٧
الخلافة الانتخابية - خلافة علي - عصور الخلافة - الخلافة منصب سياسي .

القِسْمُ الْأَوَّلُ

عَصْرٌ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ

الفصل الاول

العرب ساميتون الجزيرة مهد الجنس السامي

مقدمة الموضوع

ليس بين كل البلاد التي تضاهي جزيرة العرب حجماً او بين كل الشعوب التي تناهز العرب في الاهمية التاريخية والمكانة العالمية بلد او شعب ناله من اهمال الباحثين في العصور الحديثة ما نال الجزيرة العربية والشعب العربي .

فهنا بلاد تعادل ربع اوربا او ثلث الولايات المتحدة مساحة ولكن ما نعرفه عنها ضئيل جداً اذا قيس بما نجعله ، بل لقد ازداد اطلاعنا نسبياً على مجاهل المنطقة المتجمدة الشمالية والجنوبية بينما لا تزال معلوماتنا عن احوال القسم الاكبر من جزيرة العرب قليلة .

ولما كانت جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي على ما يرجح فانها قد انشأت الشعوب التي تزحت فيما بعد الى الهلال الخصيب هذه الشعوب التي أصبحت مع تعاقب الاجيال امم البابليين والاشوريين والفينيقيين والعبرانيين . وفي تربة هذه الجزيرة الرملية نشأت العناصر الأصلية للديانة اليهودية وبالتالي المسيحية وظهرت هذه السمات والسجايا التي أصبحت بحكم التطور فيما بعد من مميزات الخلق السامي . واما في العصور الوسطى فقد اخرجت جزيرة العرب هذا الشعب الذي سيطر على معظم العالم المتمدن اذ ذاك وكانت مهداً لدين هو الاسلام يدين به في يومنا هذا ما لا يقل

عن ٢٧٥ مليوناً من الناس يمثلون شتى الاجناس البشرية ويعيشون في مختلف البيئات . ان بين كل ستة أشخاص أو سبعة في عالمنا اليوم واحداً من اتباع محمد وان دعوة المؤذن الى الصلاة لتجلبل في معظم ساعات اليوم الاربع والعشرين مطوقة الشطر الاكبر من الكرة الارضية . وتتألق على هامة العرب تلك الهالة الوهاجة التي تقترن دائماً باسماء الفاتحين العالمين ، فلقد استطاعت هذه الامة في مدى قرن واحد أن تنشئ دولة عظيمة واسعة الارحاء بسطت سلطانها من شواطئ المحيط الاطلسي الى تخوم الصين وفاقت على امبراطورية رومة في اوجها . وفي اثناء هذه الحقبة من التوسع الذي لم يسبق له نظير استطاع العرب بواسطة الاختلاط مع الامم المغلوبة « ان يكسبوا الى دينهم ولغتهم وشكلهم عدداً من أبناء هذه الأمم ما استطاعت أمة قبلهم أو بعدهم أن تكسب مثله وتهتمه - ولا نستثني من ذلك اليونان ولا الرومان ولا الانكلوسكسون ولا الروس » . (١)

ولم ينشئ العرب امبراطورية فحسب بل انشأوا ثقافة زاهرة أيضاً ، فقد ورثوا المدنية القديمة التي ازدهرت على ضفاف الرافدين وفي وادي النيل وعلى شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وكذلك تشربوا واقتبسوا أهم معالم الثقافة اليونانية والرومانية وقاموا مقام الوسيط في أن نقلوا الى اوربا خلال العصور الوسطى كثيراً من هذه المؤثرات الفكرية التي أنتجت بالتالي يقظة أوربا الغربية ومهدت لها سبيل نهضتها الحديثة . ولم تعرف أمة ساهمت في العصور الوسطى في التقدم البشري بقدر ما ساهم العرب والشعوب المتكلمة بالعربية .

وقد ظهرت ديانة العرب بعد اليهودية والمسيحية فاصبحت ثالثة الديانات التوحيدية وخاتمتها وهي من الناحية التاريخية تمت بأوثق الصلات الى هاتين الديانتين فكانت أقرب الديانات اليهما على الاطلاق وهكذا فان هذه الديانات الثلاث ليست الا نتاجاً لحياة روحية واحدة هي الحياة السامية . ومن هنا هان على المسلم المؤمن - اذا

استثنينا بعض الاحوال - أن يسلم بمعظم ما تنطوي عليه العقائد المسيحية . ولقد كان الاسلام ولا يزال عاملاً حياً يمتد أثره من مراكش الى الهند ، ودينكا وحياة الملايين من الجنس البشري .

ثم ان اللغة العربية اليوم هي لغة التخاطب لما يقرب من خمسة وأربعين مليوناً من الناس وقد كانت طوال قرون عديدة في العصور الوسطى لغة العلم والثقافة والفكر الراقي في جميع أنحاء العالم المتمدن بحيث كان ما أُلّف فيها فيما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر من التأليف الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية أكثر مما أُلّف في أي لغة أخرى . وهذه لغات أوربا الغربية لا تزال الى الآن تحمل أثر الطابع العربي في طائفة كبيرة من الالفاظ المستعارة . وان حروف الهجاء العربية ، بعد اللاتينية ، هي أكثر الحروف انتشاراً في العالم . ويستعمل الحرف العربي في كتابة اللغتين الفارسية والافغانية ولغة الاوردو وطائفة من لغات الترك والبربر والملايو .

ان البابليين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين شعوب كانت ثم زالت اما العرب والمتكلمون بالعربية فانهم كانوا ولا يزالون . وهم يستقرون اليوم كما كانوا في الماضي في موقع جغرافي خطير على ملتقى أهم خطوط التجارة العالمية . ومنذ الحرب العظمى الاولى اثبتت بعض هذه الشعوب ولا تزال الحركات فيها الى اليوم . وقد استطاعت مصر ان تصبح دولة ملكية مستقلة ، واقام العراق ملكاً في عاصمته بغداد التي لم ترَ على عرشها ملكاً منذ زمن العباسيين ، وانشأ ابن السعود رجل الجزيرة العربية اليوم لنفسه مملكة عظيمة تضم الشطر الاكبر من وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي . اما سوريا ولبنان فقد أصبحا جمهوريتين مستقلتين وكان لبنان اول بلد جمهوري عربي ولا تزال فلسطين تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من ايدي الغاصبين . ان نجم العرب قد عاد الى الصعود .

رواد الجزيرة في العصر الحديث

كان لاوروبا في عهد اليونان والرومان معرفة بشؤون الجنوب من جزيرة العرب فلقد ذكر هيرودتس وسواه ساحلها الغربي وكان اهم سبب لالتفات اليونان والرومان الى الجزيرة ان الجزء الجنوبي منها كان بلد اللبان والطيب والبهار وان سكانه كانوا همزة الوصل بينهم وبين اسواق الهند وبلاد الصومال ولكن اوربا في اواخر العصور الوسطى الحديثة جهلت بلاد العرب الى حد كبير وكان عليها ان تعيد اكتشافها في العصور الأخيرة من جديد. وكان اول من غامر باقتحامها فئة من الرواد والمرسلين المسيحيين والتجار وبعض الضباط الفرنسيين والبريطانيين الذين التحقوا بالحملة المصرية بين سنتي ١٨١١ و ١٨٣٦ وغيرهم من المبعوثين السياسيين ورجال العلم .

وكان اول من وصف بلاد العرب من العلماء العصريين هو كارستن نيبوهر عضو البعثة العلمية التي انفذها ملك الدنمرك سنة ١٧٦١ ثم امها احد الاسبان فزار مكة في سنة ١٨٠٧ واطهر الاسلام وعرفه القوم باسم علي بك العباسي وبالغوا في اكرامه حتى اتيح له شرف القيام بكس البيت الحرام ، اما العالم الالماني زيتزن الملقب بالحاج موسى فلقد اغتيل سنة ١٨١١ في اثناء ارتياده الجزيرة وليس لاختبار رحلته أثر . ومن الغريب ان اسكتلندياً التحق بالحملة المصرية التي جردت بقيادة طوسون باشا نجل محمد علي الكبير فما لبث ان استلم زمام الامور في المدينة المنورة سنة ١٨١٥ . ولما قام ابراهيم باشا ، وهو ايضاً من انجال والي مصر ، باخضاع الوهابيين في نجد سنة ١٨١٩ كان في معيته ضابط من الجيش البريطاني يدعى سادليز ، بصفة مستشار خاص له .

وكانت اليمن - التي عرفها اليونان والرومان من قبل أكثر من سواها - أول اقطار الجزيرة التي تصدى المحدثون لكشفها ولم يلتفتوا كثيراً الى شؤون المناطق الشمالية في الجزيرة على قربها اليهم بالنسبة الى اليمن بحيث ان

الاوربيين الذين رادوا هذه المناطق وخلفوا أثراً لأخبار رحلاتهم لم يزد عددهم حتى يومنا هذا على اثني عشر .

وفي سنة ١٨١٢ كشف يوهان لودفيغ بركهاردت السويسري مدينة البتراء لعالم البحث ثم زار مكة وجدة متكرراً وقد انتحل لنفسه اسم ابراهيم ابن عبدالله وأجاد في وصف ما شاهده من الاماكن بحيث لم يقم بعد من استطاع أن يزيد في ذلك . ويقع ضريح بركهاردت اليوم في القرافة الكبرى بسفح جبل المقطم في القاهرة ولسنا نعرف اورياً غير بركهاردت ادرك ما ادركه هذا الرحالة من العلم بشؤون مكة المكرمة قبل سنة ١٩٢٥ سوى الاستاذ سنوك هروغرونيه الذي زارها بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ وهو من علماء ليدن بهولاندة . وفي سنة ١٨٤٥ زار نجداً بحاثة فنلندي سويدي يدعى جورج اوغسطس فالين للقيام ببعض الدراسات اللغوية وقد قيل ان محمد علي الكبير اوفده اليها - بعد ان اخفق في مساعيه للاستيلاء على الشام - للقيام بمهام سياسية في مناطق جبل شمر وهو على الأرجح غير صحيح . وحدث ان انصرف نابوليون الثالث بعد جلاء قواته عن لبنان في سنة ١٨٦٠ الى انشاء منطقة نفوذ له في اواسط الجزيرة فبعث اليها بعد اقتضاء عامين رجلاً انكليزياً يدعى وليم غيفرد بالغريف كان يهودي المولد ثم تنصّر وانخرط في سلك الرهبنة اليسوعية واقام في مدينة زحلة بلبنان . وقد ادعى بالغريف انه ارتاد في قلب الجزيرة من الارض اكثر مما فعل حقاً . ولقد رافق بالغريف في هذه الرحلة فتى لبناني اسمه بركات وهو الذي سيم فيما بعد بطريركا على الروم الكاثوليك وعُرف ببطرس الجريجيري . وفي سنة ١٨٥٣ كان بين الحجاج الى الحرمين الشريفين رجلٌ عُرف بالحاج عبدالله وهو في الواقع السير رتشارد برتن الذي اشتهر بنقله كتاب « الف ليلة وليلة » الى اللغة الانكليزية . ومن رواد شمالي الجزيرة سيدتان اوربيتان احدهما اللادي آن بلنت وقد يمت نجداً سنة ١٨٧٩ تحذوها الى ذلك رغائب متنوعة منها الشغف الشديد بالخيول العرب . كذلك جاب شمالي الجزيرة سنة ١٨٧٥ بريطاني

كان يعرف فيها بالنصراني والانكليزي اسمه تشارلز دوتي وقد دون اخبار رحلته في سفر جليل اسمه « أسفار في الجزيرة الصحراوية » يعدّه الانكليزي أحد المؤلفات الكلاسيكية في آداب لغتهم . اما كتاب لورنس المسمى « أعمدة الحكمة السبعة » فقد نال مكانة كبرى بين مؤلفات الادب الحديث التي عرفت بعد الحرب العالمية الاولى . وجدير بنا ان نذكر بين الرواد المتأخرين العالم التشوكوسلوفاسكي ألويز موزيل الذي عني بدراسة المناطق الشمالية ، والكاتب السوري الاميركي امين الريحاني الذي قابل كل ملوك العرب ، والذين رتروا الذي زار مكة والمدينة بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . ولا بد من اشارة خاصة الى مغامرة برترام توماس الشاب الانكليزي الجريء الذي استطاع في شهر شباط من سنة ١٩٣١ ان يخترق الربع الخالي فكان اول من كشف عن اسرار منطقة تعد من المناطق الكبرى المجهولة وقد ضارعه في مغامرته هذه سنت جون فليبي المعروف بالحاج عبدالله حين بارح الهفوف بجوار خليج العجم في ٧ كانون الثاني من سنة ١٩٣٢ فقطع الربع الخالي من الشرق الى الغرب في تسعين يوماً .

اما النقوش الحميرية التي مهّدت لنا اول سبيل للاطلاع على ما أراد عرب الجنوب ان يذكروه عن انفسهم فقد اكتشف اكثرها يهودي فرنسي اسمه جوزيف هاليبي بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٠ وآثري نمساوي يدعى ادورد غلازر بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٩٤ .

وبعد اخبار العلماء العصريين من ارباب الاكتشاف والارتياح فان أهم ما يعتمد عليه من المصادر لدراسة تاريخ الجزيرة القديم هو التأليف العربية التي وضعت بعد الاسلام واكثرها على غزارة مادتها متأخرة لا يوثق بها تمام الثقة ، ثم الاخبار المبثوثة في الادب الاغريقي واللاتيني والاشارات اليسيرة التي وردت في سياق المحفوظ من مديونات الفراعنة وملوك اشور وبابل في الرموز الهيروغليفية والخطوط الاسفينية وكذلك الخطوط الحميرية التي حلت رموزها منذ عهد قريب .

علاقات العرب الانتولوجية - السامية

ان العرب من بين الشعبين الباقيين اللذين يمثلان الجنس السامي قد احتفظوا اكثر من اليهود بالمميزات الطبيعية والخصائص العقلية لهذا الجنس . واما لغتهم فعلى الرغم من انها احدث اللغات السامية آداباً فانها قد احتفظت بخصائص اللسان السامي الأصلي - بما في ذلك التصريف - اكثر مما احتفظت العبرية واخواتها من اللغات السامية الأخرى . ومن هنا كانت اللغة العربية احسن مدخل لدراسة اللغات السامية . وكذلك بلغت الديانة السامية في الاسلام كلها الطبيعي . ولقد اصبحت لفظة سامي في اوربا واميركا ذات مدلول يهودي قبل كل شيء ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود في هاتين القارتين ، اما الملامح الخاصة التي سماها الافرنج سامية ومنها بروز الأنف فليست سامية بل هي من مميزات اليهود اذا قورنوا بفروع العرق السامي الاخرى ولعلمهم قد اكتسبوها قديماً من الحثيين والخوريين حين اختلطوا بهم (١) .

والسبب في ان عرب الجزيرة والبدو منهم بنوع خاص هم خير من يمثل السلالة السامية من النواحي البيولوجية والنفسية والاجتماعية واللغوية راجع الى انعزالهم الجغرافي واتساق الحياة المطرد في الصحراء فكأن النقاوة السلالية هي المكافئة التي تمنحها البيئة المنفردة الشديدة النكران كتملك التي في اواسط جزيرة العرب . ولقد اصاب العرب في تسمية بلادهم جزيرة العرب فهي جزيرة حقاً تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث والرمال من جهتها الرابعة وتعتبر هذه الجزيرة مثلاً للعلاقات التي لا تنقطع بين السكان والتربة . واذا كانت قد حصلت هجرات سابقة الى هذه الجزيرة نتيجة لموجات المستعمرين المتعاقبة التي يدفع بعضها الآخر او يغمره كما حدث في الهند واليونان وايطاليا والولايات المتحدة فان التاريخ لم يخلف لنا أثراً عن هذا

(١) 19. — 218 J. H. Breasted, *Ancient Times* (New York, 1916) وقران ، ترجمة

الكاب المذكور (بيروت، ١٩٣٠) ص ١٧٥ و١٧٨ و: Ephraim A. Speiser, *Mesopotamian Origins* (Philadelphia, 1930) , pp. 134, 147, 153-3.

في بلاد العرب . كما اذا لسنا نعرف فاتحاً او غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية لهذه الجزيرة وفي تثبيت قدميه في تلك البلاد . أجل لقد ظل سكان الجزيرة كما هم طيلة أزمان التاريخ (١) .

ان لفظة « سامي » مأخوذة من سام الوارد ذكره في التوراة (تك ١٠ : ١) ولقد دخلت الى اللغات الاوربية عن طريق الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة . ان التفسير التقليدي المألوف ان الذي يذهب الى ان الساميين قد تحدروا من كبير ابناء نوح لا تؤيده الابحاث العلمية الحديثة ، فمن هم الساميون اذن ؟

اذا رجعنا الى خريطة لغوية لآسية الغربية وجدنا ان الشام وفلسطين والجزيرة والعراق مأهولة الآن بشعوب تتكلم العربية ، ثم اذا استعرضنا بعد ذلك تاريخنا القديم وجدنا انه ابتداء من منتصف الالف الرابع قبل الميلاد اخذ البابليون (الذين عرفوا اولاً بالاكديين نسبة الى اكّادو عاصمتهم او اكاد) وبعدهم الاشوريون والكلدانيون في احتلال وادي الرافدين ثم بعد سنة ٢٥٠٠ ق . م سكن الآموريون والكنعانيون (ومنهم الفينيقيون) بلاد الشام وحوالي سنة ١٥٠٠ ق . م استقر الاراميون في الشام والعبرانيون في فلسطين ولقد ظلّ الناس في العصور الوسطى والعصر الحديث الى القرن التاسع عشر لا يدركون ان هذه الشعوب تربطها اواصر قرى شديدة حتى اذا حلت رموز الخط الاسفيني في منتصف القرن التاسع عشر ودرست اللغات الاشورية البابلية والعبرانية والارامية والعربية والحبشية دراسة مقارنة تبين ان بين هذه اللغات اوجه شبه ظاهرة وان الصلة بينها جوهرية حقيقية . ونجد الآن ان جذر الافعال في كل من هذه اللغات ثلاثي وان للزمن صيغتين صيغة الماضي وصيغة المضارع وان تصاريف الافعال متشابهة ونجد ايضاً ان اصول المفردات

(١) قابل Bertram Thomas in *The Near East and India* (London, Nov. 1, 1928) pp. 516 — 19; C. Rathjens in *Journal Asiatique*, ccxv. No. 1 (1929) , pp. 141 — 55. فتوماس يذكر ثلاث قبائل قد تكون من اصل حام، في قلب الجزيرة الجنوبية وراتجناس يرتأي ان نواحي الجزيرة الجنوبية ربما كان يسكنها في الالف الثالث والثاني ق. م شعب حامي ثم قدم الساميون في الالف الاول ق. م فسيطروا عليه وأسسوا الدولة العينية وما جاء بعدها .

ومنها الضمائر والاسماء الدالة على القرابة الدموية والاعداد وبعض الاسماء لاجزاء الجسم تتشابه تشابهاً يكاد أن يكون تاماً . واذا نظرنا الى الانظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الشعوب التي تتكلم هذه اللغات وقارنا بين خصائصهم الجسدية بان لنا ايضاً ان اوجه الشبه بينهم رائعة جليلة فليست القرابة اللغوية اذاً سوى مظهر من مظاهر الوحدة الجنسية الراهنة التي تتجلى بتمكن الغريزة الدينية واتقاد الخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة . ولا يسعنا والحالة هذه الا ان نستنتج أن اسلاف هذه الشعوب المختلفة من بابليين واشوريين وكلدانيين واموريين واراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب واحباش كانوا في زمن ما قبل تباينهم يعيشون شعباً واحداً في مكان واحد .

الجزيرة مهد الجنس السامي

ان كان الموطن الاصلي لهذا الشعب ؟ لقد اختلف العلماء في الجواب عن هذا السؤال وتباينت نظرياتهم فمنهم من ظن موطن الساميين في افريقية الشرقية بالنظر للعلاقات الاثنولوجية بين الساميين ولكن التسليم بهذه النظرية يخلق مشاكل يصعب حلها . وآخرون تأثروا برواية العهد القديم فزعموا ان العراق هو الموطن الاصلي وهو زعم فاسد لأنه يفترض انتقال شعب من طور الحياة الزراعية على ضفاف نهر الى حياة البداوة وذلك عكس ما تقضي به النظم الاجتماعية . ولهذا فمعظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي ويدعمونها بالحجج التالية :

ان معظم سطح الجزيرة صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الارض التي تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها فاذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الارض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشون فيه ولم يكن باستطاعتهم التوسع في وسط البلاد وهو صحراء ولا اجتياز البحر حين لم يكن في تلك الازمان من وسائل لذلك فلم يبق الا ان يسلكوا طريق الساحل الغربي

من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء الى وادي النيل الخصيب .
وقد سلك هذا الطريق او طريق افريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالي سنة
٣٥٠٠ ق.م واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين واختلطوا بهم فكان من نتيجة هذا
الاختلاط ان ظهر المصريون القدماء الذين وضعوا كثيراً من العناصر الاساسية في
مدنيتنا فكانوا اول من شادوا الابنية الحجرية وانشأوا التقويم الشمسي . وفي تلك
الغضون اي في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد اندفعت الى الشمال موجة اخرى
من المهاجرين سلكت طريقاً شرقياً موازياً للآخر واستقرت في وادي الرافدين
الذي كان يسكنه في ذلك الزمن شعب عريق المدنية هم السومريون . (١) وقد
حل الساميون هذا الوادي وهم في حالة البداوة والجهل فما عثموا أن تعلموا من
السومريين مؤسسي حضارة القراتين فنّ بناء المنازل والسكنى بها ووسائل الري
وفوق ذلك فقد تعلموا منهم كيف يكتبون . ولم يكن السومريون من الشعوب
السامية ولكن اختلاطهم بهؤلاء العرب الذين نزلوا عليهم في وادي الرافدين انتج
الشعب البابلي الذي شاطر المصريين الفخر في وضع الأسس لميراثنا الثقافي . ومن جملة
ما استحدثه لنا البابليون هندسة القناطر والاقبية (والارجح انها سومرية الاصل)
والعربة ذات العجلات ونظام للمقاييس والموازين .

وحوالي منتصف الالف الثالث ق.م حدثت هجرة سامية اخرى حملت الاموريين
الى الهلال الخصيب وكان بين العناصر التي تألفت منها هذه الموجة الجديدة
الكنعانيون وقد حلوا غربي الشام وفلسطين بعد ٢٥٠٠ ق.م والساحليون الذين
ساهموا الاغارقة الفينيقيين .

(١) قابل ما جاء في التوراة من ذكر ارض شنغار (تك ١٠ : ١٠ ، ١١ : ٢ ؛ اش ١١ : ١١ الخ) وهي بابل الشمالية لا الجنوبية . واذا صح ان شنغار كانت في بابل فلا
يجوز القول انها سومر . وقد ذهب وولي الى ان الساميين سبقوا السومريين في النزول بسواد
العراق - انظر : C. Leonard Woolley , *The Sumerians* (Oxford , 1929) PP. 5-6

وكان هؤلاء الفينيقيون اول من نشر في العالم نظاماً خاصاً للكتابة بالحروف الهجائية المجردة وعددها اثنان وعشرون وكانت هذه الحروف اساساً لكل الحروف الهجائية التي يكتب بها اليوم ابناء اوربا او آسية او اميركا او افريقية بحيث صح قول القائل ان هذا اعظم اختراع اخترعه البشر على الاطلاق (١) .

وبين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م تسرب العبرانيون الى جنوب الشام اي فلسطين وتسرب الاراميون (السريان) الى الشمال الى سهل البقاع (جوف سوريا) الواقع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي . وكان العبرانيون قبل اي شعب آخر اول من كشف للعالم فكرة جلية عن الله الأحد وقد صار التوحيد الذي دعوا اليه اصلاً للتوحيد في العقيدتين المسيحية والاسلامية .

وحوالي سنة ٥٠٠ ق. م نزل الانباط الارض الواقعة الى الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء ونستطيع ان ندرك مدى الرقي الذي بلغته حضارتهم فيما بعد وذلك بتأثير الرومان ، بما يبدو في آثار البتراء عاصمتهم المنحوتة في الصخر من عظمة ومجد . وجاء القرن السابع للميلاد فاذا نحن امام موجة جديدة هي آخر الهجرات وقد جرت تحت راية الاسلام وهنا تخطمت السدود امامها فلم يقتصر فيضانها على ارض الهلال الخصيب هذا القوس الممتد من رأس الخليج الفارسي الى زاوية البحر المتوسط الشرقية الجنوبية بل تعداه وغمر مصر وافريقية الشمالية واسبانية وفارس وبعض انحاء من آسية الوسطى . (٢)

وقد اتخذت هذه الهجرة التي تمت في وضع التاريخ حجة يعتمد عليها القائلون بان جزيرة العرب هي موطن الساميين الاصلي وهم يعززون قضيتهم في ملاحظتهم ان العرب قد احتفظوا بميزاتهم السامية خالصة واطروها بوضوح اكثر من بقية

(١) راجع ما سنورده في الفصل السادس عن الأصل السينائي للحروف الهجائية .

(٢) من اوائل العلماء الذين شرحوا نظرية التقلات السامية التي تعاقب خروجها من الجزيرة

هوغو فنكلر . انظر : Hugo Winckler, *The History of Babylonia and Assyria* , tr. James A. Craig (New York, 1907) PP. 18-22.

اعضاء تلك المجموعة الجنسية وان اللغة العربية هي اقرب ما يكون الى ما يرتأيه علماء اللغات بشأن مزايا اللغة السامية الام وشكلها البدائي .

وبمقارنة تاريخ الهجرات المذكورة آنفاً ودرسها بدت لبعض علماء السامية ان فكرة في ان الجزيرة العربية كانت في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها الف سنة تقريباً تزدهم بالسكان كخزان هائل ضاق فلم يجد محيصاً عن افاضة ما يزيد عن سعته . وقد ألف هؤلاء العلماء ان يسموا هذه الهجرات المتعاقبة حين يتحدثون عنها « موجات » والاولى ان يقال ان هذه التنقلات كانت في ادوارها الاولى ما يشبه في طبيعته الهجرات الاوربية الى انعام الجديد اذ يأخذ بعض الافراد في الارتحال ثم يلحق بهم آخرون ثم يزداد عدد الداهبين حتى يتكون شعور عام بفكرة الارتحال ويزداد الاقبال على الهجرة .

وان انتقال الجماعات البشرية جملة او زرافات من الصحراء وحياء المراعي فيها الى الاراضي الزراعية لهو ظاهرة عامة في الشرق الادنى نستطيع بواسطتها ان نفهم تاريخه الطويل المليء بغرائب الاحداث . وان الطريقة التي يحاول بها شعب يميل الى الهجرة ان يفرض نفسه على شعب تأصلت جذوره في ارض لتسفر في الغالب عن ان الغزاة يقتبسوا الى حد ما من الامة المغلوبة اهم مميزات الحضارة فيها ويكسبون هذه الامة شيئاً من الدم الجديد فيها ولكنهم قلما يستطيعون ان يقضوا عليها او يستأصلوا جذورها . وهذا بعينه ما جرى في الشرق الادنى القديم الذي يعتبر تاريخه الى حد ما نزاعاً متواصلاً بين الحضرة من سكان الهلال الخصيب وبين البداية الغزاة الذين كانوا يحاولون ان يغتصبوا الارض منهم ولقد أصاب من قال ليست الهجرة والاستعمار الا نوعاً مخففاً من الغزو والفتح .

ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات انه في كل حالة تقريباً كانت اللغة السامية اقوى على البقاء وقد كان هذا عاملاً بعيد الاثر . فلو قيض مثلاً للغة السومرية ذات المفردات المتلاصقة ان تقوى على البقاء في العراق لأصبح من العسير

علينا اعتبار سكان وادي الرافدين من الساميين ، اما المصريون القدماء فقد نشأت عندهم لغة سامية حامية ومن هنا لا نستطيع اعتبارهم ساميين . وعليه فاللفظة « سامي » دلالة لغوية اكثر منها اثنولوجية ويجب ان ينظر الى اللغات الاشورية البابلية والارامية والعبرانية والفينيقية والعربية الجنوبية والحبشية والعربية على انها لهجات تفرعت من لغة واحدة هي اللغة الأم . وقد نرى نظيراً لذلك في اللغات الرومانية وعلاقتها باللاتينية الا ان شيئاً من اللغة اللاتينية قد بقي الى اليوم على الاقل فيما تحلف من ادبها في حين ان اللغة السامية الأم لم تكن الا لغة محكية وقد زالت من الوجود اليوم مع ان صفتها العامة قد يستدل عليها من الامور المشتركة في اللغات الباقية المتفرعة عنها .

واذا سلمنا ان نجد الجزيرة او يمنها هي الموطن الاصلي للشعوب السامية والمركز الذي توزعت منه فان هذا لا يحول دون امكان أنهم كانوا مرة في العصور السابقة ، مع فرع آخر من الجنس الابيض هو الفرع الحامي (١) ، شعباً واحداً في ناحية من نواحي افريقية الشرقية وانه من هذا الشعب تفرع ما دعوناهم بعدئذ بالساميين وعبروا الى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب فيما يظن (٢) وهذا يجعل افريقية الموطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه ، اما الهلال الخصيب فهو مربع الحضارة السامية .

(١) اما الشائع عند البعض في ان بني حام هم من الزوج فليس صواباً .

(٢) George A. Barton, *Semitic and Hamitic Origins* (Philadelphia, 1934) p. 27.

الفصل الثاني

جزيرة العرب

صفحة الجزيرة

بلاد العرب شبه جزيرة في الجنوب الغربي من آسية وليس في خريطة الارض شبه جزيرة تضاهيها حجماً فهي اكبر من شبه جزيرة الهند ومساحتها ثمانية اضعاف الجزر البريطانية واربعة اضعاف فرنسا . وعلى الرغم من ذلك الاتساع العظيم فان عدد سكانها لايتجاوز سبعة ملايين (اي ما يعادل عدد سكان مدينة نيويورك) منهم نحو مليون في الحجاز ونحو مليونين ونصف في اليمن ومليونين في نجد وملحقاتها اي الحسا (البحرين قديماً) والجوف وشالي عسير^(١) ومليون في عسير . ويرى علماء الجيولوجيا ان الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى افريقية (التي يفصلها عنها الآن منبسط وادي النيل ومنخفض البحر الاحمر العميق) والمنطقة الرملية التي تطوق آسية قاطعة اواسط ايران وصحراء غوبي . وكانت الرياح الغربية التي تروى غيومها الآن مرتفعات سورية وفلسطين تصل في الازمنة الغابرة الى الجزيرة قبل ان تفقد هذه الغيوم رطوبتها . وفي اثناء شطر من العصر الجليدي كانت هذه الصحارى مروجاً خضراء آهلة بالسكان . ولما كانت الطبقة الجليدية التي غطت المعمورة انثذلم تتعد جبال آسية الصغرى الشاهقة جنوباً فان الجزيرة لم تتضرر ولم تصبح يوماً غير مأهولة . ولا تزال قيعان اوديتها الجافة العميقة اليوم شاهدة على فعل مياه الامطار فيها حين كانت تسيل فيها السيول الزاخرة . اما حدود الجزيرة الشمالية فغير واضحة المعالم ويمكن

(١) اما اليمامة التي ذكرها جغرافيو العرب الاولون فهي جزء من ارض نجد الجنوبية ولا تزال فيها مساكن بني تميم وفي نجد الشمالية أرض شمر موطن بني طي .

اعتبارها خطأً وهيّا يتجه شرقاً من رأس خليج العقبة حتى الفرات . اما من الناحية الجيولوجية فان صحارى الشام والعراق بكاملها تعد جزءاً من الجزيرة العربية . وينحدر سطح الجزيرة من الغرب الى خليج العجم ومنخفضات ارض الرافدين . وعلى هذه المهامه والبطاح تطل سلسلة جبال محاذية للساحل الغربي هي بمثابة العمود الفقري للجزيرة جمعاء ويبلغ ارتفاع اعاليها اكثر من تسعة الاف قدم في مديان شمالاً واكثر من اثني عشر ألف قدم (١) في اليمن جنوباً ويبلغ جبل السراة (٢) في الحجاز نحو عشرة الاف . وانحدار الارض من هذه القمم الشاخنة الى الشرق تدريجي يمتد الى مدى بعيد . أما الانحدار الغربي نحو البحر الأحمر فقجائي قصير المدى . وحيث ان اقصى معدل ارتفاع الارض فيها هو في الجزء الجنوبي الغربي منها اصبح الانحدار بطبيعته يتجه من الغرب الجنوبي الى الشرق الشمالي وبحاربه اتجاه مسيل المياه . ولقد احاط باطراف الجزيرة الجنوبية حيث يتراجع البحر عند الساحل بمعدل اثنين وسبعين قدماً في العام اغوار واسعة تعرف بتهامة . ويبلغ متوسط ارتفاع نجد وهي الهضبة الوسطى الشمالية نحو ٢٥٠٠ قدم وفي سلسلة جبالها المعروفة بشمّر قمة من حجر الغرانيت الاحمر اسمها أجا يبلغ علوها ٥٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر . وتمتد وراء السهول الساحلية من جهاتها الثلاث سلاسل جبال متفاوتة الارتفاع ففي عمان على الساحل الشرقي ترتفع قمم الجبل الاخضر الى علو ٩٩٠٠ قدم وهو الموضع الوحيد الذي يشذ عن القاعدة التي انها من حيث اتجاه الانحدار نحو الشرق .

واذا استثنينا الجبال والهضاب التي مر ذكرها فان البلاد في الغالب صحارى ودارات والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ومنها

(١) قابل، Carl Rathjens and Herman v. Wissman, *Südarabiens-Reise*, vol. iii, حيث جاء بان جبل حضور النبي (*Landeskundliche Ergebnisse* (Hamburg , 1934) P. 2. شبيب الى الغرب من صنعاء بلغ علوه بالمقياس ٣٧٦٠ متراً (١٢٣٣٦ قدماً) . ولا نعلم قمة اعلى من هذه قيس بالفضل في جزيرة العرب ، الا انه لا يبعد ان يكون في عسير الى الشمال ما هو اعلى منها .
(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب (برل ، ١٨٨٤-٩١) ص ٦٧

بادية الشام وبراري العراق ويعرف القسم الجنوبي من بادية الشام بالحماة ويعرف القسم الجنوبي من العراق ببادية العراق او السهولة . اما الارض الصحراوية فقد تميز فيها ثلاثة انواع :

اولا النفود وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء او حمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثباناً او تلالاً تغطي جزءاً كبيراً من شمالي الجزيرة العربية وتعرف النفود في كتيب اللغة بالبادية واحياناً بالدهناء ومع ان النفود جافة الا في واحاتها القليلة فانه يصيبها في بعض السنين امطار تكفي لتغطيتها ببساط من الخضرة يحولها الى جنة للابل والاعنام التي يرعاها البدو الرحل . ومن بين الاوربيين القلائل الذين اخترقوا النفود نذكر شارل هوبر الفرنسي الالزاسي (١٨٧٨) وولفرد بلنت السياسي الانكليزي الشاعر (١٨٧٩) ويوليوس يوتنغ المستشرق الستراسبورغي (١٨٨٣) .

ثانياً الدهناء وهي ارض رملية حمراء تمتد من النفود شمالاً الى الربع الخالي جنوباً بشكل قوس يبتعد طرفاها الواحد عن الآخر اكثر من ستمئة ميل وقد تميز الجانب الغربي من الدهناء باسم الاحقاف وهي كثبان مستطيلة من الرمال . وتطلق الخرائط القديمة على الدهناء اسم الربع الخالي . واذا هطلت امطار الشتاء في نواحيها غابت الارض بالمراعي التي ينتابها البدو وماشيتهم مدة الموسم التي تطول بضعة اشهر غير ان تلك البقاع في الصيف خالية خاوية . ولم يجرأ قبل برترام توماس^(١) اي اوروبي على اختراق الربع الخالي - الارض التي لا يملكها احد في الجزيرة العربية . وليس هناك ذكر الى ان احداً قد عبرها بالطائرة وقد اتم توماس عمله هذا في ثمانية وخمسين يوماً قطع الربع الخالي فيها من بحر العرب حتى خليج فارس وقد شاهد ظاهرة غريبة - الرمال المغردة - واكتشف بحيرة من المياه المالحة ظهر فيما بعد انها من متفرعات خليج فارس جنوبي قطر . ولم تكن معلوماتنا حتى ذلك الوقت عن هذه الاصقاع الهائلة

(١) راجع Bertram Thomas, *Arabia Felix: Across the Empty Quarter of Arabia* (New York , 1932) .

الحخيفة في جنوبي الجزيرة تزيد عما عرفه جغرافيو القرن العاشر للميلاد .
ثالثاً الحرة وهي ارض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم البراكين القديمة
الخفانية النخرة . وتكثر في بقاع الجزيرة الغربية والوسطى امثال هذه المناطق البركانية
وتمتد شمالا حتى حوران الشرقية وقد ذكر ياقوت ^(١) ما لا يقل عن ثلاثين حرة
اشهرها حرة المدينة حيث انتصر الامويون في سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) على الثائرين
من اهل المدينة المنورة . وآخر انفجار بركاني اشار اليه مؤرخو العرب وقع سنة
٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

وتقع ضمن هذه الحلقة من الصحارى والدارات هضبة نجد ارض الوهايين وقد
انكشفت في سطحها منذ زمن قديم طبقة الحجارة الكلسية تتخللها بعض البقع الرملية .
ويتكون جبل شمر من حجر الغرانيت والرخام الاسود .

الاقليم

الجزيرة العربية من اشد البلاد جفافاً وحرّاً ، وعلى الرغم من وقوعها بين
بحرين من الشرق والغرب فان مساحة هذين البحرين أضيق من أن تكفي لكسر
حدة الجفاف المستمر المعروف في هذه الاقاليم الافريقية الاسيوية العديمة المطر . ولئن
كان المحيط الهندي في الجنوب يساعد على وقوع بعض المطر في اطراف الجزيرة
فان الرياح الموسمية المعروفة بالسموم التي تنتاب الجزيرة في مواسم معروفة تسلب
الرطوبة من الهواء قبل ان يبلغ داخلية البلاد . أما الرياح الشرقية المنعشة المعروفة
بريح الصبا فقد كانت موضوعاً محبباً يتغنى به شعراء العرب . ويرى العربي في المطر
رحمة من الله ومن مرادفات اسمه الغيث وفيها ما فيها من معاني العون والنصرة .

وفي الحجاز مهد الاسلام تنتاب البلاد مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو
أكثر ومع ذلك فمعدل سقوط المطر فيها يزيد عنه في مصر الوسطى . وقد يقع وابل
عنيف من المطر على المدينة او على مكة فيكاد يهدد احياناً كعبتها بالهدم وقد

خصص البلاذري ^(١) فصلاً كاملاً لآخبار سيول مكة . وحدث سنة ١٩١٠ ان اعترضت خديوي مصر وهو يقوم بفريضة الحج سيول بين البحر والمدينة اضطرته ان يرجئ سفره ثلاثة ايام . ويعقب نزول هذه الامطار ظهور المراعي المألوفة في الصحراء . وليس في شمالي الحجاز ارض تسكن سوى الواحات المنعزلة ولا تزيد مساحة اكبرها عن عشرة اميال مربعة وقد اختفت معالم بعض الواحات القديمة كواحة فذك التي كانت معروفة في صدر الاسلام وكان اليهود في ايام الرسول يزرعون معظم هذه المناطق المخصبة . وخمسة اسداس السكان في الحجاز اليوم هم من البدو ومعدل درجة الحرارة السنوي فيها يقارب التسعين (فارنهایت) اي ما يعادل الثلاثين بمقياس سنتيغراد ، اما متوسط درجة الحرارة في المدينة فلا يزيد كثيراً عن السبعين ومن هنا كانت المدينة اطيّب مناخاً من اختها الجنوبية مكة .

وقد يقع بعض المطر في اقاليم الجزيرة الوسطى من الغيوم المتبخرة عن سطح خليج فارس . واما الهواء الرطب المنبعث من البحر الاحمر فان معظمه يجف قبل بلوغه منحدرات الجزيرة الشرقية الواسعة . ويعود الفضل في خصب التربة بنجد ذات الواحات الكثيرة المتصلة الى مياه وادي الرمة في جوف الارض وعلى سطحها والى نزوح الماء من اعالي جبل شمر حيث يزيد سقوط المطر عما هو في ارض الدلتا بمصر . وتقع الرياض عاصمة نجد الحالية في بقعة طيبة المناخ . ولا تسقط الامطار الموسمية الا في اليمن وعسير وهي هناك تكفي لتأمين زراعة الارض زراعة منتظمة ففيهما تجد خضرة دائمة تنبت في اودية خصبة تمتد الى نحو مئتي ميل من الساحل . ويزيد ارتفاع صنعاء عاصمة اليمن اليوم على سبعة آلاف قدم عن سطح البحر . وهي لذلك من اصح المدن وأجملها في الجزيرة . وهناك على الشاطئ بقاء اخرى خصبة ولكنها ليست متصلة . وتتميز بخضرموت الاودية العميقة التي قيل عنها انه « يسبح قعرها في الماء » . ويصل الى عُمان ، وهي ابعد اقاليم الجزيرة

(١) البلاذري فتوح البلدان طبعة دي غويه (لندن ، ١٨٦٦) ص ٥٣ - ٥٥ وترجمته للانكليزية : Philip K. Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York, 1916), pp . 82 - 4 .

شرقاً قدر لا بأس به من المطر . اما جدة فهي من اشد المدن حرارة ورطوبة ومثلها الحديدية ومسقط .

ولا تستطيع الجزيرة ان تفخر بوجود نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر . وليس في انهارها الصغيرة ما يصلح الملاحة . وقد عوّضت عن الانهار بشبكة من الاودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الامطار . وتقوم هذه الاودية بغرض آخر ذلك انها تحدد طرق القوافل والحج . وقد اصبح الحج منذ ظهور الاسلام حلقة الاتصال الرئيسية بين بلاد العرب والعالم الخارجي . واهم الطرق البرية اثنان احدهما يسير من العراق ماراً ببريدة في نجد متتبعاً وادي الرمة والآخر من الشام ماراً بوادي سرحان متاخماً لساحل البحر الاحمر . اما الخطوط التي تصل ما بين انحاء الجزيرة المترامية فهي اما ساحلية تحف بكل اطراف شبه الجزيرة تقريباً او داخلية مخترقة الجزيرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي معرجة على الواحات الوسطى متجنبية المنطقة المتوسطة المعروفة بالربع الخالي .

ولقد روى الاصطخري ^(١) احد جغرافي القرن العاشر الميلادي أن ليس في الحجاز مكان ابرد من جبل غزوان بجوار الطائف وانه ربما جمد الماء في ذروته . وليس في الحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع . وأشار الهمداني ^(٢) الى جمود الماء في صنعاء . ويضيف غلازر ^(٣) الى هذين الموضعين جبل حضور الشيخ في اليمن الذي تسقط عليه الثلوج في شتاء كل عام تقريباً . واما الصقيع فهو اكثر من ذلك شيوعاً .

نبات الجزيرة

ان جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وازدهارها . ويكثر

(١) مسالك الممالك ، طبعة دي غويه (لندن ، ١٨٧٠) ص ١٩

(٢) الاكليل ، الكتاب الثامن نشر نبيه امين فارس (برنستون ، ١٩٤٠) ص ٧

وراجع ايضاً ، تزيه العظم - رحلة في بلاد العرب السعيدة . (القاهرة ، ١٩٣٧) ص ١١٨

(٣) راجع A . Petermann , Mitteilungen aus justus Perthes geographischer Anstalt , vol . 32 (Gotha,1886) , p. 43.

النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن وبعض الواحات ويزرع الشعير لتأكله الخيول وتنمو الذرة في مناطق خاصة كما ينمو الارز في عمان والحسا . ولا يزال شجر اللبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي لا سيما في مهرة وقد كان لشجر اللبان هذا اهمية ممتازة في الحياة التجارية الاولى في البلاد العربية الجنوبية . ومن اخص حاصلات عسير الصمغ العربي . واما شجرة البن التي تشتهر بها اليمن اليوم فقد ادخلت الى بلاد العرب الجنوبية من الحبشة في القرن الرابع عشر . ولعل اقدم اشارة الى القهوة - خمر الاسلام - قد وردت في مؤلفات القرن السادس عشر^(١) ولم يذكرها كاتب اوربي قبل سنة ١٥٩٢ .

وتوجد في البادية عدة انواع من شجر السنط (الاكاسيا وتسميها العامة فتنة) منها الاثل (tamarisk) والغضا الذي ينتج الفحم الممتاز والطلح الذي يستخرج منه الصمغ العربي . وتنتج البادية ايضاً السمح وتطحن حبوبه دقيقاً يستعمل في صنع العصيدة كما توجد الكمأة والسنا وللعربي رغبة خاصة في الحصول عليها .

ومن أشجار البلاد الكرمة التي ادخلت زراعتها من الشام بعد القرن الرابع للميلاد وهي كثيرة في الطائف ويستخرج منها الشراب المعروف بنبذ الزبيب . واما الحمرة التي تغنى بذكرها شعراء العرب فهي نوع كان يستورد من حوران ولبنان ولم يكن شجر الزيتون - وموطنه الشام - معروفاً في الحجاز . ومن حاصلات الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش واللوز والبرتقال والليمون الحامض وقصب السكر والبطيخ والموز . ويرجح ان الانباط واليهود هم الذين ادخلوا هذه الفواكه الى الجزيرة من الشمال . ويقال ان البطيخ كان من احب الفاكهة الى الرسول ويروى حديث نبوي مفاده ان البطيخ منقول من الجنة . واخرج الخطيب فيما

(١) راجع الجزيري « عمدة الصفوة في حل القهوة » في كتاب de Sacy, *Chrestomathie arabe*, vol. i, pp. 138 seq. (Paris, 1826) 2 nd. ed. وما يليها . والترجمة ص ٤١٢ وما يليها وانظر ايضاً كتاب الكواكب السائرة للشيخ نجم الدين الغزي نشر الاستاذ جبرائيل جبور ، (بيروت ، ١٩٤٥) الجزء الاول ص ١١٤ .

رواه مالك ابن انس قال : « ليس في الدنيا شيء يشبه ما في الجنة الا الموز » ثم قال وانت ترى الموز في الصيف والشتاء .^(١)

النخل

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات في الجزيرة العربية فهي تنتج اطيب ثمر واعمه ، التمر الذي لا نظير له . وقوام الطعام عند البدوي لوان التمر والحليب . واذا استثنينا لحم الابل فالتمر هو الطعام الصلب الوحيد الذي يتناوله البدوي .^(٢) وشراب التمر اذا خمر اصبح النبيذ المرغوب فيه ونواه المسحوقة تصنع اقراصاً لعلف الجمال . ومنية البدوي ان يحصل على الاسودين - الماء والتمر - وقد اخرج في الحديث ان الرسول قال : « اكرهوا عتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم . »^(٣) وقد ذكر مؤرخو العرب ان في المدينة وما حولها نحو مئة صنف من البلح .

وملكة الاشجار العربية هي ايضاً غير عربية الأصل فقد نقلت الى الجزيرة من الشمال من ارض بابل حيث كانت شجرة النخل اعظم العوامل التي اجتذبت الانسان القديم للتوطن هناك . ولا تزال في اصطلاحات العربية الدارجة في نجد والحجاز الفاظ زراعية مثل بعل (اي ما يروى بماء المطر فقط)^(٤) واكار (حارث) تدل على انها مستعارة من شعوب الشمال الساميين وخصوصاً الاراميين .^(٥)

حيواناتها

ويمثل مملكة الحيوان في الجزيرة النمر والفهد والضبع والثعلب والضب . اما الأسد الذي تكثر الاشارة اليه في الشعر القديم فيبدو انه انقرض الآن . ولا

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة (القاهرة ، ١٣٢١) ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) راجع ابن قتيبة ، عيون الاخبار (القاهرة ، ١٩٣٠) ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١٣ .

(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) راجع ما سيرد فيما بعد في فصل الحجاز في فجر الاسلام تحت عنوان « وثنية البدو »

(٥) راجع ما سيرد فيما بعد في فصل الحجاز في فجر الاسلام تحت عنوان « اليهود »

تزال القردة موجودة في اليمن . ومن طيورها الكواسر العقاب والبازي والصقر واليوم . وتكثر الغربان فيها ولكن أكثر الطيور وجوداً الهدد والقبرة والعندليب ^(١) والحمام ونوع من الجمل اشتهر في الأدب العربي باسم القطا . ومن الحيوانات الداجنة الجمل والحمار وكلب الحراسة والكلب السلوقي والقطعة والغنم والماعز . اما البغل فيقال انه ادخل الى الجزيرة من مصر بعد الهجرة وكان النبي يؤثر ركوبه على ركوب الخيل .

ويكثر الجراد في الصحراء ويعتبره البدوي طعاماً شهيماً لا سيما اذا شوي وملح ، وقد يحدث البلاء من انتشاره ، ويقال ان آفة الجراد تظهر مرة كل سبع سنوات . اما الزواحف فتميز النفود بنوع منها هو الحية العنقاء ذات القرنين . وقد تحدث لورنس ^(٢) بشكل مفزع عما قاساه من الخوف من الافاعي في وادي سرحان .

الحيول العربية

وبرغم اشتهار الخيل في الأدب الاسلامي فان تاريخ دخولها الى الجزيرة العربية كان متأخراً ، فلئن عرفت نجد بجيادها الكريمة فان الشعوب السامية الأولى لم تعرف الخيل ويرجع الفضل في تدجينها الى الشعوب الآرية فقد كانت منهم في الازمان القديمة رعاة من القبائل الهندية - الاوربية يتنقلون في الاراضي الواقعة الى الشرق من بحر قزوين وكانوا اول من دجن الخيل ثم استوردوها بعد ذلك الكاشيون والحيثيون على نطاق واسع وانتقل هذا الحيوان بواسطتهم الى آسية الغربية قبل الميلاد بنحو ألفي عام ثم ادخل قبل العصر المسيحي من سورية الى الجزيرة العربية حيث تهيأت له السبل للاحتفاظ بنقاوة دمه وخلوصه من الهجنة والاختلاط . ونقل المكسوس (الرعاة) الحصان من سورية الى مصر ونقله الليديون من آسية الصغرى الى اليونان حيث خلد ذكره النحات فيدياس في البارثينون . ويبدو العربي في الآثار المصرية والاشورية - البابلية والفارسية القديمة جملاً لا خيلاً وكان الجمل

(١) راجع المألوف - معجم الحيوان (مصر ، ١٩٣٢) ص ١٧٠ و ١٧١

(٢) T . E . Lawrence , Seven pillars of Wisdom . (New York , 1936) pp. 269-70

لا الحصان هو الذي يذكر عند جمع الجزية التي كان يفرضها الفاتحون الاشوريون على الاربي او العُرَبِي (١) (يعني العربي) . وفي جيش احشويروش الذي كان مصمماً على فتح اليونان ظهر العرب يركبون جمالا (٢) وقد انكر المؤرخ سترابو (٣) وجود الحصان في الجزيرة العربية ولعله اعتمد في هذا على ما رواه صديقه ايليوس غالوس القائد الروماني الذي غزا الجزيرة عام ٢٤ ق. م.

ومن الخيول العربية الاصيل الكحيالات ويتميز بنجمال جسمه وقوة احتماله ونباهته واخلاصه لسيدته وتعلقه به وهو المثل الذي استمدت منه الآراء الغربية فيما يتعلق بتربية الخيول الممتازة . وفي القرن الثامن ادخل العرب الخيل الى اوروبا عن طريق اسبانية حيث خلفت أثرها الدائم في أنسلها من الخيول المغربية والاندلسية . (٤) وفي اثناء الحرب الصليبية اكتسبت الخيول الانكليزية دماً جديداً لاختلاطها بالخيول العربية .

ويعتبر امر اقتناء الخيل في بلاد العرب من الامور الكمالية فاطعامها والعناية بها مشكلة من مشاكل ابن الصحراء ولا يستطيع حيازتها الا من كان على سعة من العيش . واهم مزية للخيل عند البدوي هي سرعتها التي تحقق له النجاح في الغزو وتستعمل ايضاً في اللهو والالعاب الرياضية كرمي الجريد والسباق والصيد . وكمن من بدوي في مخيمه اليوم اذا قل الماء لديه وتلهف صفاره لجرعة منه تراه لا يصغي الى صراخهم بل يقدم آخر نقطة عنده من الماء لحصانه . ومما لاحظته موزل ان البدوي وذويه قديبتون على الطوى في سبيل توفير شيء من الحليب او الحبوب لفرس عندهم ذات فلو . (٥)

(١) راجع ما سيرد في الفصل الرابع تحت عنوان توغل الاشوريين .

(٢) Herodotus, *History*, Bk. VII, ch. 86, § 8 .

(٣) *Geography*, Bk. X VI, ch. 4, §§ 2 & 26 .

(٤) William E. Brown, *The Horse of the Desert* (New York, 1929), pp 123 seq. .

(٥) Alois Musil , *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (

(New York 1928), p. 374 - 5

واذا كان الفرس انبل حيوان استطاع الانسان ان يدجنه فان الجمل دون ريب هو بالنسبة للبدوي اعظم الحيوانات نفعاً ، ولولاه لما كانت البادية صالحة للسكنى ، فالجمل هو الذي يغذي البدوي وهو اداة انتقاله وهو نقده الذي يتبادل السلع بواسطته وهو فوق ذلك وحدة القياس لمهر العروس ، ودية القتيل ، وارباح الميسر ، وغنى الشيخ ، فكل ذلك يقدر بعدد معين من الجمال . والجمل رفيق البدوي وصنو نفسه وحاضنته التي ترضعه فيشرب لبنه بدل الماء (الذي يوفره للماشية) ويجعل طعامه من لحمه وكساءه من جلده ويحوك خيمته من وبره ويتخذ روثه وقوداً وبوله علاجاً لتقوية الشعر ودواء يستشفي به . وليس الجمل في نظره « سفينة الصحراء » فحسب بل هو هبة الله « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » ^(١) ولشبرنفر كلمة طريفة في هذا الصدد وهي ان البدوي يعيش طفيلياً على الجمل ^(٢) وكثيراً ما يتباهى البدو في ايامنا هذه بانهم « اهل البعير » وقد ذكر موزل انك تكاد لا تجد احداً في قبيلة الرولة لم يشرب في مناسبة ما الماء من جوف الجمل ^(٣) واذا دعت الحاجة فانهم يذبجون جملاً مسناً او يدفعون عصاً في حلقه ليتقيأ ما في جوفه من الماء فاذا كان الجمل قد شرب قبل يومين فالماء الذي يستخرج من جوفه يشربه البدوي . ويختلف الجمل العربي عن الدهايج او الجمل البقراطياني بانه ذو سنام واحد في ظهره وان وبره انعم وادق ، والبدو يميزون بين البعير (جمعها اباعر وبعران)

(١) سورة النحل ٥ - ٨ .

(٢) انظر (Zeitschrift der deutschen Morgenlandischen Gesellschaft , XIV (1891) p. 361 . 1 13

(٣) The Manners etc p. 368 Cf. Bertram Thomas in The Near East and India, Nov. 1, 1928 p. 518

وهو يستخدم لحمل الاثقال و بين الذلول او الهجين وهو ضرب كريم من الابل يستخدم للركوب . وقد لعب الجمل دوراً كبيراً في حياة العرب الاقتصادية يدل ذلك على ذلك ما يقال من ان اللغة العربية تضم نحو الف اسم للجمل في مختلف انواعه واشكاله ومراحل نموه وهو عدد لا ينافسه الا عدد المترادفات لكلمة السيف . ويستطيع الجمل العربي ان يصبر عن الماء نحو خمسة وعشرين يوماً في الشتاء وخمسة ايام في الصيف . ولقد كان الجمل من العوامل التي سهلت الفتوح الاسلامية الاولى ، ذلك انه اتاح لأصحابه سرعة في الحركة جعلتهم يتفوقون على اهل الحضرة . وينسب الى الخليفة عمر أنه قال : لا يفلح العربي الا حيث 'يفلح' الجمل . ولا تزال الجزيرة العربية اهم موطن في العالم لتربية الجمال . وقد اصبح لخيول نجد وحير الحسا وهجن عمان شهرة عالمية . وقد كانت في السابق مواسم الحج في الحجاز ومغاصات اللؤلؤ في عمان ومنطقة خليج العجم لاسيما البحرين ، ومعادن الملح في بعض البقاع ، وتربية الجمال ، موارد الدخل الرئيسية في البلاد . ولكن منذ ظهرت منابع البترول وشرع في استثمارها سنة ١٩٣٣ اصبح الدخل من الاعمال في شركات الزيت وصناعاته اعظم مورد في البلاد فأبار البترول في الحسا تعدّ من اغنى الآبار في العالم . وقد ادخل الجمل (وهو كالحصان حيوان اميركي الأصل) من شمالي الجزيرة العربية الغربي الى فلسطين وسورية بمناسبة غزو المديانيين لها في القرن الحادي عشر ق.م حسبما ورد في سفر اقتضاة ٦ : ٥ ^(١) ولعل هذه اول اشارة الى هذا الحيوان في الآثار المكتوبة . وقد ادخل الجمل الى مصر زمن الفتح الاشوري في القرن السابع قبل الميلاد وادخل الى شمال افريقية زمن الفتح الاسلامي في القرن السابع للميلاد .

(١) لانهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويحيثون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجماله عدد .

الفصل الثالث

حياة البدو

القبائل الرمل

ينقسم سكان الجزيرة تبعاً لطبيعتها المزدوجة الى قسمين رئيسيين بدو رحل وحضر مقيمين . وليس الحد الذي يفصل بين فئات العرب الرحل وبين فئاتها الأخرى التي استقر بها المكان واستوطنت المزارع والمدن واضحاً دائماً بل يكاد ان يكون في بعض الاحوال غامضاً مبهماً لان مراتب التطور تدريجية تبدو فيها الجماعات تارة نصف بدوية وأخرى نصف حضرية . فمن سكان المدن من كان في سالف عهده بدوياً ولم يخلع كل مظاهر البداوة ومن البدو من لم يزل في دور الانتقال من البداوة الى الحضارة . بهذه العملية يتجدد دم الحضار اذ يدخل في حظيرتهم ابناء البادية وعلى هذا النمط يتم الامتزاج بين دم البدوي ودم الحضري . وفي اطراف بادية الشام يشاهد الناظر اليوم منازل هي درجة وسطى بين البيوت والخيام .

وليس البدوي غجرياً دأبه الطواف والتجوال على غير هدى بل انه يمثل افضل ما استطاعه الانسان من التكيف بموجب مقتضيات حياة البادية . لذلك فهو ابدأ ساع الى المربع الخضراء انتجاعاً لما فيها من ماء وكلاً . فالبداوة اذن شكل منسق من اشكال الحياة يلائم مقتضيات البيئة في النفوذ مثلاً كما تلائم الحياة الصناعية مقتضيات البيئة في ديترويت او منشستر .

ويبحث على انشاء العلاقات بين اهل المدن واهل البادية عوامل من الحاجات الملحة التي تملئها المصالح الذاتية والرغبة في المحافظة على النفس . فالبدوي يصير على ان من حقه ان يسلب ما يحتاجه من موارد العيش التي يغني وينعم بها جاره

الحضري المخطوط . ولقد يستفحل كيد البدوي للحضري فيعمد الى العنف - الغارات - ولكنه في الغالب يتخذ اساليب سلمية - كالمقايسة . فالبدوي تارة فرد من « قرصان » البر واخرى سمسار من سمسرة التجارة وربما اجتمعت فيه المزيقان . والبادية التي يمثل فيها البدو دور قرصان البر تشا كل البحر في بعض الخصائص الظاهرة . والبدو على هذا عامل من عوامل الخير للحضر حين يختلطون بهم بالزواج فينشأ عن هذا التهجين جيل جديد فيه حيوية جديدة ونشاط .

والبدوي ^(١) باعتباره جنساً من اجناس البشر لا يزال على حالته الى اليوم كما كان بالامس وكما سيكون في الغد بحيث ان نمط ثقافته لا يتغير ابداً . وليس التطور والتقدم والنشوء من الشرائع التي يدين بها من تلقاء نفسه . فهو يعيش ابداً كما عاش اجداده تحصنه مناعة شديدة ضد غارات الاراء الخارجية والعادات الغربية . ومساكنه خيام من شعر الماعز ووبر الابل « بيوت الشعر » . وهو يرعى غنمه وابله على الطريقة القديمة نفسها وفي المراعي القديمة نفسها . وعنده ان تربية الاغنام والابل اولا ، وتربية الخيل وتوليدها والصيد وشن الغارات ثانياً ، هي اهم ما يشغله ، وهي العمل الوحيد الذي يحذر بالانسان ان يقوم به . وتراه يزدرى الزراعة والصناعة وغيرها من وجوه الحرف والاتجار ويحسبها مما يخط من قدره . ولكن سرعان ما تزول عنه صفة البداوة هذه اذا ما بارح بيئة الصحراء . ولقد قامت في الهلال الخصيب دول كبرى ثم دالت وذهبت اما في فيافي الصحراء القاحلة فالبدو كانوا ولا يزالون فيها كما هم الى ما شاء الله . ^(٢)

ولقد احتكر السلطة في البادية ثالوث استوت له السيطرة على كل ذي حياة في الصحراء وهذا الثالوث هو البدوي والجل والنخلة . واذا اضفت اليها شيئاً رابعاً هو الزمالة عرفت الممثلين الاربعة العظام الذين يمثلون رواية الحياة في الصحراء

(١) انظر حافظ وهبه ، جزيرة العرب (مصر ، ١٩٣٥) .

(٢) ان امر تخضير البدو واحلالهم الاراضي ليستقروا بها يعتبر من الظواهر الاساسية في الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم بها ابن سعود .

في كيانها الأساسي .

وما البادية في نظر بنيها موطناً فحسب بل هي بمثابة الحارس الامامي الامين على تقاليدهم وشعائرهم المقدسة . فهي تحمي نقاوة لغتهم ودمهم بل هي خطدفاعهم الاول ضد كل عدو مفاجيء . ولئن كانت قلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر وآفة القحط كلها اعداء تآزرت على البدوي في احواله العادية فانها في الوقت نفسه اذا ما انتابه العدو احلاف تقوم بمناصرته ونجدته . فلا عجب اذن اذا رأينا البدوي يندر ان يطاطىء رأسه تحت نير أجنبي .

وفي البدو اثر واضح من حياة الصحراء وطنه المتسقة المطردة . ويتجلى هذا الاثر في بنيته الجسدية وتكوينه العقلي . وايس جسم البدوي لدى التشريح سوى حزمة من الاعصاب الحساسة والعظام والعضلات . فكأنه مثال لجذب الارض وقحطها . ويتألف طعامه اليومي من التمر وشيء من الدقيق او الذرة المحمصة ممزوج ببعض الماء او الحليب . ولباسه بسيط كما كله - ثوب طويل يجمعه الى وسطه منطقة تحت عباءة . ولباس رأسه كوفية يعلوها عقال . وهو لم يألف ارتداء السراويل وقلما عرفت رجلاه الخذاء . واطهر فضائله التجرد والصبر اللذان يمكنانه من الحياة حيث يكاد يهلك كل شيء غيره . الا انه يتصف بما يقابل ذلك من القناعة وعنده ان الاستسلام او الخضوع في اكثر الاحيان يفضلان على المحاولة والسعي لتحويل بيئته مهما تعاظمت اسواء تلك البيئة . على ان الروح الفردية ، وهي خصلة اخرى فيه ، تمكنت منه الى حد تعذر معه عليه ان يرفع مستواه الى مصاف الانسان الاجتماعي المعروف بنزعتة الاممية . كذلك لم يتسن له ان يتخيل مثلاً عليا توحى اليه الشعور بالاخلاص لما فيه خير المجموع ، اللهم الا ما كان فيه مصلحة القبيلة التي ينتمي اليها . وليس النظام والخضوع للامر واحترام القانون من الآلهة التي تفرض البادية عبادتها . ولقد روى ابو هريرة عن اعرابي جاء يزور النبي قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة وقمنا معه فقال اعرابي في الصلاة :

للهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا احداً» ^(١) هذا هو البدوي منذ عهد اسماعيل :
« يده على الكل ويد الكل عليه » . ^(٢)

الغزو

لقد قضت احوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو ، وهو في الواقع نوع من اللصوصية ، الى مرتبة يقرها النظام القومي . فأصبح الغزو من اركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية . واستولى حب القتال على نفوس اهل البوادي حتى اصبح حالة عقلية مزمنة ، واصبح شن الغارات نموذجاً للأعمال التي يليق بذوي الرجولة الحق ان ينصرفوا اليها . حتى ان القبائل النصرانية كبنو تغلب مارست الغزو ولم تتنيد بوازع عقلي او ديني . ولقد عبر الشاعر القطامي (المتوفى عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) وهو من شعراء العصر الاموي الاول وكان نصرانياً ثم دخل الاسلام ، عن المبدأ الذي انطوت عليه هذه الروح بيتين من الشعر قال :

« اغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حاب حانا
واحياناً على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا اخانا » ^(٣)

وينجز اعتبار الغزو ضرباً من الرياضة القومية . ووفقاً لقواعد هذه الرياضة كان لا يجوز ان تراق الدماء عند الغزو الا في حالة الضرورة القصوى . ولقد كان الغزو يساعد الى حد ما على انقاص عدد السكان الذين تعيلهم الجزيرة ، غير ان تقليل السكان لا يؤدي الى تكثير موارد العيش . وكان يمكن للقبيلة الضعيفة او للحضر المقيمين على حافة الصحراء ان يأمنوا تعديات القبائل القوية بتأدية ما يسمونه اليوم « الخوة » تتقاضاها القبيلة ذات الحول . والخوة كناية عن ثمن يدفع لقاء التمتع بحقوق الاخوة التي تقضي بالامان والسلم . وجدير بالذكر ان العرب احتفظوا بمبادئ الغزو وبالاصطلاحات التي تستعمل للتعبير عنه حتى في مطلع الاسلام وعهد الفتوحات

(١) ابو داود ، السنن (القاهرة ، ١٢٨٠) الجزء الاول ، ص ٨٩ (٢) تك ١٦ : ١٢

(٣) ابو تمام ، الحماسة نشر فريتاغ (بون ، ١٨٢٨) ص ١٧١

في آسية الغربية في اثناء القرن السابع للميلاد فانهم دعوا الفتوح مغازي واسرفوا في القول ان الحرب خدعة .

ومع ذلك فان مبدأ الضيافة عند العرب كان يخفف الى حد ما من شر الغزو . ولقد لطف حب الكرم والضيافة ما قام في نفس البدوي بالقطرة من حساب البادية مجالا للفوضى والعبث بحيث اصطدمت الفكرة الاباحية بفكرة صيانة الضيف . ومهما يكن في البدوي من صفات البغض والاستنكار لعدوه فانه ايضاً ضمن نطاق الصداقة خل مخلص لصديقه . ولقد تغنى شعراء الجاهلية وهم صحافيو يومهم بفضل الضيافة التي تعتبر هي والحماسة والمروءة ^(١) من اسمى الشائيل التي تميز بها الشعب العربي . ولئن كان التزاحم على الماء والمرعى الذي نشأت عنه معظم اسباب القتال قد قضى أن ينشق سكان البادية قبائل يناوىء بعضها بعضاً فان الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة انشأ فيهم الاحساس بحاجة ماسة مقدسة الى الضيافة . وكيف يبخل المرء على الضيف بهذا الحق في بلاد لا تعرف فيها الفنادق ولا النزل . ومتى كان الرجل ضيفاً فليس الى ايدانه من سبيل ، بل قد تعدد الاساءة اليه جرماً ينافي العرف والشرف وينقض اوامر الله عز وجل وهو المجير الخفيظ .

التدوين

ولم تنشأ اصول الديانة السامية في البوادي الرملية بل في الواحات وكانت لاول عهدها تتركز على تقديس الحجارة والغدران حتى في العصور التي سبقت عصر الحجر الاسود وبئر زمزم في الجزيرة وعصر بيت ايل في فلسطين . ولم يكن البدوي يقيم كثير وزن للدين . وقد ورد في القرآن « الاعراب اشد كذباً وثقافاً » (التوبة ٩٨) . ويقال انهم الى يومنا هذا لا يطيعون الرسول الا بالقول . ^(٢)

(١) Ignaz Goldziher , *Muhammedanische Studien* , Pt. 1 (Halle, 1889) p. 13 .

(٢) امين الريحاني ، تاريخ نجد (بيروت ، ١٩٢٨) ص ٢٣٣ .

العشائر

تقوم الهيئة الاجتماعية عند البدو على نظام العشيرة ^(١) ووحدتها الاسرة التي تمثل الواحدة منها الخيمة او البيت . والحى عبارة عن مضرب من مضارب الخيام واعضاء الحى يطلق عليهم لفظ قوم . وتتألف القبيلة من اقوام او عشائر تربطها اواصر النسب . وينظر ابناء العشيرة الواحدة بعضهم الى بعض كابناء دم واحد . وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد - هو كبير اعضاء العشيرة سناً . ويتداعون الى الحرب بصيحة حربية واحدة . ويرجع اسم العشيرة في الغالب الى الجد الاول الذي تنتسب اليه فيقال مثلاً بنو تميم او بنو شيبان وهلم جرا . وتظهر من اسماء العشائر المؤثرة آثار العصر الذي كانت السيادة النسائية فيه اصل المجتمع البدوي . وترجع الرابطة في كيان القبيلة الى العلاقة الدموية سواء أكانت حقيقية ام وهمية . هكذا كان النظام الاجتماعي عند العبرانيين في العهد القديم الذي حفظت اخباره التوراة وهو نظام عشائري قائم على زعامة الآباء ومطابق لنظام العشائر العربية . ومثل ذلك يقال في سوى العرب من الجماعات السامية في بابل وأشور .

وتعتبر الخيمة وما فيها من اثاث حقير ملكاً للفرد اما الماء والمرعى والارض الصالحة للزراع فهي ملك مشاع للقبيلة كلها .

واذا اقترف احد جريمة القتل ضمن نطاق عشيرته فليس ثمة من يدافع عنه ، فاذا فر اعتبر طريداً . ولكن اذا ارتكب جريمة في عشيرة اخرى اقيمت حدود الثأر واصبح كل فرد من افراد عشيرته عرضة لثأر العدو .

ولقد قضت شريعة البادية القديمة ان الدم لا يغسله الا الدم . فكان لا يقبل جزاء آخر غير اخذ الثأر الا في بعض الحالات حين يقبل اهل القتل دية ، وتلقى المسؤولية عموماً على اكتاف ذوي القربى من الانساب . ولقد تستغرق عداوة

(١) فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (مصر ، ١٩٣٣) ص ١٢٣ - ٢٢٧ .

الدم اربعين حولاً كما جرى في حرب البسوس التي دارت رحاها بين بني بكر وبني تغلب . وكان اولئك الذين دونوا اخبار ايام العرب يسعون الى إبراز الدوافع التي أدت اليها ويعززون امر العداوة الدموية الا ان كثيراً من هذه الحوادث بلا ريب بعثتها عوامل اقتصادية بحثة .

وليس من كارثة على البدوي أشر من خسرانه نسبه القبلي . وماذا يفعل من لا قبيلة له في بلاد يحسب بها الغريب عدواً ؟ انه واقع في شر مستطير . ولئن كان اساس الانتساب الى عشيرة من العشائر قائماً على صلة الدم فان لحيازتها ايضاً طرقاً اخرى كأن يشترك الفرد مع ابناء العشيرة التي يريد الانتساب اليها بماً كل او مشرب او امتصاص قطرات من دم احد افرادها رمزاً الى اكتسابه صلة الدم بهم . ولقد ورد في تاريخ هيرودتس ذكر هذه العادة القديمة ^(١) .

واذا اعتق عبد فان مصلحته تقضي غالباً بان يقي علاقته بالاسرة التي ينتسب اليها سيده فيصبح من الموالي . وقد يدخل غريب على قبيلة طالباً الولاء فيها فيسمى (دخيلاً) . وكثيراً ما تحتال العشائر الضعيفة على الدخول في ذمار أخرى ضماناً لمصالحها فتندمج فيها على تعاقب الأيام . واذا تكاثرت القبيلة وتعددت التآليف بين جموعها انقسمت الى قبائل صغيرة تحتفظ جميعها بذكرات النسب القديم . وبالعكس فلقد تتحد القبائل المختلفة بقصد التضامن والمؤازرة في الدفاع عن النفس فتندمج الصغيرة في الكبرى . وهكذا نشأت طي وغطفان وتغلب وسواها وهي في الاصل احلاف من قبائل شمالية . وقد لعبت دوراً مهماً في تاريخ العرب ولا يزال لها سلالة الى الآن في البلدان العربية .

وهناك عادة في الحياة الدينية تشبه هذا ، وهي تتيح للغريب الدخول في خدمة حرم او موضع مقدس ^(٢) فيصبح عندها مولى لرب ذلك المكان . ولا يزال حجاج مكة المكرمة الى يومنا هذا يعرفون بـ « ضيوف الله » . واما الطلاب

الذين ينتسبون الى مسجد مكة او غيره من المساجد العظيمة فيسمون المجاورين .
« اي مجاوري الله » .

العصبة

العصبة روح العشيرة . ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لا جد له لآخوانه
من ابناء العشيرة بشكل يتفق مع ما نعهده من النزعة الوطنية المتطرفة في النظام
السياسي الحديث . وقد قال الشاعر العربي :

« فاحفظ عشيرتك الأدين ان لهم حقاً يفرق بين الزوج والمرء » ^(١)

وما هذه الصفة الفردية اللاصقة التي اختصت بها العشيرة الا صورة مكبرة
للاستقلال الفردي الذي يشعر به ابن العشيرة ، وهي تحذو به الى الظن بان العشيرة
او القبيلة ، حسبما كان الحال ، هي وحدة اجتماعية قائمة بذاتها تزدود عن حوضها
مطلقة الحرية ، ولها ان تحسب كل عشيرة او قبيلة اخرى لقمة سائغة وغنيمة باردة
يحل لها فيها النهب والسلب والقتل . ثم جاء الاسلام فاستفاد من النظام القبلي في
اغراضه الحربية ، فقسم الجيش الى وحدات على اساس القبائل ، واسكن المستعمرين
في الاراضي المفتوحة على اساس القبائل ايضاً . وكذلك اصبح الداخلون في الاسلام
من الشعوب المغلوبة موالي لابناء هذه القبيلة او تلك . ولم تقض الايام على هذه
الصفات التي ظهرت فيها الروح الفردية والعصبية في ابن القبيلة بل ان انعدام
الشعور الاجتماعي ظل متأصلاً في الخلق العربي طيلة القرون التي تقدم العربي وارتقى
فيها بعد بزوغ الاسلام وكان ذلك من العوامل الهدامة التي آلت الى انحلال الدول
الاسلامية المختلفة وسقوطها .

الشيخ

يمثل العشيرة رئيس رسمي هو الشيخ . وليس الشيخ زير نساء كما صورته

(١) المبرد ، الكامل لشرو. ريت (ليبزغ ، ١٨٦٤) ص ٢٢٩ .

هوليود في أشرطتها الناطقة والصامتة بل هو المسن المقدم على افراد القبيلة الذي تظهر زعامته بما يديه من أصالة الرأي والسخاء والشجاعة . فتقدمه على اهل القبيلة مبني على كبر سنه واخلاقه الشخصية . وليس الشيخ صاحب الامر المطلق في الشؤون الشرعية والحربية وسواها ، بل يفرض عليه مشاورة مجلس القبيلة الذي يتألف من زعماء البطون والافخاذ . ويدوم تمتعه بهذا المركز السامي ما دام ولاء القبيلة حليفه . والشيخ في العصور العربية الاولى كان يسمى سيداً اما اليوم فقد خص هذا اللقب بذرية الحسين سبط الرسول - ابن علي وفاطمة .

والعربي عموماً والبدوي على التخصيص ديمقراطي النزعة . وهو يعامل زعيمه الشيخ المتبوع معاملة الاكفاء والقرناء فكأن الهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها قد ساوت بين الناس على الاطلاق . ولقد كان يحییء البدوي في ايامنا الى حضرة الملك حسين بالحجاز فيقف تحت نافذة القصر وينادي : « يا بوعلي » ^(١) ولا غرو فان لقب ملك لم يكن يستعمله العرب الا اذا شاؤوا الاشارة الى الملوك الاجانب أو ملوك غسان ونظم المتأثرين بالنفوذ الاجنبي . ولا يستثنى من هذا القول الا ملوك بني كندة . وينسب الى الخليفة عمر كلام مرماه ان الشعراء والخطباء هم ملوك العرب . على أن للعربي أرستقراطية لا تقل عن ديمقراطيته ، فهو يؤمن ان فيه اجتمعت مقومات الكمال الانساني ، وأن العرب أفضل الامم وأفخرها . وما الرجل المتمدن في نظر البدوي المعجب بنفسه الا رجل أقل منه سعادة وأحط مكانة . ويفاخر العربي الى ذلك بنقاوة دمه وفصاحة لسانه وقوة شاعريته وبسيفه وبجواده وأعظم من ذلك كله فخره بنسبه المجيد . وهو كثير الولوج بارجاع نسبه الى الاجداد العريقين ولقد يربط نسبه بآدم . ولقد فخر الحجاج ابن يوسف عامل الامويين الشديد على العراق يوماً فقال : « لم تلدني امة بيني وبين آدم ما خلا هاجر » ^(٢) . وليس بين الشعوب غير العرب من رفع امر معرفة الانساب الى مرتبة العلوم العالية .

(١) امين الريحاني ، ملوك العرب ، (بيروت ، ١٩٢٤) ج ١ ص ٢٦ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين (مصر ١٣١١ - ١٣) ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ .

وقد كانت المرأة البدوية في الجاهلية تتمتع بحظ وافر من الحرية لم تعرفه اختها الحضرية وظلت كذلك في الاسلام . ومع انها تعيش في بيئة تقرر تعدد الزوجات وتخضع لنظام يجعل الرجل بعلاً اي سيداً لها فانها كانت ولا تزال حرة مستقلة لها حق انتقاء زوجها او هجره اذا لم يحسن معاملتها .

ويمتاز بنو البادية بالمقدرة الفائقة على هضم الثقافات الأخرى حين تحين لهم الفرص فترى القوى الكامنة التي كانت مستكنة أجيالاً طويلة قد تنبثت فجأة بفضل البواث الملائمة وبرزت تعمل بحيوية ونشاط . وانما تسنح هذه الفرص في الهلال الخصيب . فهذا حمورابي يظهر في بابل وموسى يظهر في سيناء وزنوبيا في تدمر ، أو هارون الرشيد على سرير الخلافة في بغداد . وهذه آثار أبنية قد خلفوها مثل البتراء لا تزال الى يومنا الحاضر تثير أعجاب العالم . وأن هذا الازدهار العجيب الذي نراه في فجر الاسلام لراجع في الغالب الى تلك القوى الكامنة التي امتاز بها البدو الذين قال فيهم الخليفة عمر « انهم أصل العرب ومادة الاسلام »^(١) .

(١) ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير نشر ادوار ساخو ، (ليدن ١٩٠٤ - ١٩٢١) المجلد الثالث ، الجزء الاول ص ٢٤٦ .

الفصل الرابع

العلاقات الدولية الأولى

عرب الجنوب

لقد أطلقنا في الفصول السابقة لفظة عرب على جميع سكان الجزيرة بصرف النظر عن مناطقهم الجغرافية ويجب علينا الآن ان نفرق بين عرب الجنوب وعرب الشمال الذين يشملون اهل نجد في أواسط الجزيرة . وكما أن سطح الجزيرة ينقسم الى منطقتين شمالية وجنوبية تفصل بينهما صحراوات غير مطروقة ، كذلك ينقسم سكانها الى جماعتين تمتاز الواحدة منهما عن الأخرى .

وعرب الشمال في الغالب من البدو يعيشون في بيوت من الشعر في نجد والحجاز أما عرب الجنوب فأكثرهم من الحضريين يقطنون اليمن وحضرموت وما جاورها من السواحل . ولغة الشمال هي لغة القرآن اي اللغة العربية المعروفة ، اما اهل الجنوب فلقد كانت لهم لغة سامية قديمة - لغة سبأ وحير - وهي تمت الى اللغة الحبشية بصلة . وعرب الشمال على الغالب مستطيلو الاقحاف اما بنو الجنوب فمستديروها عموماً . لذلك فالأواصر الجنسية تربط الشمال باقوام البحر المتوسط بينما يرتبط الجنوب بالتنوع الالبي المعروف في آسية بالأرمنائي او الحثي او العبراني . وهو يمتاز بسعة الفك وقنو الانف وانبساط الخدين وغزارة الشعر . وقد سبق عرب الجنوب اخوانهم من اهل الشمال في بلوغ ذروة المدنية فانشأوا حضارة وطنية راقية واما عرب الشمال فلم يصلوا الى مسرح الشؤون الدولية حتى ظهور الاسلام .

ولقد ظهرت آثار هذه المميزات القومية بين العرب والشعور بها وحفظت في

انسابهم التي توارثوها فراحوا يقسمون انفسهم قسمين : اولا ، العرب البائدة ومنهم ثمود وعاد ، وقد ورد ذكرهما في القرآن ، وطسم وجديس . وثانياً ، العرب الباقية. وثمرود قوم عرفهم التاريخ فقد ذكرتهم الخطوط الاسفينية في مدونات سرجوت الثاني ، ^(١) وعرفهم ايضاً كتاب اليونان والرومان باسم « تموداي » ^(٢) والتحق بجيش بيزنطة في القرن الخامس للميلاد فيلق من الخيالة الثمودية . اما بنو عاد فقليل انهم سكنوا حضرموت القديمة . ثم يعود النسابون فيقسمون العرب الباقية الى دوحتين مختلفتين : العرب العرباء او العاربة والعرب المستعربة او المتعربة . فالعرباء في رأيهم هم اهل اليمن الذين تسلسلوا من قحطان (يقطان في التوراة) وهم سكان البلاد الاصيلون . اما المستعربة فالحجازيون والنجديون والانباط واهل تدمر - وجميعهم من سلالة عدنان ، وهو من سلالة اسماعيل - فكانهم اغراب دخلوا البلاد وتجنسوا بجنسيتها . ويذكرنا هذا التقسيم التقليدي للعرب كقحطانيين وعدنانيين بالفروق المعروفة بين عرب الجنوب وعرب الشمال . ولقد قضت الأحوال المتنوعة والاسباب الاقتصادية ان تنزح بعض قبائل الجنوب الى ربوع الشمال للاقامة فيها . وما اهل المدينة الذين تسارعوا الى نصرة رسول الله يوم الهجرة الا جماعة من اليمنيين . وكذلك بنو غسان الذين استوطنوا سورية الشرقية واللخميون الذين نزلوا الحيرة بالعراق . على أن قريشاً التي انتسب اليها الرسول كانت من نزار وهي من الدوحة الشمالية .

ولم تتلاش الفوارق بين هاتين الدوحتين العربيتين الى الآن بل بقي الاختلاف بينها واضحاً على الرغم مما حاوله الاسلام من توحيد العرب والجمع بين قبائلهم وبعث امة عربية واحدة .

D. D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. ii (١)
(Chicago, 1927) , § § 17, 118

Pliny , *Natural History*, Bk. VI, ch. 32 (٢)

١ . المعرفات العربية المصرية

كانت جزيرة العرب اسفنيًا يفصل بين مركزي الثقافة القديمة - مصر وبابل - وربما كانت البنجاب في الهند مركزاً ثقافياً ثالثاً ففصلت الجزيرة بينها وبين بلدان الغرب ايضاً . وعلى الرغم من ان الجزيرة لم تقع تحت سلطان الثقافة التي ترعرعت وازدهرت في وادي النيل ووادي الرافدين ، فانها لم تستطع ان تتخلص من تأثيرهما ^(١) . على ان ثقافة الجزيرة في قراراتها كانت ثقافة محلية صرفة حاكت الثقافات التي نشأت على سواحل البحار . ولقد اصبح سكان الجنوب الشرقي منها ارباب تجارة و ثراء توسطوا في سوق التجارة بين مصر وما بين النهرين والبنجاب - وهي مراكز ثلاثة هامة للتجارة في العصور القديمة - وباسمهم تسمى البحر الفاصل بين هذه البلدان .

ولقد كان التماس بين افريقية والجزيرة في الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث يمر خط بري ، وجنوباً حيث تقرب الجزيرة من افريقية عند باب المندب ، فلا تحول دون اتصالهما الا مسافة خمسة عشر ميلاً ، ويربط البرين في اواسط ساحل الجزيرة الغربي خط يقطع البحر الاحمر الى القصير فوادي الحمامات قبالة انعكاف النيل بالقرب من طيبة ، وكان هذا الخط الاخير أهم خطوط الاتصال الوسطى . وقد احتفرت السلالة الفرعونية الثانية عشرة (نحو ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق. م) قناة فوق بليس تربط النيل بالبحر الاحمر . واعاد البطالسة معالم هذه القناة وهي بمثابة الام الاولى لقناة السويس . وجاءت دول الاسلام فاعاد الخلفاء فتحها وبقيت الى ان تم اكتشاف خط رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ م) المؤدي الى الهند .

نحاس ميناء

لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء ، ما فيها من مناجم

(١) تسأل بعض العلماء في الآونة الاخيرة عن امر الجزيرة الجنوبية وهل كانت مركز ثقافة سبقت ثقافات آسية وافريقية . قابل Crawford , *The Geographical Review*, vol. (1926) pp. 73-81

النحاس والفيروز المتوفرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور . وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كان بدو سيناء يبيعون هذه المنتجات الثمينة في اسواق وادي النيل . ولقد تولى فراعنة السلالة الاولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الزاهر الا أيام سنفرو (نحو ٢٧٢٠ ق.م) من فراعنة السلالة الثالثة . وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسورية وفلسطين وتصل منها الى انحاء الهلال الخصيب وآسية الصغرى - وهي اول طريق اممية سلكها الانسان في التاريخ - يتجه منها فرع جنوبي غربي الى مناجم النحاس والفيروز في سيناء . ولقد عثر الاثري بتري سنة ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح ملكي للسلالة الفرعونية الاولى في ايدوس تحمل رسم رجل سامي من النوع الارمنائي كتب عليها « أسوي » ويمثل الرسم رجلاً ذا لحية مروسة حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب . وهناك نقش بارز اقدم عهداً من هذا يعود الى السلالة الاولى ايضاً نرى فيه زعيماً بدوياً ناحل البدن يتزر بمئزر وهو يزحف متدلاً امام آسره المصري الذي هم بهراوة ينوي بها سحق رأسه . وهذان الرسمان هما اقدم الرسوم الموجودة التي تمثل البدو . ويتقابل لفظة بدوي في المصرية « عمو » ومعناها بدوي او أسوي ، وقد ظهرت كثيراً في المدونات الاولى وهي تشير احياناً الى البدو الطاعنين حول الاراضي المصرية وخارج نطاق الجزيرة . وان اول مصري زار فلسطين وابقى لنا أثراً ينبئ عن أخبار رحلته هو سنوهي الذي ظهر في دولة امنمحت الاول (نحو ٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق.م) وهو يشير الى نفسه بلقب « ملك بين البدو »^(١) وفي اثر تاريخي آخر كلام يشعرنا بان امنمحت الاول نفسه حمل على « البدو ففرق شملهم مثل الكلاب الضالة »^(٢) .

الباب

ولقد توطدت العلاقات بين جنوبي الجزيرة ومصر ايام انشأت مصر صلات

Breasted, *Ancient Records of Egypt* (Chicago, 1906-7) vol 1. ch. 450 (١)

vol. 1. ch. 483 المصدر نفسه (٢)

التجارة مع فوط (بنت) والنوبة . ولقد ذكر هيرودتس ^(١) ان سينزوستريس ، والاولى ان يقال سنوسرت الاول (١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق.م) من السلالة الثانية عشرة قد افتتح الامصار المتاخمة للخليج العربي ولعلها الشقة الافريقية من البحر الاحمر . ثم كان للسلالة الثامنة عشرة اسطول في البحر الاحمر . ولكن منذ عهد السلالة الخامسة كان ساهوري (٢٧٤٣ - ٢٧٣١ ق.م) قد رأس اول حملة بحرية بطريق البحر الاحمر الى بلاد تفيض لبناً يتضح انها بلاد الصومال على الساحل الافريقي . وكان اهم ما يجذب المصريين الى جنوبي الجزيرة هو اللبان الذي كانوا يقدرونه كثيراً اذ كانوا يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تخيط موتاهم ، وكانت تلك البقاع من الجزيرة غنية جداً بهذا اللبان .

ولما تم لفرعون النصر على النوبة وضم ارض فوط (الصومال الحديثة) الى نطاق الامبراطورية المصرية التجاري نظم حملات شتى سارت الى هذين البلدين في طلب « المر والصوصغ العطرة والراتينج والاختشاب الزكية » منها حملة جردتها حتشبسوت الملكة (نحو ١٥٠٠ ق.م) الى فوط وهي اول امرأة تصدرت التاريخ . واما خليفتها تحتمس الثالث ، نابوليون مصر القديمة ، فلقد عادت سفنه من تلك الارحاء حاملة طرائف « العاج والابنوس » ^(٢) والارقاء وجلود الفهود . ولما كانت اليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة تمتاز بهذه السلع الثمينة ايضاً فلا يستبعد ان المصريين انما اطلقوا لفظه فوط على البلدين اللذين يفصل بينهما باب المندب . ويظن ان الذهب ايضاً كان يصدر من الجزيرة . وكانت تجارة البخور الآتية من جنوبي الجزيرة تمر بوادي الحمامات بحيث اصبح ذلك الخط الاوسط اهم حلقة للاتصال ببلاد العرب الجنوبية . واشتهرت حضرموت ^(٣) وهي بين اليمن وعمان بانها كانت ارض البخور واللبان وكانت مساحتها في القديم اعظم منها الآن لانها كانت تشمل

(١) Bk. II ch. 102

(٢) لفظه « أبنوس » هي من اصل مصري قديم « مبي »

(٣) هي حصر ماوث في العبرانية تك . ١ : ٢٦ .

قطري مهرة والشحر^(١) الساحليين . واهم مدنها آنثذ ظفار وهي ذفر اليوم من مقاطعات الساحل ، ولسطان عمان نفوذاسمي عليها ، ويجب ان لا يخلط بين ظفار هذه التي كانت المركز التجاري لبلاد اللبان وهي على الساحل الجنوبي وبين ظفار المدينة اليمنية الداخلية التي كانت عاصمة حمير^(٢) . ولا تزال اشجار اللبان تنمو في حضرموت وغيرها من انحاء الجنوب ولا تزال ظفار كما كانت في الماضي مركز تجارتها . وطريقة اجتناء اللبان ان جانبه يشق في لحاء الشجرة شقاً ضيقاً تسيل منه عصارتها حتى اذا جفت على جذع الشجرة واصبحت مادة راتنجية كسطها وتكون عندئذ صالحة للاستعمال كبخور . ولقد ذكر ياقوت^(٣) اجتناء اللبان بما ينطبق على ما مر واذاف ان سلطان ظفار كان قد استبد بهذه التجارة وسيطر على مراقبها بما يشبه الاحتكار حتى انه حظر التعاطي بها واصحاب اللبان « لا يقدرّون يحملونه الى غير ظفار وان بلغه عن أحد منهم انه يحمله الى غير بلده اهلكه » .

وجدير بالذكر ان المصريين القدماء لم يستقلوا بميدان المصالح التجارية في الجزيرة فلقد كان ينازعهم في تجارة الطيوب والمعادن منافسون اشداء في مقدمتهم ابناء بابل .

٢٠ اتصال العرب بالسومريين والبابليين

واقعد تاخمت بلاد العرب الشرقية ارض الرافدين ، وكان سكان العراق القدماء ، السومريون والاكديون ، قد اتصلوا بمن جاورهم من اهل البلاد الغربية (الامورو) وذلك قبل الالف الرابع السابق للميلاد فنشأت بين الطرفين علاقات عن طريقي البر والبحر . والراجع أن السومريين استحضروا النحاس (وهو اول المعادن التي اكتشفها الانسان واستعملها) من مناجمه في عمان .

وهناك كتابة على تمثال من حجر الديوريت لئارام سين (نحو ٢٣٠٠ ق . م)

(١) وبعد ذلك اطلقت لفظة الشحر على كل انحاء الساحل الذي يصدر اللبان منه ومن هذه الانحاء مهرة وظفار ولا يزال لها هذا المدلول حتى يومنا هذا .

(٢) قابل ياقوت ، بلدان . ج ٣ ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٧٧ .

وهو سليل سرجوت (اول عظماء الساميين في التاريخ ومؤسس الدولة الأكديّة في وادي الفرات) وخليفته وهي تنص على انه اخضع «مغان» وغلب سيدها مانيوم^(١) وانبأنا عُغوديا (نحو ٢٤٠٠ ق.م) وهو الباتيسي (لقب الملك او حاكم المدينة عند السومريين وكان يقوم بواجبات الكهنوت الى جانب رئاسته السياسية) السومري حاكم لغاش انه دبر حملة على « مغان » و « ملوخا » طلباً للتجارة والخشب لبناء هيكله . وقد امعن علماء اللغة الاشورية في تقصي اصل هذين الاسمين الدالين على مكانين ولعلهما اطلقا اولاً على بقعتين معينتين في شرق الجزيرة واواسطها ثم في العصر الاشوري جعلوها اسمين لموضعين أبعد مسافة يظن انهما في شبه جزيرة سيناء او افريقيا الشرقية . ورأى بعضهم ان ملوخاً موطن العماقة في سيناء بجوار البتراء . ولا تمت مغان من حيث الاشتقاق بصلة الى معان^(٢) وهو اسم الواحة المعروفة في شمالي الحجاز (وهي الآن في شرق الاردن) وكانت على الاغلب مستعمرة قديمة على طريق القوافل التي ذكرها كتاب اليونان والرومان . ومهما يكن من امر فإن لنا في هذه الكتابة الاسفينية اول اشارة مدونة في التاريخ الى موضع معين في الجزيرة والى قوم من العرب . وفي كتابة اخرى اقرب عهداً خلفها لنا اردننر (نحو ٢٣٠٠ ق.م) ذكر ارض « سبو »^(٣) . ولا سبيل الى التسليم انها هي سبأ العربية .

وجاء في النقوش الاسفينية ذكر « الارض البحرية » وكان الرأي السائد الى الآن انها الاغوار الواقعة الى الشمال من خليج العجم . غير ان هناك نظرية جديدة تجعلها جزءاً من الجزيرة نفسها يشمل شواطئ خليج العجم الغربية الى غاية جزيرة البحرين (دلمون قديماً) ، وربما كانت الاراضي البحرية تشمل ايضاً النفود حتى

(١) F. Thureau-Dangin, *Les inscriptions de Sumer et d'Akkad* (Paris, 1905), قابل pp. 238, 239 .

(٢) معون او معون العبرانيين (قضاة ١٠ : ١٢ ؛ سفر الاخبار الثاني ٢٦ : ٧)

(٣) Thureau - Dangin, *Les Inscriptions*. p. 213

حدود العقبة على البحر الاحمر . وتفيد النقوش ايضاً ان نبوبولاصر كان ملك الارض البحرية قبيل تسنمه عرش بابل .

٣ . توغل الاشوريين في البادية

واول اشارة ثابتة الى العرب ، هي تلك التي وردت في نقش للملك الاشوري شلنصر الثالث الذي قاد في السنة السادسة لملكه حملة على ملك دمشق الارامي وحليفه آخاب ملك اسرائيل وجندب احد مشايخ العرب ، فاصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٤ ق.م واليك كلمات شلنصر :

قرقر عاصمته الملكية انا خربتها انا دمرتها انا احرقتها بالنار ، ١٢٠٠ مركبة ، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠,٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب أرام [دمشق؟] ... ١٠٠٠ جل لجندب العربي ... هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمعنته ، برزوا الى المعركة والقتال ، تالبوا علي . ^(١)

ومن بديع الاتفاق أن اسم اول عربي يسجله التاريخ جاء مقروناً باسم الجمل . وبذل تغلث بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) مشيد الامبراطورية الاشورية الثانية ، قصاره لتأمين سلامة الطرق التجارية التي كانت تخترق اقسام الدولة المتراصة ثم تنعطف الى البحر المتوسط ، فحمل على سورية وانحائها حملات عسكرية متعاقبة . وفي السنة الثالثة لملكه ضرب الجزية على زبيبي ملكة الارض «الاربي» وفي السنة التاسعة من عهده قهر ملكة اخرى من ملكات الاربي اسمها سمس (شمس او شمسية) ودونت سجلاته انه في عام ٧٢٨ ق.م. اتته الجزية من قبيلة (مسأي) ومدينة تمأي (تياء) والسبأي (سبأ) ذهباً وابلأً وطيوباً . ^(٢) وهذه القبائل انما كانت تقطن شبه جزيرة سيناء والبادية الواقعة في شمالها الشرقي . ^(٣)

(١) Luckenbill , vol . i , § 611

(٢) Luckenbill , vol . i , § 778 , 779 , 817 .

(٣) Ditlef Nielsen , *Handbuch der altarabischen*

Allertumskunde , vol. i , *Die altarabische Kultur* (Copenhegen , 1927) p. 65 .

فتغلث بلاصر الثالث اذن اول من وضع نيراً فوق اعناق العرب .

وانبأنا سرجون الثاني (٧٢٤ - ٧٠٥ ق. م) فاتح كركيش والسامرة انه في السنة السابعة للملكه اخضع اقواماً من جملتهم قبيلتا ثمود (ثمود في القرآن ، هود : ٦٤ الخ) واباديد « الذين يسكنون البادية ولا يقرون كبيراً او صغيراً من الحكام » فنكل بهم تنكيلاً ونفى بقاياهم الى السامرة .^(١) . وتلقى في الوقت نفسه من سمي ملكة بلاد العرب واتعمرا (يشعي امرا) زعيم سبأ وسواها من ملوك مصر والبادية جزية من « الذهب وحاصلات الجبل والحجارة الكريمة والعاج وبذور الاسفندان (؟) وانواع الحشائش والخليل والابل ، جزية ادوها صاغرين » .^(٢) والظاهر ان اتعمرا هو احد آل « يشعي امران » الذين كان واحدهم يسمى « مكرب » في نقوش عرب الجنوب الحجرية . وكذلك خلفه كربى ايلو زعيم سبأ الذي ادعى سنحاريب انه اخذ الجزية منه فانه كان من عرب الجنوب الغربي ، وينطبق اسمه على اسم كرب ايلو الوارد في النقوش الحجرية^(٣) فان صح ذلك فما الجزية التي زعم ملوك الاشوريين استلامها الا هدايا وصلهم بها العرب من امراء الجنوب اختياراً وهم ينظرون الى سيد اشور نظرة الند الى الند او الحليف الى حليفه ، ولعلمهم تعاقدوا والاشوريين على صد غارات البدو الجاهمين من ابناء الشمال .

وحوالي سنة ٦٨٨ ق. م اخضع سنحاريب « ادومو معقل بلاد العرب »^(٤) وحمل آلهتها الى نينوى وأسر ملكتها التي كانت في الوقت نفسه كاهنة الآلهة . وليست ادومو الا واحة الشمال التي بلغت شأواً عظيماً بعدئذ على عهد الفتوحات الاسلامية وعرفت بدومة الجندل . اما الملكة واسمها تلخنو (تملخنو) فكانت قد حالقت البابليين الخارجين على سلطة آشور وساعدها حزائيل سيد قبيلة قيدار (كدري في الاشورية) الذين كان مقرهم في نواحي تدمر .

Luckenbill , vol. ii , § 17 . (\

» » » » , » 18. (2

Nielsen , *Handbuch* , vol . 1, pp . 75 seq. (३

Luckenbill, vol. ii § 518 (1

واندلعت نيران الفتنة التي اوقدها اويتع ابن حزائيل الذي خلف والده فاخذها اسرحدون (٦٨١-٦٦٨ ق.م) حوالي عام ٦٧٦ فاضطر الثائر الى « مغادرة مخيمه لينجو بنفسه ، فقر وحيداً وسار الى الاصقاع البعيدة » ^(١) . ويخيل لنا ان البدو كانوا شوكة في جنب الدولة الآشورية وكانت تدفعهم مصر وبابل الى الثورة فان آل أمرهم الى الفشل كانت رحاب البادية خير مأوى يتوارون فيه عن الانظار فتعجز جحافل الآشوريين عن مطاردتهم . وكانت البادية موطن البلايا والحنن التي يتلى بها القاتح . وفي عام ٦٧٠ حمل احد اشداء آشور حملته العنيفة على الديار المصرية فما وطأ شمالي الجزيرة حتى روعته البلايا فصور له ذعره الشديد مشاهدة « افاع ذوات رأسين وزحافات مربعة تدف باجنحتها » ^(٢) . ولقد ذكر اشعيا (٦ : ٣٠) عن بهائم الجنوب « الافعى والثعبان الطيار » . واكد هيرودتس ^(٣) ان الافاعي منتشرة في جميع اقطار العالم ، خلا الحيات المجنحة فلا تراها الا في بلاد العرب حيث احتشدت كلها هناك .

وفي الحملة التاسعة التي خرج بها اشوربانيبال (٦٦٨ - ٢٦ ق.م) على القبائل العربية كان النصر حليفه فالقى القبض على اويتع وجيوشه بعد عراك طويل وترك لنا هذا الخبر عن حملته :

« اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي [يسدوا] رمقهم أكلوا لحوم صغارهم ... وكان تساؤل اهل بلاد العرب فيما بينهم ، فقال الواحد لأخيه : « ما بال بلاد العرب قد احرق بها هذا الشر المستطير ؟ » فأجابه قائلاً : « تلك عاقبة نكثنا العهد الوثيق الذي قطعناه لآشور . » ^(٤)

واخبرنا آشوربانيبال كيف صنع بالأسير اويتع قال : « حبسته في مرتبط

(١) Luckenbill , vol. ii, § 946

(٢) Luckenbill , vol. ii § 558 قابل

(٣) Bk. III , ch. 109

(٤) Luckenbill , vol. ii ' § 858 .

الكلاب . اويته مع بنات آوى [؟] والكلاب وأقمته على حراسة الباب في
فينوى ... » ^(١) . وكان اويته حليف أبيتع سيد الأنباط (نبايطو) فزحف
اشور بانيبال وقواته عليهم وطاردهم « في رمضاء البادية وقبضها حيث لا ترى
طيور السماء وحيث لا يرى العير [حمار الوحش ، الفرا] ولا الغزال » . ^(٢)

وفي سجلات الاشوريين اشارات كثيرة الى زعماء العرب « يقبلون ارجل »
ملوك نينوى رافعين اليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وانواع الكحل ،
واللبان والجمال والحمر . والواقع ان الانباء متوفرة عن زهاء تسع حملات جردها
سرجون الثاني وسنحاريب واسرحدون واشور بانيبال لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهر
بسبب مضايقتهم للممتلكات الاشورية في نواحي الشام واعتراضهم طرق القوافل
التجارية وتلقيهم العون والمساعدة من مصر وبابل عدوتي آشور ، واما لفظنا « أربي »
و « أربي » الواردتان في مدونات هذه الحملات فانها تدلان على البدو بالاكثر
وبلادهم المسماة « أربي » تشمل في الراجح بادية الشام وشبه جزيرة سيناء وشمالى
الجزيرة . وفي سيناء كان اهل مديان الوارد ذكرهم في التوراة هم الذين خضعوا
لاشور وليس الانباط لان هؤلاء ، واسمهم « نبيطو » ^(٣) و « نبيطاي » على اسطوانة
اشور بانيبال الناقلة اخبار حملته التاسعة ، لم تكن قد استتبت قدمهم في سيناء بعد .
اما السبئيون الاصليون من اهل الجنوب فلم يخضعوا قط لنينوى ^(٤) ومع ان
الاشوريين يدعون بحق رومان العالم القديم فانهم لم يستطيعوا ان يسيطروا سلطانهم
الا على بعض الواحات وبعض القبائل في شمالى الجزيرة ، وذلك بصورة اسمية فقط .
وليست سجلاتهم التي بين ايدينا الا « بلاغات رسمية » قصد بها « تسكين الخواطر »
في مناطق نفوذهم .

١ . Luckenbill , vol . ii , § 819 .

٢ . Luckenbill , vol . ii , § 823 .

٣ . Luckenbill , vol . ii , § 823 .

٤ . Alois Musil , *Arabia Deserta* , (New York , 1927) p. 477 - 78 ,

Northern Hegaz (New York , 1926) p. 288 - 89 .

٤ صدر العرب بالكلمانيين والفرس : تيماء

وفي هذه الحقبة احرزت تيماء (تيا وتي - ما - أ في المدونات الاشورية البابلية) مكانة رفيعة بين قريناتها من مدائن الشمال لان نبونيد (٥٥٥ - ٥٣٨ ق. م) آخر ملوك الكلدانيين ، اتخذها مقراً اقليمياً له . وكان الكلدانيون قد توارثوا املاك الدولة الاشورية ومنها امصار الشام وشمال الجزيرة التي آلت الى دولة اشور في عهد تغلث بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٦٧٠ ق. م) وفي السنة الثالثة من ولايته العرش - على ما جاء في النقوش الاسفينية - ازعم نبونيد : ان يجرّد حملة الى مكان بعيد ؛ وسار يرافقه جيش اكّد ؛ وتوجه نحو تيماء في كنف البلاد الغربية . وجرّد حملة الى مكان بعيد سالكاً طريقاً لم يعرف في الزمن الغابر . فتك بامير تيماء واعمل به [السيف] ؛ وسكان مدينته [و] بلاده اغتاهم جميعاً . ثم ابّنى لنفسه مسكناً [في تيماء] ؛ جيش ارض اكّد ... جعل تلك المدينة زاهرة ... جعلوها كالمصر اندي في بابل ... (١)

كانت واحة تيماء (تك ٢٥ : ١٥ ، ١ ش ٢١ : ١٤) في شمال الحجاز على طريق عظيم قديم يربط خليج العقبة والبتراء غرباً بخليج العجم شرقاً . ولقد تقاطعتا ايضاً قوافل الزاحلين من الشام ونواحي الشمال الى اليمن في الجنوب فصارت محطة لهم يعرجون عليها في سفرهم . وهي وسطى بين مكة والشام وفي منتصف الطريق بين بابل ومصر لذلك بلغت مكانة وعزة تتناسبان وموقعها الجغرافي . وكانت يقطنها الاراميون قديماً ولقد استعمرت قبائلهم القاصي والداني من ربوع الشمال فزهت تيماء بمحاسن الثقافة الارامية .

وأهم اشارة في الكتابات الاسفينية لهذه الواحة العربية ما دون في وثيقة تاريخية

R. P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 106-7 (١)

ولقد ورد اسم هذه الواحة في تك ٢٥ : ١٥ واش ٢١ : ١٤ ، وزارها تشارلز دوتي . انظر كتابه : *Travels in Arabia Deserta* (Cambridge , 1881) vol. 1, p. 285

تتعلق بسقوط بابل (٥٣٨ ق. م) على يد الفرس . فقد ابانت هذه الوثيقة ان نبونيد يومئذ كان في « آل تيا » وذلك في السنوات السابعة والتاسعة والعاشره والحادية عشره من ملكه بينما كان ابنه [اي بلشاصر] مع الجند مقيمين في البلاد البابلية ^(١) . ويتعذر علينا اكتناه ما حمل نبونيد الى تياء ، أهى شؤون سياسية خطيرة ارغمته على سكنى تلك الواحة السحيقة ليصرف همه فيها الى اتقاء الجشع المصري فيعقد محالفة ضد كورش ام كانت له مآرب شخصية منها ولعه الشديد بالتنقيب الاثري او انه فر من سهول بابل اتقاء لشر الملاريا التي انتشرت فيها ؟ ولقد قدر الرحالة دوتي ^(٢) ان تياء على ارتفاع ٣٤٠٠ قدم فوق سطح البحر .

وسنة ٥٢٥ جاز قبيز ، وهو ابن مؤسس الدولة الفارسية وخلفه ، بشالي الجزيرة فحالف اقوامها وهو في طريقه الى غزو مصر . وقد ذكر هيرودتس ^(٣) في صدد الكلام عن داريوس ما نصه : « ولقد اعترف بسلطانه جميع اقوام آسية الذين كان قد ذلهم كورش ثم قميز بعده الا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا البتة لسلطان فارس انما كانوا احلافها ، ولقد مهدوا لقميز سبيل التوصل الى مصر ، ولولاهم لما امكنه القيام بهذه المهمة » .

وعلى « حجر تياء » الذي ابتاعه هوبر (١٨٨٣) وهو الآن في اللوفر ، تجدد نقشاً هو من اعظم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة . ويرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو مكتوب باللغة الاراميه وفيه ان احد الكهنة استقدم الهاً جديداً الى تياء يدعى « صَلامٌ هَجَمٌ » فانشأ لهيكل الاله المعبود وفقاً وعين له كهانة وراثية ^(٤) . ولقد مثل الاله في زي الاشوريين وظهر في اسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد ذلك النصب .

(١) Dougherty, Nabonidus , pp. 111 - 112

(٢) Doughty; Travels. vol. 1. p. 285

(٣) Bk. III , ch. 88.

(٤) راجع الأصل وترجمته الى الانكليزية في G. A. Cooke, A Text - Book of North Semitic

Inscriptions (Oxford , 1903) pp. 195 - 6

٥ . اتصال العرب بالعبرانيين

كان اليهود من الناحية الجغرافية جيران العرب الاقربين وكانوا من الناحية الجنسية اقرب الشعوب نسباً اليهم . ولقد توفرت في التوراة الاشارات التي تشعر بان اصل العبرانيين كان من الصحراء ^(١) . ومعلوم ان اللغة العبرانية واللغة العربية ، كما مر بنا الكلام ، لغتان ساميتان من اصل واحد . ومن الاعلام الواردة في التوراة ما هو عربي صرف . فكلمة « ابرام » وشرها الأخير « رام » فعل عربي معناه « اراد » . ولو سمع ابن الجنوب القديم اول آية من سفر التكوين بالعبرانية لوعاه دون مشقة ^(٢) . وقد اظهر البحث العلمي الحديث ان اصول الديانة العبرانية تنم عن اصل صحراوي . وعرجت قبائل العبرانيين [من سبط راحيل] على سيناء والنفود في اثناء خروجها من مصر الى فلسطين حوالي سنة ١٢٢٥ ق.م . ، وتنقلت في تلك الربع زهاء اربعين سنة . ولقد قطع بنو اسرائيل العهد الالهي في مديان وهي تضم جنوبي سيناء والارض الواقعة الى الشرق منها . واتخذ موسى لنفسه امرأة عربية هي ابنة كاهن مديان ^(٣) وابوها مؤمن بدين يهوه فتعلم موسى منه اسرار العبادة الجديدة . ويخيل لنا ان يهو [يهوه] اله قبلي كان يعبد المديانيون او سواهم من اهل الشمال . وهو احد آلهة البادية طبعه البساطة والشدة ، يسكن خيمة ولعبادته طقوس ليست على شيء من الاتقان والتعقيد ، وهي تتناول الاعياد البدوية والتقدمات والمحرقات يقدمونها من الماشية . دخل العبرانيون فلسطين وهم ذوو بدادة وخشونة فاستعمروا ارض الكنعانيين واخذوا عنهم تمدنهم الا ان التقاليد القبلية والشعائر

(١) هوشع ٩ : ١٠ ، ارميا ٢ : ٢ : تثنية ٣٢ : ١٠ الخ .

(٢) انظر D. S. Margoliouth , *The Relations Between Arabs and Israelites*

James A. Montgomery , *Arabia and the Bible* (London, 1924) pp . 8,15 وراجع (Philadelphia, 1934) pp. 149 seq .

(٣) خروج ٣ : ١١ ، ١٨ : ١٠-١٢ وفي قصة يوسف اوردت احدى الوثائق الاصلية اسم « الامماعيلين » (تك ٣٧ : ٢٥ ، ٢٧) وفي وثيقة اخرى هم « المديانيون » (تك ٣٧ : ٢٨) وهذا يشعر بان محرر سفر التكوين احتفظ بنطق الوثيقتين فابقى الاسمين كما هما اعتقاداً منه انهما يدلان على شعب واحد .

البدوية ما برحت بارزة في حياتهم على تعاقب الاجيال .

وكانت المملكة العبرانية في اوج عزها تضم شبه جزيرة سيناء وكان اسطول سليمان يرسو في خليج العقبة . وفي الراجح ان اوفير التي ابجرت اليها سفن حيرام وسليمان في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة (ملوك الاول ٩ : ٢٧ - ٢٨ ، ١٠ : ١١ ؛ سفر الاخبار الثاني ٩ : ١٠) هي ظفار من اعمال عمان . حتى اذا كانت ايام .ايوب (٢٢ : ٢٤) صارت اوفير مضرب المثل لوفرة التبر في تربتها . وملك يهوشافاط (٨٧٣ - ٤٩ ق.م) بعد سليمان بأكثر من قرن ، فكانت سطوة العبرانيين لا تزال مهيمنة على أيلة (العقبة اليوم) وما يتصل بها من خطوط التجارة ، تبيئه الجزية من العرب الذين « اتوه بغنم » (سفر الاخبار الثاني ١٧ : ١١) . وصرح سنحاريب ببيانه عن اخبار الحملة التاسعة التي انسخ بها (٧٠١) على سورية قال : « اما حزقيا فان هيبة جلالي المرعبة غلبته حتى حدث ان الاربي [العرب] والمرتقة [؟] من جنوده الذين اصطحبهم لتعزيد اورشليم قاعدة ملكه ، هجروه » .^(١) وانصرف حزقيا (سفر الاخبار الاول ٤ : ٤١) وعزّيا قبله (سفر الاخبار الثاني ٢٦ : ٧) الى مقاتلة المعونيين النقيمين في ساحة معين (معان اليوم بجوار البتراء) وما يدانيها . واسترد عزيا (٧٩٢ - ٤٠ ق.م) وهو يعرف بعزريا ايضاً ايلة ليهودا وبني البلدة (ملوك الثاني ١٤ : ٢٢) . وفي سفر الاخبار الثاني (٢١ : ١٦ ، ١٧) تفاصيل غارة شنها عرب الجنوب على يهودا فسبوا بني الملك يورام (٨٤٨ - ٤٤ ق.م) ونساءه وكل ما وجد من المال في بيته أخذوه . فهل يصدق ان اهل سبأ الأبعد وهم « العرب الذين بقرب الكوشيين » تسنى لهم القيام بمثل هذه الغارة ؟ وفي ايام نحميا^(٢) في متوسط القرن الخامس قبل الميلاد كان اليهود قد اخذوا يحسبون جيرانهم الذين يسكنون الجنوب الشرقي منهم اعداء لهم .

(١) Luckenbill , vol . ii , § 240

(٢) نحميا ٢ : ١٩ ، ٤ : ٧

العرب في التوراة والانجيل

لفظة عرب من ناحية الاشتقاق سامية معناها « البادية » او « ساكن البادية » وهي لا تعين قومية صاحبها . وهذا هو المعنى الذي ادته في العبرانية (اشعيا ٢١ : ١٣ ؛ ١٣ : ٢٠ ؛ ارميا ٣ : ٢) . وفي القرآن الاعراب هم البدو . وفي سفر المكابيين الثاني (١٢ : ١٠) جاءت كلمة « العرب » بمعنى « البدو » - واول نص صريح لمعنى هذه اللفظة في التوراة انما هو في ارميا ٢٥ : ٢٤ - « ملوك العرب » - وتاريخ نبوءة ارميا بين ٦٢٦ و ٥٨٦ ق. م. ، وغالب الظن ان « الملوك » المشار اليهم هم من مشايخ الشمال وبادية الشام . وما اقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صار هذا اللفظ يطلق على ساكن الجزيرة كائناً من كان ، فهذا سفر الاخبار الثاني (٢١ : ١٦) يذكر العرب الذين بقرب الكوشيين [الاحباش] « فلا يبقئ محلاً للرب في أن الكاتب عنى قوماً من العرب المقيمين في الجنوب الغربي من الجزيرة اي سبأ . ومن جملة الدول الاربع التي اشتهرت بها الجزيرة القديمة - سبأ ومعين وحضرموت وقتبان - ان أسماء الثلاثة الاولى ، وهي الدول الهامة ، مذكورة في التوراة . وفي الفصل السابع والعشرين من نبوءة حزقيال (توفي بعد ٥٧٢ ق. م) ويسمى هذا الفصل فصل التجارة ، ذكرت بلاد العرب مقرونة بقيدار ، واحصيت سلع تجارية شديدة المشابهة بما نتوقه من حاصلات بلاد العرب . ويتضح من الآية ٢١ في هذا الفصل ان عرب القرن السادس قبل الميلاد - انصرفوا الى تربية الماشية شأنهم اليوم وكانوا يبيعونها الى جيرانهم الحضر . ويؤخذ من ارميا (٢ : ٣) انهم كانوا في ذلك الزمن يشتهرون بقطع الطرق والسلب . كذلك يستدل من ارميا (٢٥ : ٢٣) انهم كانوا يخلقون شعور رؤوسهم الا خصلة في قمة الرأس كمادة البدو عندنا اليوم .

اما ديدان (ديدان في العربية) التي ذكرت مراراً في التوراة اشعيا ٢١ : ١٣ ؛ ارميا ٢٥ : ٢٣ ؛ حزقيال ٢٥ : ١٣) فهي العلا الحديثة - واحة في شمال الحجاز

- وقد ظلت مدة من الزمن المقر الرئيسي لاهل سبأ في الشمال ^(١) ويظهر ان سبأ في ابان عظمتها التجارية كانت تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانئ البحر المتوسط وكان لها مستعمرات انشئت على هذه الخطوط . واستبدت قيدار (قيدار في العبرانية) التي نوه بها حزقيال ^(٢) وهي « كدري » في المدونات الاشورية ^(٣) و « كدراي » ^(٤) في آداب اليونان والرومان على شمال الجزيرة استبداد قبيلة كلب عليها في العصور الوسطى وقبائل العنزة في العصر الحاضر فسكن ابناؤها ربوع تدمر ، ومنطقة الجنوب الشرقي من دمشق . هذا والتوراة تعتبر قيدار ونبايوت (الانباط) من جملة ابناء اسماعيل (تك ٢٥ : ١٣ ، سفر الاخبار الاول ١ : ٢٩) . والراجح أن الفتاة الشولية (الشونية) التي خلد جملها في نشيد يعزى الى سليمان الحكيم (نشيد الانشاد ١٣ : ٦ ، ١ : ٥ ؛ قابل ملوك الاول ١ : ٣) كانت اعرابية من قبيلة قيدار ^(٥) . وان صح أن ملكة سبا (وفي القرآن بلقيس) هي شخصية تاريخية وانها قدمت الى ملك اسرائيل الحكيم بعطايا طريفه مما امتازت به ارض الجنوب (ملوك الاول ١٠ : ١٠ ، سفر الاخبار الثاني ٩ : ٩) فقرها لم يكن في اليمن ولا في الحبشة كما رأى البعض بل في احد معاقل سبا ومراكزها التجارية على خط القوافل . ولم يظهر ملوك اليمن الا بعد عصر سليمان نحو (١٠٠٠ ق.م) بمئتي سنة حسبا جاء في النقوش . والظاهر ان ملكة سبأ وكذلك الملكة سمي والزعيم اتعمرا اللذين اديا الجزية لسرجون الأشوري كانت مساكنهم جميعاً في بعض هذه المستعمرات الشمالية التي تمثلها لنا ديدان .

وقد اقترن اسم سبا (شبا) بتياء (تماء) في سفر ايوب (١٩ : ٦) . وايوب

(١) Alois Musil , The Northern Hegaz , pp. 288-9

(٢) انظر ايضاً اشعيا ٢١ : ١٦ ؛ تك ٢٥ : ١٣

(٣) Luckenbill . vol . ii , § § 820, 869

(٤) Pliny , Bk . V , ch . 12

(٥) قابل الحجاز في نشيد الانشاد ٣ : ١ - ٤٥ ، ٢ : ٨ بما جاء في معلقة امرئ القيس الايات

٢٦ وما يلي : ثم نشيد الانشاد ١٤ : ١ وما يلي و ١٧ : ١ وما يلي بالايات ٣١ وما يلي ؛ ثم نشيد الانشاد ١٤ : ٥

بمعلقة عمرو ابن كلثوم البيت ١٥

ذاته الذي تغنى بانفس ما انتجته القريحة السامية القديمة من القريض كان عربياً لا يهودياً يدلّك على ذلك بناء اسمه (إيوب : أيوب) ومسرح الحوادث التي يرويها كتابه هو شمال الجزيرة . اما موطنه عوص فهو (عوص) في نواحي أدوم . أضف اليه ان صديقه أليفاز كان من اهل تيماء . ولعل هذا السفر وضع اصلاً في اللغة العربية ^(١) فاذا صح ذلك كان اقدم ما لدينا من مخلفات آداب عرب الشمال .

ويؤخذ من التوراة ان العرب انجبت حكماء عظماء . ففي ملحق سفر الامثال كلام ^(٢) لآجور ابن ياقة (امثال ٣٠ : ١) واقوال أخرى تنسب الى لموئيل (امثال ١ : ٣١) - كلاهما من ملوك مَسّا وهي احدى قبائل اسماعيل (تك ٢٥ : ١٤) . ولقد ورد اسما هذين الشخصين باشكل مختلفة في بعض النقوش المعينية وسواها من نقوش الجنوب النديمة . وفي سفر الامثال (٣٠ : ٣١) اسطع مثال للالفاظ العربية المتسربة الى التوراة وهو لفظ « القوم = القوم » العربية بمعنى شعب او جند ^(٣) . وفي نبوءة باروخ (٣ : ٢٣) اشارة الى بني هاجر اي الاسماعيليين او عرب الشمال « الذين يبتغون التعقل [الحكمة] على الارض » .

اما « قدم وبني قدم » في التوراة العبرانية (تك ٢٩ : ١ ، عدد ٢٣ : ٧ ، اش ١٤ : ١١ ، قضاة ٦ : ٣٢ ، حزقيال ٢٥ : ٤ ، ايوب ١ : ٣) - و « المشرق » وبنو « المشرق » في الترجمة العربية - فيقابلهما « شرق » و « شرقيون » في لغة الضاد وهما ترمزان الى الارض الواقعة شرق فلسطين والى بدوها بالاخص او قل بلاد العرب والعرب عامة . واليوم اذا سمعت بدوياً يقول انه « مُشرق » فهمت منه انه ضارب في البادية مهما كان اتجاهه فيها . وكان ايوب الذي يعد سفره من بدائع الحكمة

(١) Frank Foster , American Journal of Languages and Literatures, vol. 49 (١ pp. 21 - 45 .

(٢) قابل حكمة لقمان ، سورة لقمان : ١١

(٣) والآية ٨ من هذا الفصل التي تذكرنا بـ « خبزنا كفافنا اعطنا اليوم » تشتمل كما رأى مرغوايوت في كتابه المذكور سابقاً ص ٣١ على كلمة عربية الأصل هي هطريمني العبرانية التي تعادل الفعل العربي اطرف اي اعطى والجملة عربية البناء .

« اعظم ابناء المشرق جميعاً » (ايوب ١ : ٣) . وبنو المشرق لم يفقههم حكمة الا سليمان (ملوك الاول ٤ : ٣٠) . ولعل المجوس الذين اقبلوا من المشرق الى اورشليم (متى ٢ : ١) يهتدون بالنجم كانوا بدواً من البادية في الشمال لا مجوساً من فارس . ويلاحظ أن لفظة « عرب » في آداب العبرانيين التي تلت سبيهم الى بابل ترمز الى الانباط (سفر المكابيين الثاني ٥ : ٨ ؛ سفر المكابيين الاول ٥ : ٣٩) . غير ان الانباط ورد ذكرهم بالذات في المكابيين الاول (٩ : ٣٥) . وكانت دولة الانباط على عهد الرسول بولس تترامى اطرافها حتى دمشق شمالاً ويؤيد ذلك ان حاكماً بدمشق تحت امرة ارتاس [الحارث] سعى الى القبض على بولس (كورنثس الثاني ١١ : ٣٢) . ولا ريب في أن « ديار العرب » التي انطلق بولس اليها (غلاطية ١ : ١٧) انما هي بقعة صحراوية في ارض الانباط كذلك « العرب » في اعمال الرسل (٢ : ١١) كانوا في الأرجح انباطاً .

٦ . العرب في أداب اليونان والرومان

ولقد أحاط اليونان والرومان علماً باحوال الجزيرة والعرب لان هذه البلاد على طريقهم الى الهند والصين وكانت تنتج السلع المرغوبة جداً في اسواق الغرب . وكان سكانها كأقاربهم القدماء من ابناء الشمال اي الفينيقيين هم الوسطاء او العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم . فكانوا يقومون بتمثيل « ضباط الارتباط » في ميادين التجارة العالمية .

ويقسم كتاب اليونان والرومان جزيرة العرب الى اقسام ثلاثة - العربية السعيدة ، والعربية الصخرية (منطقة البتراء) والعربية الصحراوية - وهو تقسيم يتفق مع وحداتها السياسية في القرن الاول للميلاد . فانقسم الاول كان مستقلاً وكان الثاني تابعاً لرومه وكان الأخير يسيطر عليه القرثيون بالاسم .

كانت بادية الشام « السماوة والحماة ، عند اوائل كتاب العرب ، والبادية عند سواهم » ضمن نطاق العربية الصحراوية . اما العربية الصخرية فكان مركزها سيناء وبلاد

الانباط وكانت عاصمتها البتراء . واشتملت العربية السعيدة على بقية أنحاء الجزيرة
الا ان الامام باحوالها الداخلية كان زهيداً جداً ، فأخطأ كتاب العصور الوسطى اذ
توهموا ان العربية السعيدة هي اليمن فحسب . ويلوح ان كلمة « سعيدة » هي محاولة
لتفسير كلمة « اليمن » العربية اعتقاداً ان مصدرها هو اليمن والصواب أن دلالتها اليد
اليمنى فلقد سميت هذه البلاد يمناً لوقوعها الى يمين الناظر الى جنوب الحجاز حيث
تكون البلاد السورية - الشام - الى شماله .

واول من ذكر العرب في آداب اليونان هو اسكلس ^(١) (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م)
الذي أشار الى ضابط عربي شريف في جيش احشوروش . ثم تلاه هيرودتس ^(٢)
(نحو ٤٨٤ - ٢٥ ق.م) فإشار الى العرب في جيش احشوروش ويلوح لنا انهم
من سكان مصر الشرقية وقد ادلى بحقائق يسيرة عن ملابسهم واسلحتهم .

وأجمعت كلمة المصنفين اليونان والرومان من ارتُسثينيس اليوناني (المتوفى نحو
١٩٦ ق.م) (واليه استند سترابو) الى بلينيوس الروماني (المتوفى ٧٩ م) ان بلاد
العرب بلاد ثروة ورخاء عجيبين . وانها موطن اللبان والطيب الاخرى وان
اهلها يحبون الحرية ويتمتعون بها كل التمتع . والحق ان هذه المزية الاخيرة هي
التي لفتت انظار الكتاب الغربيين . فالاستقلال الذي تميز به خلق الشعب العربي
اصبح مضرب المثل وموضع المدح والاعجاب عند المؤلفين الاوربيين من ابعد
العصور حتى ايام المؤرخ الانكليزي غِبن ^(٣) .

وعرف العرب هذه المزايا العالية التي نفتحتهم بها بيئتهم الطبيعية . يدلنا على
ذلك هذا الحوار الذي زعموا انه جرى بين النعمان ابن المنذر (المتوفى ٦٠٢ أو ٦٠٧ م)
وكسرى ملك الفرس ، وقد حضرته وفود الروم والهند والصين . وكان النعمان

(١) Persians , I . 320

(٢) Bk. VII , § 69

(٣) Edward Gibbon , *The Decline and Fall of the Roman Empire* , . ed (٣
J B . Bury (London , 1898) vol. V , p. 319

وهو موفد من قبل العرب قد اوتي طلاقة اللسان ورباطة الجأش فأخذ يطنب بسمو
الشمال التي فاق بها العرب جميع الامم قال :

لم يطمع فيهم [في العرب] طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ،
ومهادهم الارض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، اذ غيرها
من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .^(١)

واثبت ديدورس الصقلي^(٢) (وقد ازدهر في النصف الأخير من القرن الأول
للميلاد) ان العرب يقدرون ما لهم من حرية ويتباهون بذلك . وروى سترابو
(المتوفى سنة ٢٤ م) في جغرافيته^(٣) عن مرجع يوناني قبله ان العرب هم الامة
الوحيدة التي لم تبعث سفراءها الى الاسكندر الكبير الذي كان قد صمم « ان يجعل
بلاد العرب مركز امبراطوريته » .^(٤)

الحملة الرومانية

ساد الرومان العالم ولكنهم لم يسودوا العرب . فحملتهم الشهيرة التي جردوها
من مصر عام ٢٤ ق.م . رأسها والي مصر ايليوس غالوس باءت بالفشل . وقد تألفت
هذه الحملة من جيش قوامه ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ينصرهم احلافهم الأنباط وذلك في
ملك اوغسطس قيصر . وكان غرضهم الاستيلاء على طرق النقل التي احتكرها
عرب الجنوب واستغلال مرافق اليمن ومواردها لمصلحة رومه . ولقد اقلعت هذه الحملة
من السويس تؤازرها قوات الاسطول البحري وكان دليلها قائد من الأنباط . وبعد
ان مضت شهور على توغلها في الجنوب صادفت من العقبات ما اضطرها الى النكوص
بعد ان فتكت بها الطوارئ فتكاً ذريعاً فانقلبت الى نجرانا (نجران) التي كانت
قد احتلتها قبلاً ثم اتجهت الى البحر الاحمر فعبثته الى الساحل المصري واستغرقت

(١) ابن عبد ربه ، المقد الفريد (القاهرة ، ١٣٠٢) الجزء الاول ص ١٢٥

(٢) *Bibliotheca historica* , Bk. II, ch. I, § 5 .

(٣) *Geography* , Bk. XVI , ch. I § II .

(٤) Bk. XVI, ch. 4, § 27

مدة العودة ستين يوماً . وكانت « مريابا »^(١) ابعد المراكز التي وصلتها في الجزيرة والراجح انها غير مأرب قاعدة سبأ في الجنوب الشرقي بل هي مرياما التي في الجنوب الشرقي . ويقول الجغرافي اليوناني سترابو^(٢) - مؤرخ تلك الحملة وصديق قائدها ايليوس غالوس - ان المصاعب والاطار التي جابهتها هذه الحملة انما تعزى الى خيانة الدليل « سيلأوس سفير الأنباط وممثل ملكهم ابوداس [عبدة] » . وهذا هو المصير الذي آلت اليه اول بل آخر غارة ذات بال قصدت بها دولة اوربية اكتساح داخل الجزيرة .

بمد الطيوب

كان هيرودتس^(٣) يرى ان « بلاد العرب كلها كانت تفوح بالعطر والطيوب » لأنها كما قال « البلاد الوحيدة التي تنتج المر واللبان والاقاصيا والقرفة واللاذن ... وتصون الاشجار التي تحمل اللبان حيات مجنحة وهي صغيرة الحجم متنوعة الالوان تتدلى باعداد لا حصر لها من كل شجرة . »^(٤) وكانوا يحتالون لطرد هذه الحيات بقدر من بلسم الاضطرك (لبنى اوصمغ) يشعله الذي يريد اجتناء اللبان فيصعد من دخانه ما يفرق شملها . اما الجغرافي سترابو فكان احكم قليلاً من هيرودتس « ابي التاريخ » السريع التصديق لما يروى له فانه بعد ان دعا جنوبي الجزيرة « بلاد الطيوب »^(٥) قال :

« وبلاد « السبأي » بلاد مزدهمة السكان ... وهي اخصب تلك الاراضي على الاطلاق ثمارها المر واللبان والقرفة ... وفيها حيات ذات لون احمر فاقع تبلغ الشبر طولاً وبوسعها القفز الى علو خصر الآدمي ولا ينبجع في لسعتها علاج »^(٦)

(١) كذا جاءت في الطبقات الاولى من كتاب يبلينيوس (Pliny) اما في كتاب سترابو فانها مرسيايا

(٢) Bk. XVI ch 4, § 23

(٣) Bk. III, ch. 113 .

(٤) Bk. III, ch. 107 .

(٥) Bk. XVI, ch. 4, § 25 .

(٦) Bk. XVI, ch. 4, § 19 .

واعاد ديدورس الصتلي ^(١) ذلك الوصف فقال ان الجزيرة أرض تثمر الطيوب بحيث كانت تربتها نفسها تعبق بالاريج . اما بلينيوس الذي تلخص في الجزء السادس من تاريخه الطبيعي ما بلغه المام الرومان حتى سنة ٧٠ م باحوال البلدان الشرقية فقد اكد هذه الميزة ^(٢) و اضاف في مناسبة اخرى ان « السبائي » هم « اشهر قبائل الجزيرة لغناهم باللبان » ^(٣) . ومن الواضح ان حضرموت كانت في ذلك الزمن تتصدر بلاد اللبان قاطبة . والظاهر ان اليونان والرومان حسبوا أن جميع البضائع التي تاجر بها العرب كانت من حاصلات بلادهم . فقد كان حرص التجار على الاحتفاظ بأسرار حرفتهم ومواردهم من الحبشة والهند عظيماً . وكذلك كان الاحتكار عندهم مضبوطاً دقيقاً .

وكان لهؤلاء الكتاب من اليونان والرومان اعجاب عظيم بما ناله عرب الجنوب من ثروة ورخاء فقد ذكر سترابو ^(٤) مدناً عامرة « تزينها الهياكل الجميلة والقصور » قال ^(٥) :

ولقد اصبحت « السبائي » و « الجرهابي » ^(٦) بما لهما من نصيب في تجارة (الطيوب) اغنى القبائل عامة فعندهما مستحدثات الأدوات المصوغة من الذهب والفضة ، منها الأسرّة ومثلثات القوائم والاحواض واوعية الشرب وناهيك بمنازلهم الفخمة ، وقد تزوقت ابوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة .

وروى بلينيوس ^(٧) عن ايليوس غالوس ما يؤيد ذلك فقال :
فاقت « السبائي » الجميع ثروة بما يتوفر في ارضها من أدغال ذات عطور

(١) Bk. II, ch. 49, § 2-3.

(٢) Bk. XII ch. 30.

(٣) Bk. VI, ch. 32.

(٤) Bk. XVI, ch. 4, § 3.

(٥) Bk. XVI, ch. 4, § 19.

(٦) وهي في العربية الجرعاء على خليج العجم .

(٧) Bk VI, ch. 32.

بمناجم ذهب وامواه للري وهي تنتج العسل والشمع بكثرة . . . فلو تحررت هذه لاقطار تماماً علمت انها أغنى بلدان الارض قاطبة بما يتوارد اليها من كنوز دولة الرومان ودولة القرثيين .

الذهب

ولئن كان اللبان والطيوب افخر الحاصلات التي اشتهرت بها البلاد فثروتها المعدنية لم تقل عن تلك قيمة واخص معادنها انذهب ، وكانت مناجمه على ساحل الجزيرة الغربي بين مديان واليمن وفي أواسط الجزيرة ايضاً . اما ذهب اوفير الذي أشارت اليه التوراة ووصفه كتاب اليونان والرومان فقالوا انه « لم تمسه النار » فيظن الآن انه عربي الاصل . وقد بسط ديدورس ^(١) ان الجزيرة غنية بمناجم الذهب الذي بلغت نقاوته حداً لم تعد معه حاجة الى تصفيتة بواسطة الصهر . وافرد جغرافيا العرب اللامعات - المقدسي ^(٢) والهمداني ^(٣) (القرن العاشر للميلاد) - فقرة كاملة في كل من كتابيهما اتيا فيها على وصف معادن الجزيرة وتقرير ما فيها من الذهب . وفوق ذلك نجد في كتب اليونان والرومان تنقاً اخرى تحوي حقائق هامة عن العرب . منها ما ذكره سترابو ^(٤) من ان تعدد الازواج كان مألوفاً في الجنوب حيث كثر اقتران امرأة واحدة بعدد من الاخوة وتفتت آفة الفسق بالاهل الاقربين وروعت شريعة البكورة التي تحتم ان يتسلم البكر مقاليد الرعامة . وروى عنهم ايضاً ان معظم نبذهم من التمر وانهم يعتاضون بزيت السمسم (السيرج) عن زيت الزيتون ^(٥) . وايد بلينيوس ^(٦) هذين القولين الاخيرين في صدد النبذ والسيرج على رواية ايليوس غالوس ايضاً . اما ديدورس فانه انما قصد البدو لا

(١) Bk. II, ch. 50, § 1.

(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم نشر دي غوبه ، (ليدن ، ١٨٧٧) ص ١٠١-١٠٢ .

(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب نشر ملر (ليدن ، ١٨٨٤) ص ١٥٣-١٥٤ .

(٤) Bk. XVI, ch. 4, § 25.

(٥) Bk. XVI, ch. 4, § 26; Pliny, Bk. VI, ch. 32.

(٦) Bk. VI, ch. 32.

سواهم من العرب اذ قال ابن شريعتهم تقضي بالاقلاع عن الحراثة والزراعة وهجران البيوت وعياف النبيذ^(١) . واورد بلينيوس ان « العرب يلبسون القلنسوة ويرخي بعضهم شعور رؤوسهم فيغنيهم طولها عن لباس الرأس ويحلقون اللحية تاركين الشاربين »^(٢) .

ورسم بطليموس خريطة اودعها كتابه المعروف في الجغرافية ، الذي صنفه بين ١٥٠ و ١٦٠ م . ، وقد ظهرت فيها اقطار العالم المتمدن وبقيت هذه الخريطة طيلة القرون التالية عماداً يتوخاه الاوريون والاسيويون في مسائل الجغرافية ، ولقد استقى موادها بطليموس مما رواه التجار واهل الاسفار في ذلك العصر فوحت مشاهداتهم وتأثراتهم . وخريطة بلاد العرب هذه هي اول مصور مبني على امثال هذه المعلومات .

Bk. IX, ch. 94. (١)

Bk. VI, ch. 32. (٢)

الفصل الخامس .

الدولة السبئية وغيرها من بلاد العرب الجنوبية

عرب الجنوب وتجارتهم

كان السبئيون اقدم الاقوام العربية التي تخطت عتبة المدينة . وقد ذكروا في النقوش الاسفينية المتأخرة ووردت اول اشارة اليهم في الآداب اليونانية في كتاب ثيوفريستس ^(١) (المتوفى ٢٨٨ م) اما موطنهم القديم فباحية الجنوب الغربية من الجزيرة .

ويعزى رقي تلك الربع « السعيدة » الى عوامل عديدة منها نصيبها الوافر من الامطار وقربها من البحر ومركزها الجغرافي الخطير على خط الاتصال بالهند . وكان من حاصلاتها الطيوب والمر وسواهما من طرائف العطور والأفاويه التي تستعمل توايل للطعام او تحرق في حفلات البلاط والمراسم الدينية واجدرها بالذكر البخور وهو آمن البضائع التي تداولتها التجارة القديمة . والى هذه البلاد ترد الحاصلات الغالية المرغوبة فكان يرد اللؤلؤ من خليج العجم والافحاء والانسجة والسيوف من الهند والحريز من الصين والارقاء والقرود والعاج وريش النعام والذهب من الحبشة ، وكانت جميعها تجد طريقها الى اسواق بلاد الغرب . ولقد ترك لنا مؤلف كتاب الطواف حول الاريتري ^(٢) (٥٠ - ٦٠ م) وصفاً مجلداً لسوق « موزا » وهي « مخا » اليوم قال فيه :

(١) Theophrastus, *Historia Plantarum* Bk. IX, ch. 4, § 2.

(٢) *The Periplus of the Erythraean Sea*, Tr. W. H. Schoff (New York, 1912) § 24

« كان يردّها من البضائع انواع الاقمشة الارجوانية ، ناعمها وخشنها ؛ والبسة خيطة على الزي العربي ، ذات اردان قد تكون بسيطة او عادية او مطرزة او موشاة بالذهب ؛ والزعفران وقصب الذريرة وأنسجة القطن الشفافة والاعبثة والأحرمة - وهي ليست كثيرة - بعضها بسيط وبعضها مصنوع على الطريقة البلدية ، ومناطق ذات الواث عديدة ، ودهون عطرية بكميات معتدلة والخمر وقليل من الخنطة ، لان البلاد لا تنتج من الخنطة الا اليسير على انها تفيض خمرًا . . . وتصدر البلاد حاصلات ارضها : فاخر المر والصمغ المعيني ^(١) والرخام اللين [المرمر] وسائر ما اسلفنا القول فيه وذلك من عوباليت ^(٢) واقصى الساحل » .

لقد كان أهل سبأ فينيقي البحر الجنوبي . فقد عرفوا طرقه وتعرجات سواحله وموانيه وامتلكوا رياحه الموسمية الغدارة - السموم - فاحتكروا بذلك تجارته خلال القرون الثلاثة عشر الاخيرة قبل الميلاد ، اما الطواف حول الجزيرة الذي حسبته نيركس ، احد قواد الاسكندر ، مستطاعاً نظرياً فقد اصبح عندهم امراً واقعاً . وكانت بلاد اللبان في نظر ربانة اليونان والرومان بلاداً « جبلية ممتوتة » ^(٣) و « الملاحه » كما جاء في كتاب الطواف ^(٤) « خطرة في انحاء ساحل الجزيرة فلا تجد فيها موانئ ، والمراسي عسرة المسلك صعبة المنال يحول دون الدنو منها الامواج المتكسرة والصخور - وهي مزعجة من كل ناحية » .

وقد اتجه خط التجارة الرئيسي في البحر الاحمر من باب المنذب الى وادي الحمامات على ساحل مصر الوسطى . واضطرت سبأ لما يلازم الملاحة في انحاء هذا البحر الشمالية من آفات الى افتتاح خطوط برية بين اليمن والشام تحاذي ساحل الجزيرة الغربي وتودي الى مكة والبتراء ومنهما تتشعب الى مصر والشام وما بين النهرين .

(١) تفرزه الاشجار البرية .

(٢) قابل عوبال في تك ١٠ : ٢٨ و « ابلو » في النقوش الاشورية وهم شعب ارامي سكنوا ارض بابل ايام تغل بلاصر الثالث . وهي الأبله عينها التي ذكرها الهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٤٧ و ١٦٩ .

(٣) Erythraean Sea § 29.

(٤) Erythraean Sea § 20.

اما القراع الشامي فكان ينتهي على المتوسط عند غزة ، ومن حضرموت ، اغنى الاقطار باللبان ، كانت تمتد طريق تسلكها القوافل حتى مأرب عاصمة سبأ حيث تتصل بشريان التجارة الهام . وقد نمت لسبأ عدة مستعمرات على طول هذا الخط بين الجنوب والشمال . ولعل ابناء سبأ الذين ذكرت اسمائهم في المدونات الاشورية والعبرانية قد تحددوا من هؤلاء المستعمرين . ولقد خلد لنا سفر التكوين (٢٥:٣٧) صورة مصغرة جلية لقافلة « من الاسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة نكعة ولبساناً ولاذناً » .^(١)

الفقوش العربية القديمة

وكانت الانتصارات التي احرزها عرب الجنوب تجارية اقتصادية شأنهم في ذلك شأن الفينيقيين . ولم تكن الممالك التي شيدوها دولا حربية . واما ملخص تاريخهم فيمكن معرفة الخطوط الرئيسية فيه من المراجع التي اسلفنا ذكرها في كتابات الساميين القديمة واليونان والرومان ومن الاخبار المروية في الآداب الاسلامية الاولى ، وهذه الاخبار تكاد تشبه الاساطير ، واهمها ما رواه وهب ابن منبه (المتوفى في صنعاء نحو ٧٢٨ م) والهمداني^(٢) (المتوفى ٩٤٥ م) ونشوان ابن سعيد الحميري^(٣) (المتوفى ١١٧٧ م) وفوق هذا كله ما نستقيه من المصادر المحلية التي اصبحت قريبة المآخذ بفضل الكشف التي تمت على يد هاليفي وغلازر في الشطر الثاني من القرن الاخير . وجميع الآداب العربية الجنوبية التي اتصلت بنا هي ابيغرافية اي رقم او نقوش نقشت على الواح معدنية او حجرية . واذا كانوا قد اعتمدوا فضلاً

(١) راجع الزمير ٧٢ : ١٠ ، ١٥ ؛ اشعيا ٦٠ : ٦ ؛ ارميا ٦ : ٢٠ ؛ ملوك الاول ١٠ : ١٠ سفر الاخبار الثاني ١ : ٩ .

(٢) انظر D. H. Müller, *Die Burgen und Schloesser Südarabiens nach dem Ikil des*

Hamdani, 2 pts. (Vienna, 1879-81) والمجلد الثامن نشره الدكتور نبيه فارس (برنستون ، ١٩٤٠)

(٣) القعيدة الحميرية « شمس العلوم » تحرير احمد عظيم الدين (لندن ، ١٩١٦)

عن ذلك مواد أخرى يكتبون عليها مما هو سريع العطب كالبردي والرقوق فسجلوا عليها المعاملات التجارية والحوادث التاريخية والآثار الادبية الصرفة فانها قد اندثرت ولم تصل إلينا . واقدام ما عثر عليه من الرقم يرجع عهده الى القرن السادس او السابع قبل الميلاد . ويمكن تنسيق رقم سبأ كما يلي : اولا الرقم النذرية وهي محفورة على الواح برونزية اقيمت في الهياكل وقدمت للآلهة المقه^(١) وعثر وشمس . ثانياً الرقم الظاهرة على جدران الهياكل وغيرها من الابنية العمومية تخليداً لذكرى بانيتها او لمن تعهد نفقة البناء . ثالثاً الرقم التاريخية وتنبئ عن اخبار معركة او تعلن ظفراً على الاعداء . رابعاً قوانين الشرطة وهي منقوشة على اعمدة منصوبة في مداخل الهياكل وما يحاكيها من الاندية العمومية ، وفيها انذار للشعب ان يتمتعوا عن منكرات معينة والا فينزل بهم العقاب . خامساً رقم قبرية واليك ترجمة بعض النصوص الجنوبية نقلها عن الاصل على سبيل المثال :

٧. ... المقه رب شعبان [ليحفظ عبيد] هـ
٨. آجور^(٢) ووذ وثشب [؟] ابناء عتر
٩. من الشر ... ومن الخطر ومن المرض
١٠. ومن الأذى ولييد و [ليضرب اعداءهم ؟]^(٣)
١. تبعا [رب قدس لائقه حران تم]
٢. نالا من الذهب اقامه هنا ، اقراراً بفضله لانه اعان [وز
٣. صر سيدهم الشرح يحضب ابن فر ينهب
٤. ملك سبا بكسره وغلبته واخضاعه [اعداءه حتى
٥. انهم التمسوا السلم [وقدموا الاعذار] وقدموا هدية ...^(٤)

(١) المقه إله سبا القومي الذي كانت له الصدارة في نظام الآلهة ولقد اختلف علماء العريسة الجنوبية في قراءة اسمه على وجوه عديدة .

(٢) قابل سفر الامثال ٣٠ : ١ .

(٣) عثر على هذه الوثيقة هالي في البيضاء .

(٤) من رسالة كتبها مرغوليوث عن نقشين عريين .

١. سعد وابنه اسلم ابناء

٢. جزير بسيل ، هم الذين قدسوا جميع

٣. ... وكرسوه وفقاً لعثة

٤. ر ريت واعتنوا بآله

٥. آل عبد ... (١)

وهناك بضع وثائق شرعية هامة تم عن تطور ورقي في الحياة الدستورية ،
فشريعة حمورابي وشريعة موسى نزلتا من فوق وليست شرائع الحثيين الا مراسيم
اصدرها ملوك مسيطرون . اما شرائع عرب الجنوب فتمتاز بصفات النضوج
الشرعي والبلوغ السياسي وتدل على نظام دولة تلوح من خلاله اوضاع الحكم
النيابي وربما لم يكن في آثار القدم السحيقة ما يدانيها رقياً .

ولم تظن اوربا لامر الرقم العربية الجنوبية حتى اطلعها عليها كارستن نيبوهر
(١٧٧٢) . وعاد اليها يوسف هالفي ، وهو اول اوروبي بعد عهد ايليوس
غالوس (٢٤ ق. م) زار نجران في اليمن (١٨٦٩ - ١٨٧٠) ، حاملاً نسخ
٦٨٥ رقماً جمعها من سبعة وثلاثين موضعاً . وقام ادوارد غلازر بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤
الى اليمن باربع بعثات علميه اسفرت عن الحصول على نحو القى نقش بعضها لم
ينشر بعد . ولدينا اليوم ما يقارب ثلاثة آلاف من الرقم تروي اخباراً يرجع عهدها
الى سنة ٨٠٠ ق. م . واستنسخ العالم الافرنسي ارنود وهو الذي كشف عن اخربة
مأرب نحو ستين رقماً بعد ان عرض نفسه للخطر وذلك في سنة ١٨٤٣ وكان الضابط
البحري البريطاني جيمس ولستد قد نشر سنة ١٨٣٧ قسماً من رقيم نقب الحجر فاطلع
اوربا بذلك للمرة الثانية على كتابة الجنوب العربية . اما حل رمز هذه الكتابة فلقد
تم على يد العالمين اميل روديفر في هاله بالمانيا (١٨٣٧) وغسينيس (١٨٤١) .

وابجدية لغة الجنوب العربية او لغة معين وسبأ (وسميت ايضاً الحميرية واحياناً

المعينية) تسعة وعشرون حرفاً . والراجح أن شكل حروفها قد تفرع قديماً من الفباء سيناء التي هي حلقة الاتصال بين الابجدية الفينيقية وسابقتها المصرية . وهذه الحروف المتسقة المستقيمة الخطوط (وتسمى بالخط المسند في اللغة العربية) تدل على انها نتيجة لتطور طويل مرت به ^(١) . وابجدية لغة الجنوب تحاكي الابجديات السامية الاخرى من حيث انها تتألف من الحروف الصامتة فحسب . ولغة الجنوب في بناء الاسماء وتصاريف الافعال والضمائر والمفردات صلة مع اللغة الأكديّة (البابلية القديمة) والاثيوبية (الحبشية) ، ولا ترتبط في هذه الامور بلغة الشمال العربية - لغة القرآن . الا انها تتميز بالمجموع المكسرة شأن لغة الضاد . ولأغة الأكديّة ولغة الجنوب العربية واللغة الاثيوبية (الحبشية) خصائص تجعلها اقدم اللغات السامية . وقد تداعت ثقافة اليمن قديماً فماتت لغة الجنوب ، واحتلت لغة الشمال مقامها . وساعد على هذا الانقلاب الاسواق الأدبية التي كان الشمال قد ألفها كسوق عكاظ ومواسم الحج السنوي التي كان عرب الجاهلية يقصدون الكعبة فيها والعلاقات التجارية التي انشأتها مكة مع غيرها من البلدان . فلما جاء الاسلام كانت لغة الشمال قد تبوأَت مقام اختها الجنوبية في اكثر انحاء الجزيرة . ولهذه اللغة الجنوبية ذرية باقية في لهجتي مهرة وسقطرة ولكن ليس لهاتين قيمة ادبية تذكر .

١ . الدولة المعينية

إن اول دولة نستطيع ان نتبينها من خلال الظلمات الخيمة على غابر الجنوب القديم هي الدولة المعينية التي ازدهرت على رأي بعض علماء الدراسات العربية من حوالي ١٢٠٠ - ٦٥٠ ق.م ^(٢) ، وعينوا لها تاريخاً اسبق مما يعينه لها سواهم . ولقظة « معيني » وردت في آداب اليونان والرومان . اما كتبة التوراة فيدعونها مأءون او معون او معين - على اعتبار انها اسم لمكان . وهي ليست مغن التي

(١) *Corpus inscriptionum Semiticarum, pars IV* (Paris, 1889 ff).

(٢) Nielsen, *Handbuch*, vol. 1, pp. 67, 74. قابل

العربية السنائية العربية الجنوبية الفينيقية راس شمرا اليونانية المتأخرة اللاتينية

𐤀 𐤁	𐤁	𐤁 𐤂	𐤁 𐤂	A	A	ا
𐤂 𐤃 𐤄	𐤂	𐤃 𐤄	𐤃 𐤄	B	B	ب
𐤅	𐤅	𐤅	𐤅	CG	CG	ج
𐤆 𐤇 𐤈	𐤆	𐤆 𐤇	𐤆 𐤇	D	D	د
𐤉	𐤉	𐤉 𐤊	𐤉 𐤊	E	E	هـ
𐤋	𐤋	𐤋	𐤋	FV	FV	و
𐤌	𐤌	𐤌	𐤌	ز
𐤍 𐤎	𐤍 𐤎	𐤍 𐤎	𐤍 𐤎	H	H	ح
...	ط
𐤏 𐤐	𐤏 𐤐	𐤏 𐤐	𐤏 𐤐	I	I	ي
...	ك
𐤑 𐤒	𐤑 𐤒	𐤑 𐤒	𐤑 𐤒	L	L	ل
...	M	M	م
𐤓 𐤔	𐤓 𐤔	𐤓 𐤔	𐤓 𐤔	N	N	ن
...	X	X	...
𐤕 𐤖	𐤕 𐤖	𐤕 𐤖	𐤕 𐤖	O	O	ع
...	P	P	ف
𐤗 𐤘	𐤗 𐤘	𐤗 𐤘	𐤗 𐤘	ص
𐤙 𐤚	𐤙 𐤚	𐤙 𐤚	𐤙 𐤚	Q	Q	ق
...	R	R	ر
𐤛 𐤜	𐤛 𐤜	𐤛 𐤜	𐤛 𐤜	S	S	س
...	T	T	ش
+	x	x	x	T	T	ت

ذكرتها الكتابات الآشورية البابلية حسباً اسلفنا ، ولكن تمثلها معان الحديثة الى الجنوب الشرقي من البتراء في أرض ادوم القديمة . والكلمة العربية الاصلية معان حرفت الى معين ومعناها ماء ظاهر على وجه الارض ، ويرجح ان المعينين الذين احتلوا ارض الشمال هم مستعمرون جاءوها من الجنوب الغربي . وقد ازدهرت الدولة المعينية في جوف اليمن بين نجران وحضرموت فاستولت في اوج عزها على معظم الجنوب بما فيه قطبان وحضرموت ومنطقة ملح (ملحاً في المدونات الاسفينية) وهي واقعة في اواسط الجزيرة وشمالها الغربي . ويرجح ان ملح هذه هي عماليق في التوراة - « اول الشعوب » ^(١) . وكانت معان المجاورة للبتراء مستعمرة خطيرة ومركزاً تجارياً في ارض مديان (شرقي سيناء) واسمها في النقوش « مصران » فاسم هذه المستعمرة الرسمي كان معان مصران . ثم قامت دولة سبأ فانتقلت هذه المستعمرة الى حوزتها حوالي ٦٤٠ ق.م . اما اللحيانيون (نحو ٥٠٠ - ٣٠٠ ق.م) وعاصمتهم ديدان (دادان في التوراة والعلا اليوم وكانت مستعمرة لمعين ايضاً) فانهم استولوا على مصران حوالي ٥٠٠ ق.م . ثم تلاهم الأنباط فحكموا هذه المستعمرة المعينية بارض الشمال . والواقع ان اسمها القديم خالد في « معان مصرية » - القسم الجنوبي من بلدة معان اليوم .

واذا استثنينا معان ، مركز السلطة المعينية في شمال الجزيرة الغربي ، فاننا نجد دويلات معينة سبئية قد ظهرت على ضفاف الفرات السفلى في القرن السابع قبل الميلاد كما اثبتت النقوش والختوم التي عثر عليها في تلك الناحية . اما العاصمة المعينية قرناو ^(٢) التي زارها هاليفي في ١٨٧٠ فتمثلها « معين » الحديثة (في جنوبي الجوف الى شمال صنعاء الشرقي) التي يخلد الاسم فيها . ولقد قامت اليوم ايضاً براقش موضع يثيل ، المركز الديني قديماً في جنوبي الجوف ، الى الشمال الغربي من مأرب . وهناك بلدة اخرى هي نشان قامت على اطلالها اليوم بلدة السوداء .

(١) العدد ٢٤ : ٢٠ . قابل Nielsen, Handbuch vol. i, p. 86, n. I.

(٢) القرناء في لغة الشمال .

واللغة المعينية تشاكل لغة سبأ التي قامت بعدها فلا تختلف اللغتان الا في امور لهجية . ويرجع عهد الرقم المعينية الى حقبة ملوك معان وهي تشمل نقوش قطبان الملكية والنصوص الحضرمية القليلة التي وصل اليها العلماء . ولقد دقق العالم مولر في اسماء ملوك معين فحقق هوية ستة وعشرين ملكاً فيها واستدل من تكرار بعض الاسماء الملكية ان نظام الملك الوراثة كان يراعى في دولتهم ^(١) . ومن اشهر الأعلام في جدول ملوكهم : صديقي الو وابي يدعا يشع ومعد كربا ^(٢) .

الدولة السبئية

يتمدد عصر سبأ بين ٩٥٠ و ١١٥ ق. م . على وجه التقريب . فملوكهم الأول عاصروا متأخري ملوك الدولة المعينية . ولكن بعد انقضاء ثلاثة قرون ورث السبئيون مملكة اقربائهم المعينيين واصبحوا سادة على بلاد العرب الجنوبية وحكاماً لها في عصر من ازهى العصور التي عرفتها .

انتهى العصر السبئي الاول نحو ٦٥٠ ق. م . فكان لقب القائم على امور الدولة آنئذ « مكرب ^(٣) سبأ » وكان يقوم بوظيفة ملك وكاهن معاً . ونجد في النصوص المحفوظة ذكراً لما يقارب السبعة عشر ملكاً يحملون هذا اللقب . واقدام ابنية سبأ قصر صرواح ويدعى اليوم خربة وهو على مسيرة يوم الى الغرب من مأرب وكان معقلهم الأول . والى هذه الحقبة يعود امر شمس (او شمسية) ويشعي امرا السبئيين اللذين تقاضى سرجون الثاني جزية منها .

مد مأرب

وتقع مأرب على علو ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ولم يزرها حتى اليوم الا ثلاثة من الاوربيين : ارنود وهاليفي وغلارز . وكانت ملتقى الخطوط التجارية التي

(١) Müller, *Die Burgen*, pt. 2, pp. 60 — 67.

(٢) Nielsen, *Handbuch*, vol. 1, pp. 68 — 73.

(٣) لفظة « م ك ر ب » لم تضبط حركاتها وكانت تطلق على من يجمع بين الكهانة والملك .

وصلت بلدان اللبانت بمرفأء البحر المتوسط واخصها غزة . ولقد أشار الهمداني في « الاكليل » ^(١) الى ثلاث قلاع بمأرب ولكن البناء الذي اكسب المدينة شهرتها هو سدها العظيم - سد مأرب ^(٢) فقد كان من عجائب الفن الهندسي وكان فيه كما في غيره من مباني سبأ العامة من الرقي الهندسي ما ينم عن مجتمع محب للسلام عريق في الحضارة لا في الامور التجارية فحسب ، بل في الاعمال الفنية الرائعة ايضاً . وشيدت اقسام السد القديمة في اواخر العصر السبئي الاول . ولقد أبانت النقوش ان المقام الاول بين بناء السد ناله يشعي امراباين وابوه . على ان الهمداني ومن جاء بعده من مؤرخي العرب امثال السعودي ^(٣) والاصفهاني ^(٤) وياقوت ^(٥) يحسبون ان بانيه هو رجل اسمه لقمان بن عاد ، والواقع ان لقمان هو من رجال الاساطير . ويظهر في العصر الثاني لدولة سبأ (نحو ٦٥٠ - ١١٥ ق.م) ان الحاكم قد تجرد من صفته الكهنوتية فاطلق القوم عليه لقب « ملك سبأ » وكانت عاصمته مأرب (مريابا في الآداب اليونانية والرومانية) وهي على بعد مئة كيلو متر (نحو ستين ميلاً) الى الشرق من صنعاء . وقد توهم ياقوت وتابعه كثيرون ان سبأ هي مأرب على ان الصحيح غير ذلك فسبأ اسم البلاد والأمة ولم تك بلدة ابداً . وكان لقطبان في بعض ادوار هذه الحقبة ملوك يديرون دفة أحكامها وعاصمتهم تمنع . ولحضرموت ملوك آخرون في عاصمتهم شبوة (سبوتا في آداب اليونان والرومان) . ولكن سبأ نالت المقام الأول بين من عاصرها من فروع الدوحة الجنوبية . وكانت هذه الحقبة (٦٥٠ - ١١٥ ق.م) اجد عصر في تاريخها .

٣ . الدولة الحميرية الأولى

ومضت سنة ١١٥ ق.م . فاذا بملك الجنوب تظهره النقوش حاملاً لقباً جديداً :

- (١) نشر الكرمل (بغداد ، ١٩٣١) ص ٥٥ .
- (٢) راجع وصف انقاضه في كتاب نزيه العظم الجزء ٢ ص ٥٠ وما يلي .
- (٣) السعودي ، مروج الذهب نشر دي مينار وترجمته (باريس ، ١٨٦٤) المجلد الثالث ص ٣٦٦ .
- (٤) الالفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء نشر غوطولت (ليبرغ ، ١٨٤٤) ص ١٢٦ .
- (٥) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٣ .

« ملك سبأ وذو ريدان » . وريدان هي التي عرفت فيما بعد باسم « ظفار » ^(١) وهي منطقة الساحل البحري وهنا بدأت دولة حمير الاولى التي كتب لها البقاء حتى ٣٠٠ م . ولعل الحميريين كانوا في اول امرهم حكاماً في قطبان . واول اشارة الى الحميريين في الآداب اللاتينية هي في « كتاب الطواف حول البحر الاريثري » ثم تكررت في تصنيف بلينيوس . وحمير تمت بصلة شديدة الى سبأ . وهي أحدث فروع الدوحة الجنوبية عهداً وورثة ايجاد الحضارة المعينة السبئية . وليست لغة الحميريين الا لهجة من لغتي سبأ ومعين السابقتين . ويؤيد اقوال بلينيوس عن احوال الزراعة عندهم ما قررته الرقم من ذكر الآبار والسدود والاحواض . وكانت للعلل مناطق خاصة به يستثمر فيها وللذهب مناجم في عسير . اما مورد البلاد الرئيسي ففي اجتناء اللبان ولهم من ذلك صناعة واسعة كانت من قبيل الفرائض الدينية .

وكانت عاصمة الاسرة الحميرية ظفار (في آداب اليونان والرومان سينار وسفار وفي تك ١٠ : ٣٠ سفار) وهي مدينة في الداخل على بعد مئة ميل الى الشمال الشرقي من مخا وعلى الطريق المؤدية الى صنعاء . وما لبثت ان احتلت مكان مأرب عاصمة سبأ وقرناو عاصمة معين في عظمتيهما . ولا تزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة يرم الحاضرة . وكان ملكها في الوقت الذي وضع فيه كتاب الطواف يدعى كربا الووتر . واول من أشار الى آثار هذه البلدة الحميرية القديمة مستدلاً من نقوش بعيدة العهد هو العالم نيبوهر الذي أم اليمن في ١٧٦٣ وكتب عنها في ١٧٧٢ . وحدث في هذه الحقبة الحميرية ما ذكرناه آنفاً من امر الحملة الرومانية المشؤومة التي رأسها ايليوس غالوس وطوح بها حتى مرياما . وليس الملك الاساروس الذي قال سترابو انه حاكم البلاد في ذلك الوقت الا السرحا يخضب المذكور في النقوش .

الامباشي واصلهم السامي

وفي هذه الحقبة جرت حادثة تاريخية اخرى ذات بال هي نزوح فئة من عرب

(١) وهي غير ظفار المدينة البرية التي كانت هي العاصمة .

اليمن وحضرموت الى « ارض كوش » حيث استقر بهم المقام فوضعوا حجر الاساس لدولة حبشية ذات مدنية وعمران ما فتئت ان ادركت من الحضارة درجة لم يكن لزواج البلاد الاصيلين ان يبلغوها لولا اندماج العرب بهم . ومن المحتمل ان تفرق قبائل الجنوب حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد (وتعزوه الاخبار والتقاليد الى انفجار سد مأرب العظيم) الذي اسفر عن هجرة بعض القبائل الى الشام والعراق قد ادى الى نشاط حركة الانتقال الى الحبشة ايضاً وازدياد الجالية العربية فيها . وكانت قد تقاطرت جموع العرب الى ساحل افريقية الشرقية قبل الفتح الاسلامي بزمان بعيد حيث اختلط دمهم بدم السكان الاصيلين . ولدولة اكسوم - وهي نواة نمت منها دولة الحبشة فيما بعد - اصول تعود الى القرن الاول للميلاد .

والحبشة هي البلاد الافريقية الوحيدة ما خلا مصر التي تنعم بتاريخ معروف ولقد مرت على الأمة الحبشية اجيال متعاقبة اعتصمت فيها باستقلال سياسي نادر المثال . وفي التقاليد التي تناقلها المولدون عندهم ان عاهلهم الذي كان يلعب قبل التدخل الايطالي الأخير - باسد يهوذا القاتح - هو من سلالة سليمان الحكيم وملكة سبأ . الا ان الحقائق الراهنة لا توصلنا في تاريخهم الى ما قبل القرن الأول الميلادي وليس لدينا ما يؤبه له من الأخبار الصريحة لهذه الأمة قبل اعتناقها النصرانية على يد القديس فرمانيوس ^(١) السوري حوالي منتصف القرن الرابع للميلاد .

قصر غمداه

ويعزى الى ملك آخر من ملوكهم يسمى الشرحا (وهو ليشرح بن يحصب في ياقوت ^(٢)) وقد تولى الحكم في القرن الأول للميلاد انه بنى افخم قصور اليمن

(١) وفي اخبار الحبشة ان تاجراً سورياً عرج برفقة اثنين من اقربائه هما فرمانيوس واخوه على احد ثغور البحر الاحمر حيث قتل التاجر وسبق الاخوان الى حضرة الملك . ويروى ان الملك استوزر فرمانيوس ثم سامه بطريك الاسكندرية اول اسقف على الحبشة . Budge, *History of Ethiopia*, vol. 1, pp. 147 — 148.

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٨١١ . وهو ابو شرح يحصب في اكليل الهمداني نشر الكرمل ص ٢٤ .

وقد دعيت اليمن « بلاد القصور » . وهذا القصر هو غمدان في صنعاء . وكان المتحضرون من حمير يبادرون بحكم الضرورة الى ابتناء القصور والمعقل المنيعة اتقاء لغارات البدو . ولقد امتدح الهمداني ^(١) المتوفى بصنعاء سنة ٩٤٥ وياقوت بعده عظمة غمدان ووصفا اتقان بنيانه وصفاً دقيقاً برغم ان رسومه كانت قد غفت في عصرها ولم يتخلف منه سوى حطام خرابه الضخم . فكان في هذه القلعة فيما رواه هذان الجغرافيان عشرون طبقة مستقوفة بعضها فوق بعض وبين كل سققين عشرة اذرع - فهذه اذن اول ناطحات السحاب في التاريخ المدون . وكانت مبنية بالگرانيت والبرفيرى والرخام . وجعل صاحب غمدان مجلسه في اعلى طبقة في القصر واطبق سقفها برخامة واحدة فكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة . وكان للقصر اربعة اوجه منها وجه مبني بحجارة بيض ووجه بحجارة سود ووجه بحجارة حمراء . وكان في كل ركن من اركان القصر اسد من نحاس فكانت الريح اذا هبت تتردد في اجواف تلك الأسود فتزأر عند ذلك . وفي غمدان يقول الهمداني :

ومن السحاب معصب بعمامة ومن الرخام منطوق ومؤزر

وبقي البناء حتى ظهور الاسلام ولعله هدم في اثناء العراك الذي نجم عنه استقرار السيادة الاسلامية في اليمن . ولقد تعهد موقعه الامام يحيى بعنايته فامر ان يقوم بحراسته رقيب يشرف عليه ولو ان اطلال القصر قد لعب بها العفاء . ويستدل من الحجارة العظيمة التي شيد بها الجامع الكبير الحديث بصنعاء وطريقة نحتها انها منقولة من بقايا تلك القلعة القديمة .

ويبدو الملك في هذه الحقبة الاولى من تاريخ حمير سيداً اقطاعياً يسكن قلعة حصينة مستبدلاً في حكم الارض يضرب النقود ذهباً وفضة ونحاساً وهي حاملة رسمه على احد وجهيها وصورة بومة على الوجه الآخر (البومة شعار لمدينة اثينة اليونانية)

او رأس ثور . ومن نقودهم القديمة طاقة تمثل رسماً لرأس الالهة اثينة ويستدل من هذا ان اهل الجنوب انما توخوا في سك النقود قواعد اثينية وذلك في ما يبلغ القرن الرابع قبل الميلاد قدماً . فضلاً عن النقود فقد عثر المنقبون في اليمن على اشكال وتمائيل صغيرة من البرونز من صنع الهلنيين والساسانيين . الا ان الفن البلدي ليس عريقاً في القدم ولا نعرف زماناً او بلاداً عبّرت فيه العبقرية السامية عن نفسها في هذا السبيل الفني .

ولقد اوضحت الرقم ان نظام الاجتماع في بيئة سبأ وحيركان يرتكز على أساس تمازجت فيه مزايا الحياة القبلية بطبيعة انقسام الامة الى طبقات مستقلة متباينة وبالارستقراطية الاقطاعية والحكومة الملكية فجاء شكلاً قائماً بذاته لبعض مظاهره مثيل اذا اعتبر كل مظهر منها على حدة ولكن مجموعها فريد فذ لا يحاكيه نظام آخر في تاريخ الامم .

نحول تجارة العرب البحرية الى الرومان

ولم تنقض الحقبة الاولى من تاريخ حيرحتى مال نجم دولة الجنوب الى الافول . فالرخاء الذي حالف اليمن كان وليد نجاحهم في احتكار مرافق التجارة في جهات البحر الاحمر . ثم بدأوا يتخاذلون في الاستئثار بها والسيطرة عليها . وانا لو تصفحنا « كتاب الطواف حول البحر الأريثري » (٥٠ - ٦٠ م) - وهو اول ما وصلنا من مدونات العلاقات التجارية المنظمة بين الشرق والغرب التي انشاها الغربيون وابتنوا لها السفن وقاموا على ادارتها - لرأينا بوادر جديدة تشعروا بانقلاب عظيم في ميدان التجارة . وكان الاسكندر قبل ذاك يهدد كيان هذا الطريق البري العظيم الذي كان يحتاز ارض الهلال الخصيب ويربط ما بين اوروبا والهند فيسبب الاصطدامات المتوالية بين امبراطورية القرثيين وامبراطورية الرومان . ولكن الخط البحري الجنوبي الذي ينتهي الى الهند ، ظل في ايدي العرب حتى القرن الاول للميلاد . وكان دأبهم ان يجمعوا حاصلات بلادهم وحاصلات افريقية الشرقية والهند

ثم يرسلوها على ظهور الابل شمالا من مأرب الى مكة فالشام ومصر اجتناباً لاهوال السفر في البحر الاحمر . اما اذا اضطروا الى نقل البضائع بحراً او رأوا انه اصلح فانهم كانوا اما يسلكون البحر الاحمر كله الى القناة حيث يتحولون ببضائعهم الى احد فروع النيل العليا الشرقية او يقلعون الى وادي الحمامات ثم يعبرون الصحراء المصرية الى طيبة او يقلعون في النيل الى ممفيس . وكان الخط البري الذي يخترق الحجاز قد انبث على طوله المحطات الحمرية ^(١) وافادنا سترابو ^(٢) ان القوافل كانت تقطع المسافة بين « مينيا » و « ايلاتا » (العقبة) في مدة سبعين يوماً . ثم ازداد ولع الاقوام الغربية بالمنسوجات الشرقية وتضاعفت رغبتهم في الاعطار والطيوب فتسارع عرب الجنوب الى رفع اثمان بضائعهم خصوصاً اللبان وزادوا المكوس والضرائب التي يتقاضونها عن البضائع الاجنبية التي تمر ببلادهم وازدادوا حرصاً في الوقت نفسه على تمكين قبضتهم على طرق التجارة ، ومن هنا كثرت ثروتهم واصبح غناهم مضرب الامثال . ولقد ساهم كل من البتراء وتدمر في هذا النظام التجاري الواسع وكانت كل منها حلقة في سلسلة هذا الطريق التجاري وتمتعت بنصيبها من الثروة والرخاء . ولكن الموقف كله اخذ يتغير الآن .

ذلك انه عندما جلس البطالسة على اريكة مصر واعادوها الى مصاف الدول العظمى بدأت اول محاولة للنزاع مع عرب الجنوب وانتزاع السيادة البحرية منهم . فنشط بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٤٦ ق. م) الى افتتاح القناة بين النيل والبحر الاحمر وكان سيزوسترس قد شقها قبله بنحو ثمانية عشرة قرناً . وجاءت اساطيل البطالسة التجارية الى البحر الذي يفصل مصر والجزيرة العربية فادى ذلك الى اندحار زعامة حمير التجارية ثم طلعت رومة فانزعجت مصر من البطالسة حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد وحذت حذوهم في مزاحمة العرب في البحر وبذلت جهدها لتحرير مصر من الاتكال التجاري على اليمن . واتمدد كان الرعايا الرومان

(١) راجع القرآن ، سبا ، ١٧ - ١٨ .

(٢) Bk. XVI, ch 4, § 4.

منذ ايام بلينيوس يشكون مر الشكوى من فداحة الاسعار التي كانت يفرضها تجار العرب ثمناً للسلع التي اضطرت رومة الى شراؤها نقداً اذ لم يكن لديها الا القليل من السلع التي يرغب فيها العرب على سبيل المقايضة . قال بلينيوس :

كسبت بلاد العرب نعت « سعيدة » لانها فياضة بمحاصلات يستعذبها اهل الترف ويباهون في اقتنائها جهازاً لموتاهم ، هكذا انصرف المترفون الى حرق هذه الحاصلات امام اجساد اعزائهم الراحين الى دار الفناء بعد أن كان استعمالها قبلاً ينحصر في مراسيم العبادة لآلهتهم^(١) ... ولكن بحر العرب احرى بكنية السعادة فهو مصدر اللؤلؤ . وتبئز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من اموال امبراطوريتنا مبلغ مئة مليون سترساً [نقد روماني قديم] كل حول - هذا على اقل حساب - وتلك ثروة طائلة نبذرها على اهواء مترفينا ونسائنا^(٢) .

ولم يكن الاحباش فيما نرى راضين بنصيبهم من الغنائم التي كانوا ينالونها من جيرانهم في الشرق فاخذوا الآن يخطبون ودّ الرومان .

وتسنى لاحد الرومان او اليونان في الحقبة الأخيرة من عصر البطالسة ، ولعله كان يعمل في اسطول الاحباش التجاري ، ان يعي اسرار الخطوط التجارية ويقف على اغراضها وتبدلات رياح السموم الدورية فيها فعاد ادراجه الى الاسكندرية يحمل وسق سفينة من السلع المستطابة العزيزة المنال فيها القرقة والبحار من الهند وسواها من الاصناف التي حسب الاوربيون قبلاً انها عربية المصدر . وجرى آخرون في أثر هبالوس هذا الذي اصبح مقامه عند البطالسة مقام كولبوس لما فتحه من الابواب التجارية الجليلة فاعانوا بني جنسهم على هدم صروح الاحتكار التي كانت تجار العرب قد رفعوا بناءها . ولكن لم يقو احد على الاستفادة من هذا الاكتشاف العظيم الذي ازاح الستار عن سر السموم الدورية وظهر الخط المباشر الى الهند حتى العصر الذي استولت فيه رومة على مصر . وكان دخول سفن الرومان الشاحنة الى

(١) يشير الى الابان .

(٢) Pliny, Bk. XII, ch.41.

لاوقيانوس الهندي نذير الموت لحياة اليسر والرخاء في بلدان الجزيرة الجنوبية . ولم يقف التدهور الاقتصادي عند هذا الحد بل تلاه تدهور سياسي كما هو مألوف في مثل تلك الاحوال . وأخذت دول التجارة البتراء وتدمر وبلاد العراق الشمالية تسقط واحدة واحدة فريسه للذئب الروماني .

٤ . دولة حمير الثانية

وحوالي سنة ٣٠٠ ميلادية أصبح اللقب الملكي في جنوب بلاد العرب هو ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمnat . ويؤخذ من ذلك ان حضرموت في تلك الوهلة كانت قد فقدت استقلالها . ثم اضيف الى هذا اللقب قسم آخر : « وعربهم في الجبال وفي التهامة » . ويجوز تفسير « يمنات » (اويمانة) الواردة في الالقاب انقضا لمتأخري الملوك بانها اسم عام اطلق على السواحل الجنوبية . اما تهامة فهي ساحل البحر الاحمر الى غربي صنعاء .

ثم غزا الاحباش البلاد العربية فلم يطل امدهم فيها (٣٤٠ - ٧٨ م) وما لبثوا ان فارقوها واسترجعت حمير سيادتها واسترد ملوكها القابهم الضخمة الى ما يقارب ٥٢٥ م . وفي رقم اكسوم التي يرجع عهدها الى منتصف القرن الرابع نجد ملك الحبشة يدعى « ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشة ^(١) وسلح وتهامة » . وما هذه باول غارة للاحباش على الجزيرة ولا هي آخر عهدهم بها فلقد سبق لهم في القرن الثاني والثالث للميلاد ان نجحوا في بسط نفوذ وقتي على بعض انحاء الجنوب .

وابقت لنا الرقم اسماء تسعة من ملوك حمير في هذه الحقبة ومنهم من ذكرتهم الآداب الاسلامية بلقب « تبع » الملكي وهؤلاء هم التابعة المعروفون . احدهم يسمى شمر يرعش وقد دونت اخباره الاساطير العربية وجعلته يخضع الاقطار حتى سمرقند وزعمت أن اسم هذه البلدة مشتق من اسمه . وملك آخر هو ابوكرب اسعد كامل (نحو ٣٨٥ - ٤٢٠ م) وقد حكى انه اكتسح بلاد فارس فاحضعها ثم

اعتنق اليهودية بعدئذ . وقد خلدت ذكرى ابي كرب اسعد في اشعار الحماسة العربية .
وامتازت هذه الحقبة الاخيرة من تاريخ حمير بدخول النصرانية واليهودية الى اليمن .
النصرانية واليهودية في اليمن

ولقد قامت ديانة الجنوب في جوهرها على اساس تأليه السيارات الفلكية
وتركزت على عبادة القمر - الاله سين - واسمه « ود » عند المعينين (بمعنى الحب
او الحب او الأب) ، وعند سبأ « ألقه » (الاله المعطي الصحة ؟) وفي ديانة قطبان
هو « عم » . وكانت له الزعامة على آلهتهم كلها وقد صورته عباده الهاً ذكراً
وقدموه على « الشمس » التي اعتبروها زوجه . وكان الاقنوم الثالث في ثلوثهم الديني
« عثر » ابنهما (وهو فينس او الزهرة ويقابل الالهة البابلية عشتار ، وعشترت عند
الفينيقيين) . وانتج هذا الزواج السماوي اجراما فلكية اخرى اتخذوها آلهة . ويحتمل
ان اللات الالهة العربية الشمالية المذكورة في القرآن هو اسم آخر لالهة الشمس هذه .
وكانت قد أخذت تتسرب الى الجنوب مبادئ النصرانية على المذهب المنوفيزي
من عهد قديم . وربما كان المرسلون السوريون قد قصدوا اليمن في أزمنة مبكرة
لدينا ، فراراً من الاضطهاد . وكانت اول سفارة نصرانية الى الجنوب تلك التي
وفدها الامبراطور قسطنطينوس في ٣٥٦ يرأسها ثيوفيلس اندس الآريوسي (على
مذهب آريوس الذي انكر لاهوت المسيح) . واهم البواعث الداعية الى هذه
الارسالية توضيحها الحالة السياسية بين الدول انئذ والمناظرة بين الامبراطورية الرومانية
والامبراطورية الفارسية اذ نشطت كل منهما الى توطيد هيئتها في جنوبي الجزيرة . وافلح
ثيوفيلس في انشاء بيعة في عدن وبيعتين في ارض حمير . اما نجرات التي جاءتها
النصرانية على المذهب المنوفيزي فيقال ان حاملها اليها هو رجل ذو ورع
قدمها من سورية اسمه فيميون . فاعتنقت البلاد الدين الجديد في نحو ٥٠٠ م . ونقل
ابن هشام ^(١) والطبري ^(٢) حكاية هذا الزاهد وقد اسرته قافلة عربية فنزلت به

(١) السيرة ، نشر وستنفلد ، (غوتنغن ، ١٨٥٨) ص ٢٠-٢٢

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، نشر دي غويه (ليدن ١٨٧٩-١٩٠١) الجزء الاول ص ٩١٩-٩٢٠

الى نجران . ولقد بقيت النصرانية بنجران بيعة واحدة معروفة الى الازمنة المتأخرة . والى هؤلاء النصارى المقيمين بنجران ارسل يعقوب السروجي (المتوفى ٥٢١) كتاباً بالسريانية يحثهم فيه على الجهاد الروحي ، ثم جاء الاسلام فاجلى الخليفة عمر سنة ٦٣٥ - ٣٦ م الى العراق من لم يعتنق منهم الاسلام ^(١) . وكان للنصرانية حتى سنة ٨٤٠ استقف لصنعاء واليمن يدعى مار بترس .

وقد اخذ مؤلفو الاسلام اكثر معارفهم عن احوال النصرانية وبيزنطة في عهود الجاهلية من المصادر السريانية او استمدوها مما نقله كتاب السريان عن آداب اليونان . وهذه المصادر هي التي احاطتهم علماً بشؤون النصرانية في جنوبي الجزيرة . ويستفاد من اقدم هذه المصادر السريانية ^(٢) في هذا الصدد أن نصارى الجاهلية كانت لهم بيع ليس في نجران فقط بل في ظفار وحضرموت ومأرب ايضاً .

وقد انتشرت اليهودية ايضاً في اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية . ولا بد ان تكون قد دخلت شمال الجزيرة قبل ذلك الزمن وربما كان ذلك على اثر خضوع فلسطين لادريانوس وطيّطس وتدمير بيت المقدس على يد هذا الاخير سنة ٧٠ م . ولو تفحصنا اسماء اليهود المقيمين في الجزيرة لرأينا ان معظمهم اراميون وعرب متهودون وليسوا من ذرية ابراهيم الخليل . واخذ ساعد اليهودية يشتد حتى اذا قبل القرن السادس للميلاد صارت لها صولة في اليمن بحيث ان آخر ملوك حمير وهو ذو نواس (سليل تبع اسعد كامل) كان يهودياً . ولا يزال في اليمن الى يومنا هذا ما يقرب من مئة الف يهودي لهم حي من احياء العاصمة صنعاء . وانك لترى « خاتم سليمان الحكيم » منقوشاً على جدران بعض المساجد في البلاد . ^(٣)

(١) البلاذري ، فتوح ص ١٠١-١٠٢

(٢) انظر (Axel Moberg, The Book of the Himyarites (Lund, 1924) ويبدو ان ما جاء في هذا السفر من الاخبار لم يكتب الا بعد حملة الأحباش بأمد يسير (٥٢٥ م) .

(٣) احمد زكي ، مجلة الهلال ج ٣٧ ، (القاهرة ، ١٩٢٩) ص ١٠٥٠

واشتدت المنافسة بين عرب الجنوب الذين انضموا تحت لواء هاتين الديانتين الموحدين الحديثي العهد فانقلبت عداءً مريراً . والذي يلوح لنا ان ذا نواس كان يمثل الروح القومية في البلاد فرأى في النصارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الاحباش المسيحيين البغيض . والى هذا العاهل تعزى مذبحة نصارى نجران في تشرين الاول سنة ٥٢٣ . ويقال انه جمع من نجا منهم ثم دعاهم الى اليهودية فخيرهم بين القتل والدخول فيها فاختاروا القتل . فخذ لهم اخدود النار ذات الوقود .^(١) وفي اخبار العرب ان دوس ذا ثعلبان افلت ولجأ الى امبراطور الروم فاستنصره على ذي نواس ، وقصر الروم اذ ذاك يوستينوس الاول - صاحب القسطنطينية - كان يعد حامي دمار النصرانية في كل الارض ، فقال له يوستينوس « نأت بلادك عنا فلا تقدر أن تتناولها بالجنود ولكني سأكتب الى نجاشي الحبشة (كليب الاصبحة حسبما ذكرته النقوش) وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك » . ويقال ان صاحب الحبشة بعث معه سبعين الفاً من الحبشة واقرب عليهم رجلاً منهم يقال له ارياط . فركب البحر الاحمر بهم حتى نزلوا بساحل اليمن . ولهذا الحملة اهمية في شبكة السياسية الدولية آنذاك . ومحور تلك الاوضاع هو سعي بيزنطة الى الاستعانة باحبشة كيما تبسط سلطانها على قبائل العرب وتتوسل بهم في مناوأة الفرس . وكتب القوز للاحباش اولاً سنة ٥٢٣ وثانية سنة ٥٢٥ اذ ترغبتهم ابرهة (لغة في ابراهيم) . وكان لاول عهده قائداً في جيش الاحباش الى ان خرج على رئيسه ارياط واستبد بالاحكام . ولقد روى الطبري^(٢) ان ذا نواس رأى أن لا طاقة له بالاحباش فركب فرسه واعترض البحر فافتحمه فكان آخر العهد به . وهكذا كانت خاتمة آخر ملك حميري . وانتهى بموته عصر استقلال اليمن . ولم يخف من آثار اسرة حمير العريقة على ما كان لها من العز والفخار الا اسم قبيلة مجهولة الحسب تدعى حمير وبنوها قوم ديدنهم السلب مياولون الى البداوة وحياتهم جبلية يسكنون تلال

(١) سورة البروج : ٤

(٢) تاريخ الرسل ، ج ١ ص ٩٢٧-٩٢٨

يلهف في ساحل جنوبي الجزيرة على نحو مئتي ميل الى الشرق من عدن .
وقد ذكر القزويني ^(١) أنه لما بعث الخليفة معاوية (٦٦١ - ٨٠ م) عبد
الرحمان ابن الحكم الى اليمن والياً رأى قصرًا بساحل عدن مبنياً بالصخر والكلس
وعلى بعض ابوابه صخرة عظيمة بيضاء نقشت عليها ابيات من الشعر . وقد اخطأ
القائل انها ترجمة ما كشف عنه في حصن الغراب من نقوش حمير الاولى التي نشرها
العلماء في اوروبا .

حكم الاحباش

ولقد دخل الاحباش اعواناً ثم ما لبثوا ان اصبحوا فاتحين وهذا امر كثير الوقوع .
ثم نشأ منهم جيل جديد استعمر الارض واستأثر بها من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ .
واستثمر الاحباش ارضاً كان اجدادهم قد نزحوا عنها في الازمان القديمة واستوطنوا
الساحل الافريقي . وابتنى ابرهة عامل الدولة الاكسومية كاتدرائية في صنعاء ، عاصمة
اليمن اليوم ، تعد من افخم كاتدرائيات ذلك العصر سماها القليص (اكليسيا
اليونانية اي بيعة) . ولقد بنيت هذه الكاتدرائية التي لم يبق منها اليوم الا اطلال
من أخربة مأرب القديمة .

وعقد الاحباش النية على تنصير البلاد ومزاحمة مكة الوثنية . ومكة يومئذ مركز
الحج في امصار الشمال وموارد الحج غنية عن البيان فهي تعود على ابناء المدينة التي
يقصدها الزائرون بخيرات طائلة وترزق منها ايضاً كل المدن الواقعة على خطوطه .
ويخيل لنا ان المشرفين على سياسة البلاد من الأحباش أفلحوا فيما نووه من انشاء
مزار ديني في الجنوب تتوارد اليه القبائل وهو امر يجلب الضرر الى معبد الحجاز .
وحفظت الاخبار ذكرى هذه المنافسة الاقتصادية الدينية فنقلت ان ابرهة كتب الى
النجاشي يقول « اني قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلاً لمالك كان
قبلك ولست بمنته حتى اصرف اليها حاج العرب » . فلما تحدث العرب بكتاب

(١) الآثار (غوتفن ، ١٨٤٨) ص ٤٣

ابرهة ذلك ، غضب رجل من فقيم وهي قبيلة تنتسب الى عبادة الكعبة وآخر من بني مالك فخرجوا حتى اتيا القليس فقعدا فيها ودنساها ثم رجعا فلققا بارضهما . فاتصل ذلك بابرهة فحلف ليسيرن الى البيت الذي تمج اليه العرب - الكعبة في مكة - حتى يهدمه . ثم امر الحبشة فتجهزت للحرب . وتعرف سنة حمله على مكة بعام الفيل (٥٧٠ او ٥٧١ م .) وهي سنة مولد النبي العربي لان ابرهة اقبل فيها بفيله فحمل على مكة في الشمال فتحدث عرب الحجاز به ولم تكن القبيلة مألوفة عندهم . الا ان ابرهة لم يفلح بل فتك الجندري (سجيل ^(١) في القرآن » بجيشه اي فتك .

انفجار سد مأرب

وحدث في هذه الحقبة انفجار سد مأرب المنجع الذي ذكرت اخباره الآداب الاسلامية . وجرى السيل العرم ^(٢) فغمر الاراضي ، و « تفرق القوم ايدي سبا » ولقد خص الاصفهاني ^(٣) الباب الثامن من تاريخه (انهاء سنة ٩٦١ م) بسياقة تواريخ ملوك حمير فزعم ان السيل العرم اخرج السد « قبل ظهور الاسلام باربعمئة سنة » . ولكن ياقوت ^(٤) كان اقرب الى الصواب فقد ذكر ان خراب سد مأرب وقصة العرم كان في ملك الحبشان . ولا تزال انقاض السد ظاهرة الى اليوم . وقد نشر غلازر ^(٥) رقما من رقم الجنوب التي كشفها (وتاريخه يقابل سنة ٥٤٢ - ٤٣) وهو لأبرهة فيه ذكر لانفجار احد السدود .

وقد سبق التصدع الذي حدث في السد ايام ابرهة تصدع آخر في سنة ٤٥٠ م يوم تفجرت المياه اثره وخربت السد . ولكن البناء أصلح بعد ذلك ^(٦) . اما

(١) سورة الفيل ، ١-٣ وانظر الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن (يولاق ، ١٣٢٣-٩) ج ٣٠ ص ١٩٣ ، وابن هشام ، السيرة ، ص ٣٦

(٢) سورة سبا : ١٥

(٣) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني الملوك والانباء ، ص ١٢٦

(٤) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٣

(٥) Mitteilungen der vorderasiatischen Gesellschaft (Berlin, 1897) , pp. 360-488

(٦) انظر الموسوعة الاسلامية (Encyclopedia of Islam) تحت مادة Ma'rib

الكارثة الكبرى التي اشار اليها القرآن (سورة سبا : ١٥) فيترتب وقوعها بعد سنة ٥٤٢ هـ وقبل ٥٧٠ . ويعزى الى أحد انفجارات السد الاولى نزوح بني غسان الى حوران في سوريا حيث انشأوا دولة اصطنعها الرومان في الدفاع عن تخومها ، ونزوح بني نحم ايضاً الى ارض الحيرة حيث كشف اخيراً عن عدد من رقم الجنوب العربية . ولقد كانت غسان تؤرخ بانفجار السد جاعلة تلك الحادثة بداية عهدها الجديد^(١) . وفضلاً عن غسان وتنوخ النازلتين في ربوع سوريا والعراق فان كثيراً من قبائل الشمال الكبيرة القوية ترجع انسابها الى اصل جنوبي منها بنو طيء وكندة . وفي الشام اليوم عائلات ترجع دخولها البلاد الى عهد هذه الحادثة . وتناولت مخيلة العرب المتأخرين هذا الحدث الرائع عن اخبار السيل العرم وانفجار السد المنيع فعالت به حالة التأخر والانحطاط في تاريخ الجزيرة الجنوبية والتقهقر والانحلال في مرافق الزراعة^(٢) وانقضاء عصر الازدهار والتقدم القومي ، وهو انحلال ترجع اسبابه كما رأينا الى اتصال الرومان بالبحر الاحمر اذ جاءته مراكبهم التجارية شاحنة اصناف السلع ، والى المؤثرات الدينية التي صحبت دخول الدين الجديد وما تثيره من احقاد وتذكية من حقائق وما تقيمه بين طبقات الامة الواحدة من فوارق ، وما تلا ذلك من الخضوع لنير الأجانب . وليست اسطورة انفجار السد - والواقع ان الاخبار حاكتها اسطورة منمقة - الا حكاية يمكن القول انها ترمي الى الاتيان بخلاصة وجيزة فذة لما رجعت اسبابه الى عوامل اقتصادية وعمرانية واجتماعية نشأ عنها تداعي معالم الهيئة الاجتماعية في البيئة العربية الجنوبية او قل على سبيل المجاز انها صورة وهمية « تبلورت » فيها عواقب حقب الانحطاط الطويلة وصقلت العقول وصاغتها في اسلوب سهل المنال . وكأن الاخباريين^(٣) ادركوا سر هذه

(١) السعودي ، كتاب التنبيه ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٣) ص ٢٠٢

(٢) اما النظرية القائلة بان مناخ الجزيرة آخذ في الجفاف فلا عبرة بها لان الادلة العلمية لا تؤيدها في الازمنة التاريخية.

(٣) السعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٨٣ ؛ ياقوت ، بلدان ، ج ٤ ص ٣٨٤ ؛ وقابل السعودي ، المصدر

نفسه ص ٣٧٠-٧١ فقد تفرد في عزوه سبب انكسار السد الى عوامل طبيعية فقال ان تواتر قطر الماء على الحجر الصلد يؤثر فيه ، فلقد عمل الماء في اصول السد فاضعه على مر السنين . فسبب انكسار السد عنده اذا هو التأكل.

الاسباب غير الملموسة التي افضت الى المأساة المفجعة فسلكوا الى التعبير عنها اسلوباً بديعاً مبتكراً وقالوا ان جرذاً حفر السد وقلب برجليه صخرة منه لا يقلبها خمسون رجلاً فتدفقت المياه ووقعت الكارثة . ولقد روت الأخبار ايضاً ان مزريقاً (عمرو ابن عامر ابن ماء السماء) كان الملك الذي استطاع في عصره هذا الجرذ الخبيث ان يحدث هذا التغيير الخطير فافتتح عصرًا جديدًا من عصور التاريخ .

عصر الفرس

ونشط القوم الى تحرير بلادهم وطرد الأحباش منها فقام بينهم بطل مشهور في التقاليد القومية هو سيف ابن ذي يزن ويرجع نسبه الى اسرة عريقة المجد من ملوك حمير الماضين . وقد حازت سيرة سيف وانباء حروبه مقاماً عظيماً في حكايات القروسية عند العرب . ثم قيض لها في مصر من تقح مادتها وهذب الفاظها وحسن فصولها وذلك في اثناء القرن الرابع عشر واصبحت موضوع بهجة السامعين تتناولها السنة القصصين الى اليوم في مجالس القاهرة وبيروت وبغداد . وفي التقليد المنقول ان سيفاً انما اخفق في ابتغائه المدد من القسطنطينية على الحبشة لان هذه الاخيرة دولة نصرانية كبيزنطة تربطها اواصر الاخاء الديني ، فصار الى ملك الحيرة الذي قدمه الى عاهل الفرس كسرى ^(١) انو شروان المقيم ببلاطه في المدائن (سلوقية : سيفون) وكان مصير اكثر العالم في ذلك العهد تتنازعه بيزنطة النصرانية وپارس المزدية . اما دولة اكسوم الحبشية فكأنها قامت وكيلة غير شرعية تنظر في مصالح بيزنطة ، هذا ونصارى العرب يوالون البيزنطيين ويتطلعون الى الحماية والرعاية من القسطنطينية كما كان اليهود والوثنيون والعرب يلوذون بالفرس ويطلبون عطف المدائن . واستغاث سيف بملك الفرس واستجاره قلباه وارسل لغوثه ثمان مئة محارب في سنة ٥٧٥ بقيادة وهَرَز (او وهِرَز) . فدحر الاحباش واخرجهم من اليمن وكنفى البلاد شر

(١) الى هذا العاهل يشير مؤرخو العرب حين يقولون « كسرى » دون تعيين ، واسميه في الفارسية « خسرو نو شيروان » .

حكامها الافريقيين . ونشأت على انقاض ذلك حكومة مزدوجة تقلد سيف فيها ولاية اسمية على البلاد واقام لنفسه مجلساً في قصر غمدان القديم وقد طمست معالمه في ايام الاحباش . وكان الفرس يتدخلون في شؤون اليمن حتى جعلوها ايالة خاضعة لسلطانهم ففقه العرب جليلة الامر وادركوا انهم بدلو سيداً اجنبياً بآخر .

وفي أخبار العرب التقليدية التي تتعرض لتلك الحقبة آثار بينة لما نشب من نزاع بين الدولتين المتاحتين للجزيرة - فارس الزردشتية والحبشة النصرانية (تعضدها بيزنطة) - وهما تكافحان في سبيل الاستئثار بما فقدته دولة الجنوب العربية من مجد وعمران . وظهر نصارى العرب ميلاً لبيزنطة فتوسل الاحباش بذلك الميل للتدخل في امور البلاد . وهكذا اتخذت فارس الى التوسع في البلاد وسيلة مما رآته من مؤازرة يهود العرب ووثنييهم لمصالح امتها . وانه وان حالت بادية الشام في الشمال دون توسع الدول الكبرى في الجزيرة فقد اصبحت ارض الجنوب مدخلاً لتلك الدول يوصلها الى قلب البلاد .

واتت سنة ٦٢٨ وهي السادسة للهجرة فاعتنق باذان ، عامل الفرس على اليمن ، الاسلام . وما بزغ نور الاسلام حتى انتقل مركز الجزيرة الخطير الى الشمال وصارت حوادث التاريخ العربي بعد ذلك تجري في مواطن شمالية وقام الحجاز مقام اليمن واليه آلت مكانة ذلك القطر الجليل . وطوال العصور الوسطى كان شأن الجنوب ضئيلاً واموره ثانوية في نظر حكومات الخلفاء المتعاقبة لانها امور قطر سحيق قليل الاثر في حياة الدولة . ولكن في اثناء حكم الاسرة الرسولية (١٢٢٩ - ١٤٥٤ م) استعادت اليمن قسطاً من الاستقلال ولم تستعد معه شيئاً من السؤدد والسلطان . وفي الحرب العالمية الاولى اعلنت البلاد استقلالها وانسلخت من جسم الدولة العثمانية بعناية عاهلها الامام يحيى ^(١) (وهو ينتمي الى آل البيت والمذهب في بلاده هو الزيدي الشيعي) . وقد اغتيل الامام يحيى سنة ١٩٤٨ وخلفه في الحكم نجله الاكبر سيف الاسلام احمد وهو امام اليمن حالياً .

الفصل السادس

دولة الأنباط وغيرها من دويلات شمال الجزيرة وأواسطها

١٠١ الأنباط

نشأ في عصور الجاهلية غير دول الجنوب بضع دويلات زهت في شمال الجزيرة وأواسطها . وكانت عمران هذه الدويلات الشمالية كعمران دول الجنوب يعتمد على التجارة . فلم تكن بحال من الاحوال دولا حربية لا في نشأتها ولا في تدرجها وارتقائها وكانت اقدم هذه الدويلات مملكة الأنباط .

ولسنا نرى في الاخبار القديمة ان الاشوريين ناصبوا الانباط العداء او وجهوا عليهم حملة ما وذلك لان بلاد الانباط لم تكن على الطريق الرئيسي المؤدي الى الغرب . وقد كان الانباط (نباتاي ^(١) في آداب اليونان والرومان) في مطلع القرن السادس قبل الميلاد قبائل بدوية نزحت من ارض نسميها اليوم شرق الاردن . فنزلت ارض الادوميين ^(٢) (اخفاد عيسو) وانتزعت منهم البتراء فيما بعد . ويظن بعض العلماء ان سفر ايوب ادومي الاصل ^(٣) واسلاف الادوميين في « ارض سعيبر » هم الحوريون ^(٤) (الحريون) . ثم امتدت سلطة الانباط من قاعدتهم البتراء الى النواحي المجاورة . اما لفظة البتراء فيونانية معناها الصخرة وهي ترجمة كلمة « سنع »

(١) اما نباتاي في العبرانية ونبيتاي ونبينو في الاشورية فليسوا الانباط على ما نرجح .

(٢) ادوم هي في اليونانية ادومية (مرقس ٣ : ٨) . ولفظة ادوم العبرانية معناها احمر وقد اطلقت على تلك البلاد لعدة احرار صخورها الرملية ورخامها السماقي (برفيري) .

(٣) راجع ما ذكرناه سابقاً ص ٥٥ عن سفر ايوب

(٤) تك ١٤ : ٦ ، ٣٦ : ٢٠

العبرانية الواردة في اشعيا ١٦ : ١ ، ٤٢ : ١١ ^(١) وفي سفر الملوك الثاني ١٤ ، ٧ ويقابلها في اللغة العربية « الرقيم » ^(٢) . وهي تعرف اليوم بوادي موسى . وكانت المدينة القديمة قائمة على رابية قاحلة يبلغ ارتفاعها ثلاثة الاف قدم وهي اليوم عبارة عن مقبرة كبيرة ساطعة الالوان منقورة في طبقات من الحجر الرملي تعكس للرأي كل الوان قوس قزح .

وزعت البتراء في ختام القرن الرابع قبل الميلاد وظلت نحو اربع مئة سنة تشغل مركزاً خطيراً على طريق القوافل الذي يقطع الصحراء واصلاً بين سبأ في الجنوب وبين شعور بحر الروم .

واول ما بلغنا من اخبار الانباط انما هو من ديدورس الصقلي (المتوفى بعد ٥٧ ق.م) ومنه يستفاد ان الانباط حوالي سنة ٣١٢ ق.م كانوا من القوة بحيث استطاعوا ان يصدوا حملتين انفذهما عليهم انتغونس خلف ذي القرنين في سورية وعادوا الى « الصخرة » ظافرين ^(٣) . والظاهر انهم في ذلك العهد كانوا تحت حكم البطالسة . الا انهم عقدوا محالفة مع رومة فيما بعد وضافروها مضافرة اسمية يوم حمل ايليوس غالوس على بلاد العرب سنة ٢٤ ق.م . واول اتصاهاهم بالرومان كان في ولاية حارثة (الحارث - أرتاس الثالث - حوالي ٨٥ - ٦٠ ق.م) . وقد ضربت خلال ملكه اقدم نقودهم الملكية المسكوكة . وسنة ٤٧ ق.م التمس يوليوس قيصر من مالكو (مالك - ملكوس الاول) كتيبة من الخيالة لاكتساح الاسكندرية . ولما جاءت حملة الرومان الى بلاد العرب كان عرش الانباط قد آل الى خلفه عبيدث (عبيدة - ابوداس الثاني ، ٢٨ - ٩ ق.م) . ولقد بلغت مملكة الانباط (بلاد العرب الصخرية) وعاصمتها البتراء اوج عزها في ايام حارثة الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م) وامتدت في عصر المسيح شمالا الى دمشق التي كان الانباط

(١) قابل سفر الاخبار الثاني ١٢:٢٥ . ارميا ١٦:٤٩ ، عوبديا ٣ : .

(٢) انظر Josephus, Antiquities, Bk. IV, ch. 4, § 7, ch. 7, § 1.

(٣) Diodorus, Bk. XIX, § § 94-7.

قد فتحوها عنوة في ايام حارثة الثالث (نحو ٨٥ ق.م) كما فتحوا سورية المجوفة (سهل البقاع) بعد أن حكمها السلوقيون . ولم يكن حاكم دمشق الذي سعى للقبض على بولس ^(١) الرسول سوى عامل لحارثة الرابع . وتشهد الرقم المكشوف عنها في الحجر (مدائن صالح) في شمالي الحجاز ان تلك الناحية ايضاً كانت في حوزة الانباط عند القرن الاول الميلادي . وانا نعرف اسماء ملوك الانباط كلهم من اوفهم وهو حارث (الحارث) الاول (١٦٩ ق.م) الى آخر من حكم مستقلاً منهم وهو كريبيل الثاني (٧١ - ١٠٦ م) ^(٢) . وفي سنة ١٠٥ م قضى الامبراطور تراجانوس على سيادتهم القومية فانتشر عقد الوحدة النبطية وضمت ديارهم في السنة التالية الى المملكة الرومانية وصارت ايلة تابعة لها .

ويعتبر يوسيفوس (المتوفى نحو ٩٥ م) اهم مصدر لمعلوماتنا عن الانباط بعد ديدورس . الا ان يوسيفوس لم يعن الا بما له علاقة من تاريخهم بالشعب العبراني . وكانت بلاد العرب في عرّفه بلاد الانباط وتمتد شرقاً الى ضفاف الفرات . وعرض يوسيفوس ^(٣) لاختبار ملكوس او مليكوس (مالك في العربية) فقال هو « ملك بلاد العرب » الذي ماله هيرودوس كما ماله والد هيرودوس . وعرض ايضاً لملكوس ^(٤) (اي ملكوس الثاني) الذي بعث نحو ٦٧ م الفاً من الخيل وخمسة الاف من المشاة لنجدة بطيطس عندما غزا هذا اورشليم وكان كلاهما من ملوك الانباط . وفي سفر المكابيين الاول ٢٥: ٥ والثاني ٨: ٥ ذكر الانباط كأنهم قوم من العرب . ويعد بدو الحويطات اليوم من سلالة الانباط .

وليس لنا مصادر تلم باحوال الانباط الداخلية الا ما خطته يراعة سترابو وهو صديق ايبوس غالوس ولم يقيم من كتاب اليونان والرومان من اعتنى بهم بعده الا ديدورس . وكان الانباط يتفاهمون بلغة عربية ولم يك للعربية حروف تكتب في تلك

(١) كورنثس الثاني ١١: ٣٢

(٢) انظر جدول ملوكهم في Cooke, North-Semitic Inscriptions, p. 216

(٣) Antiquities, Bk. XIV, ch. 14, § 1. The Jewish War, Bk. I, ch. 14, § 1.

(٤) Jewish War, Bk. III, ch. 1, § 2.

العصور القديمة فاحذوا صور الكتابة الارامية عن جيرانهم في الشمال . وقد أشار ديدورس ^(١) الى كتاب تسلمه انتفونس منهم « بالحروف السريانية » . ولقد استعمل الانباط الارامية لغة للعلم والادب الا ان الاخطاء التي ارتكبوها في رقمهم الارامية الباقية واسماء الاعلام العربية والالفاظ العربية التي استعملوها مثل لفظة « غير » تم جميعها عن ان لغة اصحابها هي لهجة من لهجات العربية .

وقد تطور الخط النبطي الذي نقل عن الارامي واصبح في القرن الثالث للميلاد الخط المألوف في لغة عرب الشمال اي لغة القرآن ولغة العصر الحاضر . وقد جعل هذا التطور من الخط النبطي القديم خطأً نسخياً مستدير الشكل بخلاف الخط الكوفي ذي الزوايا الذي نشأ في الكوفة واقتصر استعماله على نسخ القرآن والوثائق الرسمية الاولى ، والانصاب التذكارية والمسكوكات . ومن اقدم الرقم العربية عهداً رقم النارة في شرق حوران ويرجع زمنه الى ٣٢٨ م . ولقد أرخ به قبر امرى القيس ^(٢) احد ملوك اللخمين بالحيرة . ولم يتحدر اليينا من كتابة الانباط الا بعض الآثار المحفورة والمنقوشة (الابغرافية) . ^(٣)

اصل الابجدية في سيناء

امتازت شبه جزيرة سيناء المتاخمة لموطن الانباط بنزول وصايا الله العشر فيها وباحتوائها على اقدم مثال للكتابة الابجدية كشف عنه لالآن المنقبون . وقد ازيح الستار عن هذه الرقم منذ بضع سنوات في ناحية سراييط الخادم واودعت متحف القاهرة . وبذلت جهود كثيرة لحل رموزها . والكتابة هي من حفر العمال المشتغلين بمناجم الفيروز في سيناء ويرجع عهدها الى نحو ١٨٥٠ ق. م - اي الى ما قبل نقش أحيرام المكشوف عنه في جيبيل (كبال قديماً ، بيلس في اليونانية) بما يناهز

(١) Bk. XIX, ch. 96.

(٢) وسنعرض له فيما بعد

(٣) اما كتاب الفلاحة النبطية الذي صنفه ابن الوحشية سنة ٩٠٤ م وادعى نقله عن « الكلدانية »

فيعد سفرأ ملففاً .

سنة قرون . ولقد عثر على نقش جبيل المذكور الاستاذ مونت الافرنسي وهو الثاني لاقدم نقش فينيقي معروف .

وبعد أن مر زمن على نشوء ابجدية سيناء انتقلت الى سورية الشمالية حيث استخدمها القوم في الكتابة الاسفينية كما اثبتت الواح « راس الشجرة » العائدة الى أواخر القرن الخامس عشر ^(١) . والكتابة هذه التي وجدت برأس الشجرة هي بلا ريب ابجدية سامية . ومع انها رسمت على الواح من الآجر على الطريقة الاسفينية فان حروفها لم تستعر من صور الكتابة السومرية الاكدية التي سبقتها .

وقد ظل رجال العلم الحديث مدة طويلة يعتبرون ان الفينيقيين الذين كانوا اول من عمم طريقة للكتابة تستعمل فيها حروف هجائية قد أخذوا اصولها من مصدر مصرية هيروغليفية . إلا ان الهوة التي كانت تفصل بين الفينيقية والهيروغليفية ظلت كبيرة حتى ظهرت كتابة سيناء فسدت الثمة وكانت الحلقة المفقودة بينهما . والآن يظهر ان ابناء سيناء اخذوا مثلاً صورة « راس ثور » عن الهيروغليفية فاغفلوا تنظيها في اللغة المصرية واطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم الخاصة . ثم عملاً بقانون الاكروفونية (القاضي بالاعتماد على الحروف الاولى من اسماء الصور وترك الباقي منها) صارت هذه العلامة ألفاً . وعلى هذا القياس سار السينائيون في معالجة صورة « بيت » فاطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم ثم اعتمدوا على الحرف الاول من اسمها في لغتهم وهو الباء وهكذا دواليك .

وفي القول باصل الالقاء السينائي ما يعال انتقالها الى جنوبي جزيرة العرب حيث تطورت تطوراً مستقلاً خاصاً ، واستعملت في الرقم المعينة منذ ١٢٠٠ ق. م . وهو يعال انتقالها ايضاً الى شمال الساحل الفينيقي . اذن فعرب سيناء الذين ابتاع الفينيقيون الفيروز منهم اتحفوا الفينيقيين بحروف الهجاء التي اقتبسوها من الهيروغليفية المصرية كما أن هؤلاء الفينيقيين بدورهم حملوها مع تجارتهم الى اليونان بحيث

F. - A.Schaeffer in *Syria*, vol. X (1929), pp. 285 - 97, Charles Virolleaud, (١)
Syria, vol. X. pp. 304 - 10.

مع الزمن أمّا لكل الأبجديات الاوربية .

اما الرقم المكشوف عنها في ناحية صفا البركانية بخوران الراجع عهدا الى نحو ١٠٠ سنة م او بعدها ^(١) وما يعود الى ذلك العصر ايضاً من الرقم اللحيانية التي وجدت في العلا من شمالي الحجاز (ويجوز تسمية هذه الرقم عربية نموذجية بمعنى ان حروفها سابقة للحروف العربية المألوفة) والكتابات الثمودية التي عثر عليها في المنطقة نفسها وخاصة في بقعة الحجر (من عهد القرن الخامس ق. م.) فحروفها تشاكل الابجدية الجنوبية العربية ^(٢) ولكن لغتها عربية شمالية لا يفرق بينها وبين لغة الضاد الا اختلاف طفيف . وما الرقم الثمودية الا تطور مواز او تابع للكتابة اللحيانية التي نشأت منها ايضاً رقم صفا . ولم تنتشر الكتابة الجنوبية في الشمال الى ابعد من موضع رقم صفا . اصف الى ذلك ان كتابة الجنوب ظلت حية في الكتابة الاثيوبية .

ولم تحدد بعد تماماً العلاقات التاريخية بين هذه الشعوب الثلاثة الشمالية التي اعتمدت هذه الكتابة الصفائية واللحيانية والثمودية . الا ان اللحيانيين الذين ذكرهم بلينيوس ^(٣) باسم لخيئي هم شعب قديم لعله تفرع من ثمود وكانت قاعدته ديدان التي كانت من قبل مستعمرة معينة على الخط التجاري العظيم الذي سلكته تجارة اليمن والهند الى شعور بحر الروم . وعقب سقوط البتراء (١٠٦ م) قيص للحيانيين الاستيلاء على الحجر - مركز الانباط الخطير . وكان فيما سبق بلدة ثمودية . ولقد تأثرت ثقافة اللحيانيين كثيراً بالمدينة الميعينة والنبطية . وتتم الانقراض في العلا ومن بينها قبور مزخرفة بالنقوش البارزة عن مدينة جاهلية راقية لا نعرف عنها الا الشيء اليسير ^(٤) .

(١) قابل F. V. Winnett, *A. Study of The Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), p. 53.

(٢) René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 57-73; Dussaud and F. Macler, *Voyage archéologique au Sufa et dans le Djebel ed-Drüz* (Paris, 1901), pp. 2-14.

(٣) Bk. VI, ch. 32.

(٤) لزيادة الاطلاع على شؤون لحيان وثمود راجع : Eduard Glaser, *Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens* (Berlin, 1890), vol. ii, pp. 98-127; Jaussen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (Paris, 1909), pp. 250-91.

البتراء

بلغت البتراء قمة غناها ومجدها في القرن الاول الميلادي وهي راتعة في كنف الرومان الذين جعلوا منها دولة منيعة الجانب تذبّ عن مصالحهم على تخوم امبراطورية القرثيين فاكسبت مجداً وثروة واضحت مدينة حصينة لا يمكن اقتحامها من جهات الشرق والغرب والجنوب وكانت قد قدت من الحجر الصلد تحيط بها شواهد عالية من الصخور بحيث يكاد يستحيل الدخول اليها الا من ممر ضيق متعرج فيهب .

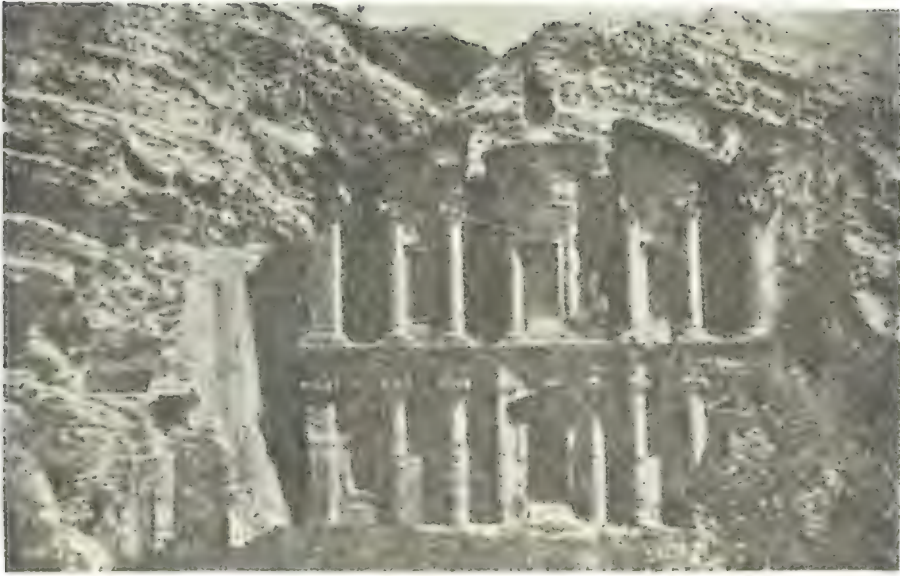


البتراء : القصر .

وكانت تنعم بمائها الصافي الغزير فليس هناك موضع بين الاردن واواسط الجزيرة الاها يفيض مثل هذا الماء . فهنا كان عرب الجنوب المتجهون شمالا في قوافلهم يخطون الرحال ويستعينون بما يحتاجون اليه من ابل نشيطة جديدة وحداة لها في مراحل رحلتهم الاخيرة . فكان الانباط اذاً حلقة هامة في تلك السلسلة التجارية الوثقى التي كانت عاملاً على ازدهار بلاد العرب الجنوبية ورخائها . ولا تزال اقاض البتراء الفخمة الرائعة تجذب اليها العدد الكبير من السياح وهي تعتبر مورداً هاماً من موارد الدخل لحكومة شرق الاردن اليوم .

وكان في البتراء مقام ديني يقصده الحجاج هو شبه بكعبة اعرب تلك البقاع في الجاهلية . وكانوا يعبدون فيه وثنهم دوشرى (دوسارس) ويمثله حجر اسود مستطيل . وكان لهذا المعبود السيادة على جماعة آلهتهم . اما سيدة الالهات عندهم فهي اللات التي اعتبرها هيرودتس^(١) افروديت اورانية بعينها . واصبح دوشرى (ذو الشرى) اله الكرم من بعد . وقد جيء به الى ارض الانباط في الحقبة الهلينية فاكسب صفات ديونيسوس وباخوس الهى الخمر .

وحدث في القرنين الاولين من التاريخ الميلادى تطورات اهمها ان اهل الملاحه



البتراء : الدير

من الرومان عمدوا للسفر بحراً الى الهند . وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب الى منطقة شمالية فاصبحت تدمر مركزه الاوسط بعد أن كانت سيادته وفقاً على البتراء . كذلك فان الخط الشمالى الجنوبي اخذ يسلك سبيلاً الى الشرق يتفق مع خط الحج في العصور الاسلاميه ، ومع خط السكة الحجازية الحالية . وقد تألبت هذه العوامل على الانباط فادت الى تحطيم هيبتهم والقضاء على موقعهم الجغرافى فذهبت دولتهم .

وبعد ان دمر تراجانوس مدينتهم سنة ١٠٥ م لجشعه وقصر نظره انضمت بلاد العرب الصخرية الى ممتلكات الامبراطورية الرومانية وصارت تدعى - اراية بروفينكيا - مقاطعة بلاد العرب . وانقطع منذ ذلك العهد تاريخ البتراء لعدة قرون ^(١) .

٠٢ مملكة ندمر

وتبدلت الحال في آسية الغربية بعد استيلاء الفرثيين على بلاد ما بين النهرين وفتحت خطوط تجارية جديدة بعد القرن الاول للميلاد بحيث تمهدت السبل لقيام مدينة في واحة باواسط بادية الشام لا يزال صيتها منتشراً الى الوقت الحاضر . تلك هي مدينة ندمر (بالميرا) التي تعتبر اطلالها الحالية من افخم الآثار القديمة وان تكن اقلها عناية من قبل الدارسين . ولقد نشأت ندمر بين دولتين متطاحتين دولة الفرثيين ودولة الرومان . فاضطرت الى ضمان الامان لنفسها بتوخي الموازنة بين هاتين الامتين والسعي للانتفاع من حيادها ^(٢) . وجباها مركزها الجغرافي وما فيها من المياه النقية والمعدنية فائدة المحافظة على طريق الاموال المنتقلة بين الشرق والغرب فضلاً عن انها كانت على طريق التجارة بين الجنوب والشمال فاصبحت ملتقى جميع القوافل ويكثر في نقوشها القديمة ذكر عبارة « زعيم القافلة » و « زعيم السوق » باعتبار ان المشار اليه هو من زعماء المواطنين ^(٣) وتبوأ هذه القاعدة الصحراوية طوال القرن الثاني والثالث للميلاد اعلى مراتب الثروة والجاه بين مدائن الشرق . وتدر (وهو اسم سامي) مدينة قديمة العمران فلقد ذكرها تغلث بلاصر الاول (نحو ١١٠٠ ق.م) في رقم باسم « ندمر امورو » ^(٤) . ولقد تركت انقاضها اثرأ

(١) إن ارم الموقع النبطي الذي اكتشف حديثاً على بعد ٢٥ ميلا الى الشرق من العقبة هو ارم المذكورة في القرآن سورة ٦٩ : ٨ .

(٢) Pliny , Bk. V, ch. 21

(٣) Cooke , pp. 274 , 279

(٤) Luckenbill, vol. i, § 287 , 308

عميقاً في نفوس القصاصين العرب بحيث عزوا بناءها الى الجن بأمر من سليمان الحكيم . ولم تعين الاخبار العربية اول عهد استعمار العرب لتدمر فهو سحيق في القدم ، واول اشارة راهنة اليها ترجع الى يوم حاول مركوس انطونيوس سنة ٤٢ - ٤١ ق.م ان يفوز بكنوزها فاففق . وا قدم الرقم التي وجدت في تدمر ترجع لسنة ٩ ق.م حين كانت قد اصبحت مركزاً تجارياً خطيراً بين دولتي الرومان والفرثيين .

والراجح ان تدمر دخلت ضمن النفوذ الروماني في اقدم عصور الامبراطورية لانا نجد قرارات رسمية تتعلق بالمكوس « الكمركية » صادرة سنة ١٧ م ^(١) . وكان خضوع تدمر وملحقاتها لسلطان رومة على عهد أدريانوس (١١٧ - ١٣٨ م) . ولقد جاءها الامبراطور ادريانوس زائراً سنة ١٣٠ فمنحها لقب « ادريانا باميرا » . ثم قام سبتيوس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١ م) فجعل تدمر وملحقاتها مدناً اقليمية في امبراطوريته . وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانية ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي قط بل بقيت تدير شؤونها بنفسها . ولم يكن اعترافها بسلطان رومة الا اعترافاً اسمياً . بيد ان اهلها لذلك العهد اخذوا ينتحلون لانفسهم اسماء رومانية . وقد ادرك الرومان اهمية المدينة من الوجهة الحربية لان طريقهم بين دمشق والفرات تمر بها .

ووصلت تدمر الى اوج عزها بين سنة ١٣٠ و ٢٧٠ والى هذه الحقبة يرجع سواد النصب التذكارية فيها وما عليها من نقوش . وبلغت صلاتها التجارية شرقاً حتى الصين . وباعتبار انها مدينة خلقتها خطوط القوافل ، فقد اصبحت الوارث الحقيقي للبراء .

أذينة وزنوبيا

ولم يسطع نجم التدمريين في الحرب الا عندما استطاع زعيمهم أذينة (٢٦٥م) (أذيناوس، أذينة في العربية) ان يقصي شابور الاول من الشام بعد أن كان

(١) تجد نصوصاً تبين بعض الرسوم على البضائع والأثمان باليونانية والتدمرية في كتاب Cooke, pp.313-332.

هذا الأخير قد اسر الامبراطور فاليريانوس واستولى على جانب كبير من سورية . وقد ظل اذينة في مطاردة شاور حتى اسوار المدائن (تيسفون) عاصمته وسبق لسيد تدمر أن ابلى بلاء حسناً في نزاع عنيف اشتبك فيه الرومان وآل ساسان الذين تبوأوا عرش الفرثيين (٢٢٦ م) . وكان يقاتل مع الرومان ففتحته المشيخة الرومانية سنة ٢٦٢ م لقب « دوكس اورينتس » اي نائب الامبراطور على الشرق مكافأة له على بطولته في حمايتها . ولما ظهر فضل جهاده في ردع شاور اغدقت رومة عليه اسباب الاكرام والتبجيل حتى انعم عليه الامبراطور غاليانوس بلقب امبراطور فخري واقره قائداً لجيوش رومة في الشرق . وبذلك تمت له السيادة على آسية الصغرى والقطر المصري بصورة اسمية فضلاً عن استئثاره بالسلطة الناجزة على ربوع الشام وشمال الجزيرة وربما كانت بلاد ارمينية خاضعة له . وغدت تدمر اذاً سيدة نافذة الأمر على بلدان آسية الغربية . ولم تك قد مضت سنة على تلك العظمة وذيك المجد حتى قتل أذينة وبكره غيلةً في حمص « اماسا » . ولعل رومة ارتابت في ولائه فاوعزت الى بعضهم أن يريحها منه .

وآل الملك من بعده الى زنوبيا (في الارامية بث زبائي وفي العربية الزبباء او زينب) زوجته الجميلة الطموحة فاتبعت سياسة زوجها واشرفت على شؤون الدولة وصيةً على العرش ريثما يبلغ ابنها القاصر سن الرشد وكان اسمه وهب اللات (اي عطية اللات وفي اليونانية اثنودورس) . واتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق وتحدثت رومة نفسها مدة من الزمن . ثم عقدت عزمها ، وكان كعزم الرجال ، على توسيع ارجاء ملكها حتى ضمت مصر وقسمًا كبيراً من آسية الصغرى وخضعت شوكة الرومان فتراجعوا الى انكرا (انقره) وطوحت بجيوشها الى خلكيدون تجاه بيزنطة محاولة احتلال تلك البقعة السحيقة . وفتح جنودها البوasl الاسكندرية ، أهم مدن الامبراطورية بعد العاصمة ، فنودي بابنها القاصر ملكاً على مصر . وضربت المسكوكات خالية من رسم رأس اورليانوس الذي كان ينقش عليها . ويعود

معظم الفضل في انتصاراتها الرائعة الى ذكاء قائديها زباي وزبدا من ابناء تدمر .
 واخيراً اهتم اورليانوس للأمر فجرد جيشه وغلب زبدا في واقعة انطاكية وواقعة
 اخرى بجوار حمص . ثم دخل تدمر ظافراً في ربيع ٢٧٢ وقد فرت ملكتها
 العربية على ذلول سريعة هاربة يائسة في مجاهل الصحراء . ولكن لم تنج من أيدي
 الأمبراطور فحملها اسيرة وامر ان تغل يداها باطواق من ذهب ويسار بها امام مركبته
 عند دخول موكبها الظافر الى رومة . ونمي اليه وهو في طريقه الى رومة خبر نشوب
 الثورة في تدمر فعاد ادراجه اليها وامعن بأسوارها هدماً وتخريباً ودك معظم معالمها الى
 الاساس وقضى عليها . اما حلي هيكل الشمس البديع وذخائره فنقلها الى الهيكل
 الجديد الذي احده برومة واقامه لاله الشمس الشرقي تخليداً لذكرى ذلك النصر المبين .
 اما زنوبيا فلقد خلع الدهر حول هامتها هالة من نور الاساطير وخلد اسمها مضافاً الى
 اسماء الابطال في تقاليد الامة العربية امثال سيف ابن ذي يزن وعنترة وصلاح
 الدين وبيبرس وكلهم حي في الأدب القومي العالمي .

كانت مدينة تدمر مزيجاً غريباً من العناصر اليونانية والسورية والقرثية (الارانية)
 واهمية تلك المدينة لا تقوم على ما فيها من مزايا العظمة فحسب ، بل هي كمدنية
 الأنباط التي تقدمتها تمثل ذرى الثقافة التي باستطاعة العرب من بني البادية ان
 يبلغوها اذا ما تسنت لهم المهيئات . والقول ان التدمريين هم من العرب تثبته
 اسماؤهم العلمية وورود الفاظ عربية جمة في رقهم الارامية . وكانت اللغة التي
 يتكلمونها لهجة من اللهجات الارامية الغربية ليس بينها وبين لغة الانباط والارامية
 المصرية الا بون يسير . اما ديانتهم فقد اتصفت بمزايا النظام الشمسي الذي تركزت
 عليه ديانة عرب الشمال . وكان على رأس الآلهة عندهم شمس (شمس) . ويظهر
 في الرقم النذرية التي خلقوها اسم « بعل شمين » (سيد السماوات) واسماء ما لا يقل
 عن عشرين معبوداً آخر في تدمر .

ومن ينعم النظر في اطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدينة الزاهرة التي كانت

لأهل هذه العاصمة ، ويتبين ان بناء المدينة جاء وفقاً لتصاميم وضعها لها جماعة حذاق مهرة في هندسة البناء . وقد حمل اليها حجارة ضخمة من الغرائث من شلال النيل الاول بمصر من مسافة تزيد على الألف ميل . وكان يحف بشارع المدينة الرئيسي نحو ٧٥٠ عاموداً كورنثياً من الحجر الكلسي الأبيض الوردي ارتفاع كل منها نحو خمسة وخمسين قدماً ، ولا تزال بعض تلك الاعمدة قائمة فيها . وكان اول الشارع



شارع الاعمدة في تدمر

العظيم بقرب قوس النصر الفخم الذي رفعوه الى جانب هيكل معبودهم الاكبر شمس ، ومن ثمة يمتد مسافة ثلاثة ارباع الميل شمالاً . ولا يزال هيكل الشمس هذا اروع اثر لمجد تدمر القديم وكان منذ بضع سنوات مقر البلدة الحالية بأسرها . وهناك ابراج عالية كانت قبوراً وتظهر فيها آثار البذخ والعظمة وتعد فريدة بين آثار العصور القديمة . ونرى في تدمر اليوم آثاراً لأفنية عظيمة تحت الارض وبقايا أحواض لاختزان الماء في ظاهر المدينة مما يدل على ان تلك الارض ، التي تبدو اليوم جرداء مجدبة ، كانت بفضل هذه المنشآت خصبة صالحة للزراعة .

ولم يدم مجد تدمر طويلاً فتحوات التجارة عنها الى خطوط جديدة فظهرت مدينة
بصرى (بسترا) حوران وسواها من عواصم غسان فخلفتها وورثت مكائنها كما ورثت
تدمر من قبل مكانة البتراء .

٣. الفساسة

ارجع بنو غسان انسابهم الى قبيلة قديمة من عرب الجنوب كان يرأسها فيما مضى
عمرو مزريقاء ابن عامر ماء السماء . وقيل انه هجر اليمن في أواخر القرن الثالث
للميلاد عند انفجار سد مأرب واستوطن ارض حوران ^(١) والبقاء . اما مؤسس
دولتهم فجفنة ابن عمرو . ولقد ذكر ابو الفداء في تاريخه ^(٢) لاسرة غسان المالكة
واحداً وثلاثين عاهلاً . غير ان حمزة الاصفهاني ^(٣) جعلهم اثنين وثلاثين ، اما
المسعودي ^(٤) وابن قتيبة ^(٥) فاحد عشر فقط . وانت ترى في اختلاف مؤرخي
العرب على عدد ملوك غسان دليلاً لما يحوط اسرة جفنة من الغموض ^(٦) .

ونزحت هذه القبيلة من اليمن فاحتلت الارض التي كان بنو سليح قد سبقوهم
اليها وشيدوا فيها أول ملك للعرب في الشام ، فاستقر الفساسة في نواحي الجنوب
الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل العظيم الذي كان
يربط مأرب بدمشق . وكرت الاعوام فاذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة
السورية واتخذت الارامية لغة لها . الا انها لم تهجر لسانها العربي الاصيل بل ان
ابناءها اصبحوا كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة . وقبل
انقضاء القرن الخامس للميلاد غشت ارض غسان مؤثرات سياسية ادخلتها ضمن دائرة

(١) هي حوراتو في الاشورية ، وباشان في التوراة واورانيس في آداب اليونان والرومان ، وان جبل
الدروز اليوم داخل ضمن نطاق حوران . قابل ايضاً Luckenbill, vol. i, § § 672, 821

(٢) ج ١ ص ٧٦-٧٧

(٣) مختصر تاريخ البشر ١١٥-٢٢

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٧-٢١

(٥) كتاب المعارف ، نشر وستنفلد ، (غوتنغن ، ١٨٥٠) ص ٣١٤-١٦

(٦) امراء غسان لنولكه ترجمة جوزي وزريق (بيروت ، ١٩٣٣) ص ٤

النفوذ البيزنطي السياسي . وقد قصد الروم بذلك ان يجعلوها حاجزاً لرد هجمات البدو . ولما كان من مصلحة الفساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها ولكن على المذهب المونوفيزي - مذهب اصحاب الطبيعة الواحدة - وهو المذهب الوطني الغالب في البلاد السورية . ولم يكن لهم في مطلع عهدهم عاصمة الا نجح ينتقلون به من ارض الى ارض حتى استقرت بهم الحال فيما بعد في جابية الجولان فاقاموا لهم مركزاً في جلق^(١) استقروا به مدة من الزمن .

الدولة السورية العربية في ايام مجدها

وقد بلغت دولة غسان اوجها خلال القرن السادس للميلاد وهو عصر ازدهار دولة اللخمين قريبتها ومنافستها في الحيرة . ويكاد يقتصر تاريخ العرب في هذا القرن على مآتي الحارث الثاني ابن جبلة ملك غسان (نحو ٥٢٩ - ٦٩) والمنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة (المتوفى ٥٥٤) وقد كان الحارث هذا (ويلقب بالاعرج) اول رجال الاسرة الجفنية الذين يقرهم التاريخ بل هو اعظمهم على الاطلاق ونستطيع التحقق من سيرته اذا قابلنا حوادثها بما ذكرته المصادر الاغريقية . والمعلوم من امره انه فاز على خصمه الاشد المنذر الثالث ملك لخم فكافأه يوستينانوس امبراطور بيزنطة على ذلك وعينه (٥٢٩) على قبائل العرب في سورية وانعم عليه بلقب باتريسيوس - بطريق - ولقب فلاركوس - رئيس قبيلة او شيخها - وهما اعلى المراتب بعد السدة القيصرية ، فلا يفوقها الا رتبة الامبراطور نفسه . ولم تقم العرب للقب الرومي وزناً بل عرفت اميرها ملكاً فحسب .

وقضى الحارث اكثر ايام ملكه يقاتل في سبيل بيزنطة ويدأب على خدمة غاياتها . وفي السنة التي انعمت عليه فيها بيزنطة بالانقباض معولة على التذرع به وبقومه للذود عن حدودها تم له الاشتراك معها في قمع ثورة السامريين . وبعد عشر سنين انقضت على المنذر يحاربه . وفي سنة ٥٤١ حارب الفرس انفسهم الى جانب

الروم تحت قيادة بلساريس . وحوالي ٥٤٤ عاد الاميران العريان الى القتال فوق
احد ابناء الحارث في يد المنذر - الذي كان لا يزال على دينه الوثني - قدمه
ذبيحة للآلهة العزى ، التي كان يقابلها عند الاغريق افروديت . ثم بعد مضي عشر
سنوات فاز الحارث ابن جبلة في معركة حاسمة في ناحية قنسرين قتل فيها خصمه
المنذر فتنت له النعمة . ولعل هذا اليوم الذي انتصر فيه الحارث هو « يوم حليلة »
الشهير في اخبار العرب المنسوب الى حليلة بنت الحارث التي قامت تحض الرجال
على قتال الاعداء واقبلت على مئة منهم كان ابوها قد وجههم الى الحرب تطيب
اجسامهم وتلبسهم الاكفان والدروع ^(١) .

وسافر الحارث الى القسطنطينية لزيارة بلاط يوستينانوس الاول ٥٦٣ . فاعجبت
بطانة القيصر برأى ذلك الشيخ العربي وما عليه من مسحة البداوة . ويقال ان
يوستينانوس ابن اخي القيصر الذي خلفه راعته سيماء الامير العربي وطلعتة الغريبة
حتى اذا ما بلغ من العمر عتياً واصابه الخرف - فيما تقول القصة - كان اهل
خاصته بالبلاط اذا شاؤوا الخلاص من عربدته يخيفونه بالحارث قائلين « صه ! هوذا
الحارث جاء ليأخذك ! » فلا يكاد يسمع كلامهم حتى تأخذه سورة من القزع
فيسكت . واغتنم الحارث فرصة مكثه في القسطنطينية فعمل على تعيين يعقوب
البردعي ^(٢) وهو مطران الرها واحد انصار البدعة المونوفيزية المعروفين باصحاب الطبيعة
الواحدة اسقفاً على الكنيسة السورية العربية . وبلغ من غيرة هذا الاسقف وحميته
في بث اصول ديانته ان صارت الكنيسة المونوفيزية بعده تعرف بكنيسة اليعاقبة .

المنذر ابن الحارث

وخلف الحارث ابنه المنذر . فما كاد يستتب له الأمر حتى هب لمحاربة قابوس
ابن هند ملك الحيرة الذي كان قد اغار على اراضي الغساسنة من قبل ، فدحره في

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٤ - ١٥ ؛ وقابل ابا الفداء ج ١ ص ٨٤

(٢) بردعانا في السريانية اي لابس البدعة لانه كان يرتدي الملابس الخشنة .

وقعة تغنى بها الشعراء فيما بعد وتعرف بمعركة عين أباغ . وحذا المنذر حذو ابيه فأخذ بناصر البدعة المونوفيزية فاحقق عليه بيزنطة موقتاً . وأنبرى الغساسنة الى شق عصا الطاعة واعلان الثورة طيلة ثلاث سنوات فارغموا الروم على استرضاء الامير الجفني . وتم الاتفاق فعقد الصلح بين بيزنطة والحارث (نحو ٥٧٥) في الرصافة ^(١) عند قبر القديس سرجيوس . وسنة ٥٨٠ وصل المنذر مع ابنين له الى القسطنطينية فاحتفى به طيباريوس الثاني واعلى مقامه فانعم عليه بـ « التاج » الابهى عوضاً عن « الاكليل » البهي الذي كان يتقلده . وفي تلك السنة اغار المنذر على الحيرة واباد بالنار عاصمة اعدائه اللخمين . غير ان الفوز الذي تكلم به جبين الامير العربي في هذه الغزوة لم يمح ريبة الروم في ولائه فقاموا يلصقون به ما الصقوا بابه من اخيانة لدولتهم ، حتى اذا حضر تدشين احدى الكنائس في حواريين قرب القريتين بين دمشق وتدمر القي القبض عليه وارسل مخفوراً الى القسطنطينية ونفي منها الى صقلية . اما ابنه وخلفه النعمان الذي شن الغارة على بيزنطة وعاث فساداً في اراضيها فان الروم قبضت عليه واخذته اسيراً الى القسطنطينية .

زوال دولة غسان

وغمرت امواج الفوضى بلاد غسان عقب عصر المنذر والنعمان وتكسكت عرى الوحدة في بادية الشام فاختارت كل قبيلة اميراً . وما ان طغا كسرى ابرويز من آل ساسان على الشام واستولى على بيت المقدس ودمشق (٦١٣ - ١٤) حتى ضاعت بقية الأمل في انتعاش الاسرة الجفنية . ولسنا نعلم أ أعاد هرقل الامارة السورية العربية يوم زحف على الشام فاسترجعها (٦٢٩) ام لا . ويعتبر مؤرخو العرب جبلة ابن الايهم آخر ملوك غسان . وقد شارك جبلة الروم في قتال العرب في وقعة اليرموك . ولكنه ما لبث ان اسلم في ايام الخليفة عمر وقدم الى مكة حاجباً بعد

(١) سميت رصافة الشام من بعد للتمييز بينها وبين رصافات العراق . ثم اعاد الخليفة هشام ابن عبد الملك رصفها فسميت برصافة هشام .

استئذان عمر ابن الخطاب ، فسر بذلك عمر والمسلمون . وبينما هو يطوف بالبيت الحرام اذ وطيء ازاره - كما يحكى - اعرابي من بني فزارة فجله ، فلطمه جبلة وهشم أنفه . فرفع الاعرابي امره الى الخليفة فبعث اليه عمر ان يرضي الاعرابي والا اقاذه منه . فلما دنا جنح الليل خرج هو واصحابه فلم يثرب حتى دخل القسطنطينية ^(١)

ولا ريب ان الغساسنة ، وهم جيران البيزنطيين ، كانوا ارقى ثقافة من مناظرهم اللخمين المقيمين على تخوم فارس . ولقد نشأت في عهدهم وفي اوائل الحقبة الرومانية مدنية خاصة بهم ازدهرت على طول الشقة الشرقية من سورية ، وهي خليط من عناصر عربية وسورية واغريقية . وكان مهندسو الرومان في فجر القرون الميلادية قد استغلوا سيول الماء المتدفق من اعالي حوران وجبالها في امور الزراعة . ويبلغ ارتفاع هذه الجبال ٦٠٣٢ قدماً . وكان سقوط المطر فيها عظيماً . اما الفضاء الذي نراه اليوم قفراً موحشاً فقد كان في زمن غسان عامراً بالقرى والساكن وفيها المنازل التي شيدت من الرخام الاسود والقصور واقواس النصر والحمامات العمومية والاقنية الارضية والمسارح والبيع . ولا تزال انتقاض قصورهم ظاهرة في بصرى وفي انحاء الشرق والجنوب من جبال حوران وهناك آثار لزهراء ثلاث مئة بلدة وقرية حيث لا نرى اليوم الا القليل من القرى العامة .

ووفد بعض شعراء الجاهلية الى امراء غسان فاحسن هؤلاء وفادتهم وبالغوا في اكرامهم منهم لبيد احدث اصحاب المعلقات السبع سناً ، ولقد قاتل الى جانب غسان في يوم حليلة ، والنابعة الذياني شاعر البلاط عند المناذرة فانه لما انقلب عليه النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لجأ الى الغساسنة فرحب به ابناء الحارث وطاب مشواه في بلاطهم . ومن لحق بالغساسنة شاعر يثرب (المدينة) حسان ابن ثابت وزعم انه كان يمت اليهم بنسب وقد وفد الى بلاطهم في حداثة سنه قبل ان يصبح شاعر النبي محمد ، وأشاد في شعره بما كانوا عليه من البذخ والرخاء . ونسبت اليه رواية

لا يوثق بصدقها ^(١) تشرح ما اتصف به مجلس جبلة من الغنى والبهجة والترف وقد غنت فيه قيان ومغنون من مكة والحيرة وبلاد الروم وجلس القوم للشرب والطرب ^(٢) .

٤ . دور الخمر

كان العرب منذ اقدم الازمان يفتدون الى تخوم الجزيرة الشرقية حتى اذا ما وصلوا وادي الفرات اقاموا في ربوعه . وفي اوائل القرن الثالث للميلاد بدت طلائع جديدة منهم من قبائل تنوخ وترجع انسابها الى اصل يمني ، فاتخذت لها مساكن في المنطقة الحصينة الواقعة الى الغرب من الفرات . وليس غريباً ان يكون قدومهم قد وافق فترة الاضطراب التي تلت سقوط الدولة الارساسية من اسرة الفرثيين وتأسيس الاسرة الساسانية (٢٢٦) بقيادة ارد اشير بابكان (٢٢٦ - ٤١ م) .

وسكنت تنوخ لاول عهدها الخيام ومضت الاعوام فاذا الخيم يصبح قاعدة راهنة تعرف بالحيرة (من السريانية حرتا اي خيم) على بعد نحو ثلاثة اميال جنوباً من الكوفة وهي ليست ببعيدة من بابل القديمة . ثم اصبحت الحيرة عاصمة بلاد العرب الفارسية .

واخترقت السواقي والترع ارض الحيرة فازدانت سهولها بحقول الحبوب وحدائق النخيل . وكان هواؤها من الطيب والجودة بحيث قال العرب في وصفها « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين » .

وكان سكان الحيرة الاصليون نصارى من اتباع الكنيسة السريانية (السورية الشرقية) وسميت النسطورية فيما بعد) . ويسمى مصنفو العرب العباد (اي عباد عيسى) . ونقل عن هشام ابن محمد الكلبي ^(٣) (المتوفى ٨١٩ او ٨٢١ م)

(١) ابو الفرج الاصبهاني ، الاغانى ، (بولاق ، ١٢٨٤ - ٥) ج ١٦ ص ١٥

(٢) وفي لبنان الجنوبي اليوم أسر ترجع أنسابها الى الفساسنة .

(٣) الخطري ، تاريخ ، ج ١ ص ٧٧٠

وهو من أجلّ الثقات باحوال عرب الجاهلية انه كان يذهب الى بيع الحيرة وفيها ملكهم وامورهم كلها يستخرج منها اخبار العرب وانساب قبائلهم التي نزلت العراق . وقد تنصر بعض التتوخيين فيما بعد واقاموا في شمال سورية ^(١) .

وفي كتب الاخبار ان مالكا بن فهم الازدي ^(٢) كان اول من ولي الامر في هذه الجالية العربية بالعراق . اما ابنه جذيمة الابرش فكان عاملاً لارداشير ^(٣) ، ملك الفرس . ومما يحكى ان جذيمة اراد الزواج بالزباء (واسمها نائلة) بنت عمرو ابن ظرب ابن حسان ابن أذينة وهي أخت زبيبة ^(٤) بعد ان قتل اباه . ولا ريب في ان هذه السيدة هي زنوبيا ملكة تدمر . ويقال ان جذيمة اسس امارة سبقت دولة نخم وضمت الانبار والحيرة . على ان المؤسس الحقيقي لدولة نخم هو عمرو ابن عدي ابن نصر ابن ربيعة ابن نخم وهو ابن اخت جذيمة التي كانت قد تزوجت من مولى لجذيمة . وعمرو ابن عدي اول من استوطن الحيرة من ملوك العرب فاصبحت عاصمة ملكه .

واستتب الملك للأسرة النصرية اللخمية في أواخر القرن الثالث للميلاد فكان ذلك مفتتح التاريخ الجلي لتلك البلاد العربية . اما ملوك نخم الذين اتصلت بنا اسماؤهم فيزيدون عن العشرين . ولكن اول ملك لدينا صورة واضحة عن شخصيته هو امرؤ القيس ^(٥) الاول (المتوفى ٣٢٨ م) الذي وجد العالم دوسو كتابة على ضريحه في النمارة بالصفا (حوران) هي اقدم كتابة بالخط العربي الاول . وتشف احرف هذه الرقم عن اصلها المأخوذة عنه وهو احرف الكتابة النبطية ، وتم على

(١) اما التتوخيون الذين ترحوا الى لبنان الجنوبي بعدئذ فقد اعتنقوا الديانة الدرزية ، وهم يرجعون انسابهم الى ملوك نخم بالحيرة . قابل Hitti, *The Origins of the Druze People and Religion* (New York, 1928) , p. 21.

(٢) ان قبليتي ازد وتنوخ توحدتا فتكونت منهما قبيلة واحدة في العراق .

(٣) قام ارداشير فقهر آخر ملوك الفريثيين ثم قتله واصبح سنة ٢٢٦ م مؤسس الاسرة الساسانية في بلاد الفرس .

(٤) راجع الطبري ، تاريخ ، ج ١ ص ٧٥٦-٧ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٦-١٧

(٥) هو غير امرئ القيس الشاعر الكندي .

طور الانتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة الى الآن وأخص مزايا هذا الانتقال نشوء طريقة تعليق الحروف بعضها ببعض . واليك مطلع الرقيم الذي نحن بصددّه : « تي نفس مر القيس بر ملك العرب كله ذو اسر التاج » اي [هذا ضريح امرىء القيس ملك كل العرب صاحب التاج] ^(١) .

وكان من ذرية امرىء القيس هذا النعمان الاول الملقب بالاعور (نحو ٤٠٠ - ٤١٨) . وقد ذكرته اشعار العرب واخبارهم بكثير من المديح . قيل انه بنى قصر الخورنق ^(٢) بظاهر الحيرة منزلاً لبهرام كور ابن يزدجرد الاول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) ملك الفرس . وكان يزدجرد قد ارسل بكره هذا بهرام الى عرب الحيرة لينشأ بينهم ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء . ويعد الخورنق من معجزات الفن وبدائعه . وقد نسب مؤرخو الاسلام بناءه الى مهندس رومي يسمى سنمار كتب له ان يموت ميتة شنعاء معهودة في شتى الاساطير التي تجعل ولي الأمر يقتل الصانع ، وهي فكرة مبنية على أن البناية الفنية الخالدة لا يمكن ان يبني مثلها احد غير بانيها . وفي الاساطير ان النعمان جلس يوماً في مجلسه وكان الفصل ربيعاً يلقي على الطبيعة حلة من الخيال فاستغرق في تأمله وانبعث الجمال حوله ينطق الكائنات سحراً فأخذته روعة من المهابة وتجلت له حقارة حطام الدنيا وادرك انها زائلة لا محالة بما فيها قصره الفخم ، فزهّد في الدنيا وعكف على اعمال البر والتقوى فأنقلب سائحاً متزهداً . هذه هي القصة اما الواقع من امر النعمان فهو انه ظل طوال حياته وثنياً وسوّلاً له تعصبه للاصنام الاستثارة ببعض النصارى من رعيته وصرفه العرب عن زيارة القديس سمعان العمودي . الا ان تحامله على النصرانية تلاشى في القسم الاخير من عمره . اما سمعان المذكور فقد كان عربياً تتوافد جموع البادية لمشاهدته وهو يتزهّد جالساً في اعلى عموده . ويعزّون السر في عدول النعمان عن النعمة عليه الى ان سمعان نفسه ظهر له في حلم . ولقد اقترن ذكر الخورنق في

(١) Dussaud, *Les Arabes en Syrie*, pp. 34-5

(٢) لفظة فارسية معناها حصن منيع .

اشعار العرب بذكر السدير وهو قصر في وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام^(١) وينسب قصر السدير الى النعمان ايضاً . وما السدير وسواه من حيرات اللخمين اليوم الا اسماء حفظها الناس عن اسلافهم مجهولة اماكنها اللهم الا الخورتق .

الحيرة في زروة زهورها

ولقد ازدهرت الحيرة في ايام المنذر الاول (نحو ٤١٨ - ٦٢ م) وهو ابن النعمان وخليفته ، ونالت منزلة في شؤون ذلك العصر . وبلغت مهابة المنذر درجة امكنته من حمل كهنة الفرس على تتويج بهرام الذي كان والد المنذر يرعاه ويشرف على تربيته كما اسلفنا القول فاذعنوا لاشارته غير عابئين بمساعي مدع آخر قوي كان يطلب العرش . وخرج المنذر سنة ٤٢١ بمعية سيده ملك ساسان لقتال البيزنطيين .

وجلس على عرش الحيرة في النصف الاول من القرن السادس المنذر الثالث (نحو ٥٠٥ - ٥٤ م) . وهو المعروف بابن ماء السماء وماء السماء لقب امه مارية او ماوية . وكان عهده اسطع عهود الدولة اللخمية بالرغم من البلايا والحن التي تناوبته في مطلع ملكه وآخره . ولم يمض على تسلمه الولاية الا زمن قصير حتى حمل الحارث ابن عمرو ملك كندة على نواحي الفرات الجنوبية وضاعت الحيرة ذرعاً بذلك العدو الطامع الذي ارغم المنذر على الجلاء عن عاصمته ، الا انه عاد اليها من بعد وذلك قبل استواء انوشروان على العرش (٥٣١) بما يقارب الحولين . واقبل المنذر على محاربة الروم في سورية فقهرهم وواقع بهم وابستبع الغارة تلو الغارة على مدائنهم الى حدود انطاكية فعم الارض الدمار الى ان نشط الفساسنة الى محاربته فكان الحارث ابن جبلة عامل يوستينيانوس خصماً كفواً له . والمنذر هذا هو الذي اسر احد ابناء الحارث فقدمه ذبيحة للعزى . ويقال انه قدم اربع مئة راهبة نصرانية ذبيحة لتلك الالهة نفسها . ثم قلب له ظهر الحن فقتل في يوم حليلة

سنة ٥٥٤ كما اسلفنا . وفي كتاب الاغاني ^(١) قصة ممتعة جاء فيها ان المنذر ابن ماء السماء نادى رجلا فاعضاه في بعض المنطق فامر بان يحفر لكل واحد حفرة بظاهر الحيرة ثم يجعل في تابوتين ويدفنا في الحفرتين . فلما اصبح سأل عنها فاجاب بهلاكهما فندم على ما فعل وامر ببناء الغريين عليها وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيها عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيمه والآخر يوم بؤسه ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الأبل وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويرش بدمه الغريان . ثم ان عبيد ابن الابرص كان اول من اشرف عليه في يوم بؤسه وهو من الشعراء المجيدين فلم ينج من الموت . وطال الامر بالمنذر وهو على هذا العهد حتى مرّ به رجل من طيء اسمه حنظلة ابن غفراء في يوم بؤسه . فاطلقه المنذر بكفالة شريك ابن عمرو على ان يعود بعد سنة . ولما آن الأوان جلس المنذر ينتظر حنظلة فابطأ عليه فامر بشريك ليقتله ، فلم يشعر الا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فاذا هو حنظلة قد اقبل متكفناً متحنطاً معه نادبته . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فاطلقهما وابطل تلك السنة .

وخلفه ابنه عمرو ابن هند (٥٥٤ - ٦٩ م) فكان فخوراً عاتياً وجعل الحيرة موئلاً للادباء والشعراء فامّ مجلسه اعظم الشعراء المعاصرين مثل طرفة ابن العبد والحارث ابن حلزة وعمرو ابن كلثوم (وهم من اصحاب المعلقة السبع) . ولقد نسج عمرو على منوال سواه من ملوك لخم وجفنة الذين ادركوا ان الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين العرب يديرون دفة الدعاية كيف شاءوا ، فلم يأل جهداً في اكرامهم وغمرهم بفضله كما فعل سواه من الملوك طمعاً في اجتذاب العرب اليه . الا ان عمراً مات مقتولاً والسبب في قتله فيما يروى ان ابن كلثوم ، احد امراء الشعر الذين اموا بلاطه ، غضب يوم دخلت امه لى ابنة المهمل على الملكة فلحقها من المهانة ما لم تطقه نفسه فوثب الى سيف معلق في الرواق وضرب به راس

(١) ج ١٩ ، ص ٨٦-٨٧ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٩ ؛ الاصفهاني ، تاريخ ، ص ١١١ حيث جعل الزمان الثالث ابو قابوس بطل القصة .

الملك . وكان الاخطل شاعر الامويين متحدرًا من قبيلة تغلب التي انتسب اليها عمرو ابن كلثوم قفاخر بعميه قائلاً :

أبني كليب ان عمي اللذا قتل الملوك وفككا الاغلالا ^(١)

نصر الاسرة المالكة

كانت هند ام عمرو اميرة نصرانية غسانية . وقال بعضهم انها بنت الحارث ابن عمرو ابن حجر آكل المرار الكندي . وبنت في الحيرة ديراً يعرف بدير هند بقي الى القرن الثاني الهجري ^(٢) . ولقد اورد ياقوت ^(٣) الكتابة التي كانت على واجهة الدير جاء فيها « بنت هذه البيعة هند ... امة المسيح وام عبده [عمرو] وبنت عبيده » .

وفي اهل الحيرة آتئذ عدد من النصارى يثبت ذلك كثرة الاشارات الى اساقفة الحيرة . واقدم من وصلنا خبره منهم اسقف عاش نحو سنة ٤١٠ .

وسقطت الاسرة اللخمية على عهد النعمان ^(٤) الثالث الملقب بابي قابوس (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢) وهو ابن المنذر الرابع . ولقد نشأ النعمان في حجر عائلة نصرانية ذات حسب ونسب أحد افرادها عديّ ابن زيد الذي اصبح شاعراً كبيراً من بعد . فكان والد عديّ يتعهد شؤون الامير في صغره وبعد اعوام تطرق الى قلب عديّ هوى هند ابنة النعمان ولها من العمر احدى عشرة سنة . وقد رآها مرة في البيعة واخبرها وما لبث ان تزوجها ^(٥) . وبعدئذ اصاب عديّ منصباً سامياً عند خسرو

(١) ديوان الاخطل ، نشر صالحاني (بيروت ، ١٨٩١) ص ٤٤

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ص ١٨٨٢ ، ١٩٠٣

(٣) بلدان ، ج ٢ ص ٧٠٩

(٤) وذكره خالد - على ما في الاساطير - في زهر شقائق النعمان ، ويقال ان النعمان احتكر زراعته فلم يعرف الا في حديثه الملكية . ولكن هناك اسطورة اقدم عهداً من النعمان تجعل الاله ادونيس (تنوز) ينقلب زهرة من شقائق النعمان حين خرج للصيد وهاجه خنزير بري فانفذ نابه في جسده وقتله . ولا يزال الاله ادونيس يعرف بهذا اللقب الى يومنا الحاضر .

(٥) الاغانى ، ج ٢ ص ٢٢ و٣٢

ابرويز فاذا به ترجمانه وكتبه بالعربية . فلم ينس عديّ . صديقه الأمير النعمان بل اشار على ابرويز ملك الفرس ان يوليه عرش الحيرة فاجابه كسرى الى ما طلب الا ان النعمان لم يبر به ولم يكافئه خيراً بل ما زال يحمل على عديّ حتى حبسه ثم أمر بقتله . ولكن لم يطل امر النعمان حتى كاد له زيد ابن عديّ الذي كان قد توصل الى ابرويز وحل محل أبيه واراد أن ينتقم من النعمان فوشاه الى ابرويز فاتقاه تحت ارجل القيلة فوطته حتى مات ^(١) . وكان النعمان من ممدوحى الشاعر المشهور النابغة اذبياني قبل ان يطرد هذا من الحيرة بتهمة كاذبة . فلقد نشأ النعمان اذاً في بيت نصراني ، واتخذ النصرانية ديناً واصبح الملك النصراني الوحيد من ملوك نخم . ولم يدخل احد من الاسرة اللخمية في حظيرة هذا الدين من قبل لما قضت به مصالحتهم السياسية من مراضاة الفرس عبدة الاوثان . الا ان النعمان انحرف في سلك الكنيسة السورية الشرقية (النسطورية ^(٢)) وتقبل معموديتها ، وهي اقل كنائس النصرانية كراهية عند الفرس .

لم تصل المدنية العربية في الحيرة وهي مواجهة لفارس الى الدرجة العالية التي وصلت اليها المدنات العربية في البتراء وتدمر وبلاد غسان تحت تأثير المدنية السورية البيزنطية ، وكانت لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يرطنون بها في معاملاتهم العادية ولكنهم استعملوا السريانية في مكاتباتهم . فشأنهم اذاً شأن الانباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية . وقام النصراني من سكان جنوبي القرات بدور المعلمين للعرب الوثنيين يعلمونهم القراءة والكتابة والدين . ومن الحيرة سارت الى الجزيرة نفسها مؤثرات الحضارة . ويقول البعض ان الكنيسة

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ٣١٩

(٢) رفض النسطرة الرأي القائل باتحاد طبعي السيد المسيح في شخص واحد وذهبوا الى انه ذو شخصيتين متميزتين تماماً تجمعها روابط الالفة الوثيقة . وتسمى النسطرة باسمهم نسبة الى نسطوريوس مطران القسطنطينية

٤٢٨-٣١٠ م .

السورية في الحيرة يرجع اليها الفضل في ادخال النصرانية الى نجران . وفي الاخبار التي حفظها ابن رسته ^(١) ان قريشاً انما اخذت الكتابة من الحيرة واخذت الزندقة ^(٢) من الحيرة ايضاً . ويتضح لنا من ذلك ان مؤثرات الثقافة الفارسية سرت الى الجزيرة ايضاً بواسطة المملكة اللخمية .

وضاعت صولة لخم بعد النعمان ولما ملك اياس ابن قبيصة من بني طيء (٦٠٢ - ١١) كان الى جانبه « مقيم » فارسي يشرف على مهام الحكومة . والواقع ان ملوك فارس الغوا نظام الامارة العربية وولوا من قبلهم حكاماً فرساً يخضع لهم زعماء العرب . وعلى هذا المنوال استمر الحال حتى سنة ٦٣٣ م حين استسلمت الحيرة ^(٣) للجيش الاسلامي الذي كان يقوده خالد ابن الوليد .

٥٠ كندة

وكما كان الفساسنة عمالاً للبيزنطيين واللخميون عمالاً للفرس ، كذلك كان ملوك كندة في اواسط الجزيرة عمالاً لتبابعة اليمن المتأخرين . ولم تعرف الجزيرة حكاماً سواهم نودي احدهم بلقب ملك . فقد جرى العرب عادة على اطلاق هذا اللقب على الملوك الاجانب .

ومع ان كندة هي من عرب الجنوب ، وكانت تقيم قبل الاسلام في الأرض الواقعة الى غربي حضرموت ، فانا لا نجد لها ذكراً في الرقم العربية الجنوبية الاولى واول ذكر لها في التاريخ انما جاء في القرن الرابع للميلاد . اما باني مجد اسرتها المالكة فهو حجر ويلقب بآكل المرار ^(٤) . ولقد روت الاخبار انه رضيع حسان

(١) الاعلاق النفيسة ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٢) ص ١٩٢ و ٢١٧ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ،

ص ٢٧٣ - ٤

(٢) زندقة في العربية مأخوذة من زنديك الفارسية - مجوسي عابد نار .

(٣) لا ترى اليوم حيث كانت الحيرة سوى بضع تلال منخفضة .

(٤) المرار عشب يعرف ايضاً بالمربر اذا اكلته الابل قلصت مشاقرها فبدت اسنانها ولذلك قيل لحجر آكل المرار لكشر كان به .

ابن تبّع الحميري وان هذا الاخير عينه حاكماً على بعض القبائل التي قهرها (٤٨٠ م) تبّع في اواسط الجزيرة ^(١) وخلفه في هذه الزعامة ابنه عمرو . وكان له ابن هو الحارث اصبح من بعد اشد ملوك كندة بسالة واقداماً . فتوسل بعد موت ملك الفرس ، قباد ، بمدة يسيرة الى ان يقيم نفسه ملكاً على عرش الحيرة (نحو ٥٢٩ وظل على حاله الى قيام المنذر الثالث من امراء لحم . وفنك هذا بالحارث سنة ٥٢٩ وعبث بافراد الاسرة المالكة فافنى منهم خمسين نفساً وكانت ضربة قاضية على كندة ولعل الحارث اقام في الانبار ، وهي مدينة على الفرات تبعد اربعين ميلاً الى الشمال الغربي من بغداد .

وقام الخلاف بين ابناء الحارث وكان كل منهم يتزعم قبيلة فادى هذا الخلاف الى انحلال وحدة كندة وتلاشي الدولة الفتية . اما الباقيون من ابناء كندة فرجعوا الى منازلهم بحضرموت . وبهم انقرضت معالم دولة نشطت الى مناظرة الحيرة فكانت هي وغسان الدولتين اللتين نازعتا الحيرة البقاء . وتكوّن من الثلاثة مجموعة دولية كانت تتطاحن وتنافس على الزعامة بين عرب الشمال . اما الشاعر امرؤ القيس ، احد اصحاب المعلقات ، فينتسب الى الاسرة الكندية الملكية . ولقد حاول استرجاع جانب من ميراثه الضائع فذهبت محاولاته ادراج الرياح . واشعاره مليئة بالحقد والبغضة لبني لحم . ثم انه قصد قيصر الروم يوستينيانوس في القسطنطينية أملاً ان يظفر بعطفه وعونه وهو معروف بعدائه للحيرة . واثناء عودته - على ما روته الاخبار - مات مسموماً (نحو ٤٥٠) عند انكرا (انقره) . وقيل ان يوستينيانوس وجه الى امرئ القيس بحلة قد نضح فيها السم فلما لبسها تقطع جلده فمات ^(٢) .

ولقد نبغ في صدر الاسلام عدد من ابناء كندة فيهم النبي الكذاب المعروف باسم المقنّع الذي ظهر في خراسان والزعيم الحضرمي الاشعث ابن قيس الذي اشتهر في

(١) الاصفهاني ، تاريخ ، ص ١٤٠ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٠٨

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، نشر هوتسا (ليندن ، ١٨٨٣) ، ج ١ ص ٢٥١

فتوح الشام والعراق ومن ذريته من خدم الامويين فتولى رفيع المناصب في الدولة .
اما الفيلسوف الذائع الصيت يعقوب ابن اسحاق الكندي فليس من كندة بل
من مواليتها .

ولا تنحصر اهمية كندة فيما اتى به ابناؤها من الاعمال وما حازوه من مجد
وسؤدد بل بما لها من الفخار العائد الى كونها تمثل اول محاولة قام بها عرب الجزيرة
الوسطى لجمع شمل القبائل تحت زعامة واحدة مركزية يتولاها سيد واحد . فكانت
محاولتها من هذه الناحية سابقةً افاد منها اهل الحجاز والنبي محمد .

الفصل السابع

أعجاز عشية ظهور الإسلام

يقع تاريخ العرب حسب تقسيمه العمومي في ادوار رئيسية ثلاثة :

- ١ . دور سبأ وحير وينتهي في اول القرن السادس للميلاد .
- ٢ . دور الجاهلية وهو وان شمل عصور التاريخ باسرها من « خلق آدم » الى الرسالة المحمدية فانه بالمعنى الاخص يتناول القرن السابق لظهور الدعوة الاسلامية .
- ٣ . دور الاسلام ويمتد الى الوقت الحاضر .

العصر الجاهلي

ذهب اكثر الباحثين الى القول بان الجاهلية ^(١) هي « عصر الجهل والهمجية » بيد ان الحقيقة خلاف ذلك . فالجاهلية في المعنى الصحيح هي ذلك العصر الذي لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع ، ولا نبي ملهم ولا كتاب منزل . فمن الخطأ ان نصف بالجهل والهمجية هيئة اجتماعية امتازت بما امتاز به عرب الجنوب من ثقافة وحضارة قطعت في ميدان التجارة والاشغال شوطاً بعيداً وذلك قبل الاسلام بقرون متطاولة . وقد وردت لفظة الجاهلية عدة مرات في القرآن (سورة آل عمران : ١٤٨ ، المائدة : ٥٥ ، الاحزاب : ٢٣ ، الحجرات : ٢٦) .

ولما كان النبي محمد شديد الرغبة في ان ينزع من عقول شعبه الآراء الدينية لعصر ما قبل الاسلام ، وخاصة الشرك والوثنية ، فانه لتعلقه الشديد بمبدأ التوحيد أعلن ان الدين الجديد يمحو كل ما كان قبله . فحسب المفسرون ذلك ايعازاً لحو

(١) راجع بحثاً في الجاهلية لأحمد امين ، فجر الاسلام ، (القاهرة ، ١٩٢٨) ص ١-٥٨

كل ما تحذر اليهم عن العصور الماضية من آراء وافكار . ولكن انى لهم ذلك ؟ ان للفكر حياة مستمرة لا يستطيع الانسان ان يمتيتها تماماً . وليس في مقدر شخص واحد مهما كان قوياً ان ينقض الماضي بكلمة واحدة .

يختلف السواد الاعظم من سكان شمالي الجزيرة بما في ذلك نجد والحجاز عن عرب الجنوب في انهم اهل بدواة . وتاريخ البدو في غالبه سجل للغارات والمناوشات المعروفة بايام العرب . وكان يكثر في هذه الايام الغزو والنهب ولكن لم يسفك فيها كثير من الدماء . ولسنا نعرف لمتحضري الحجاز ونجد ثقافة قديمة ، فلم يساهموا في شيء من المدنية التي اقامها جيرانهم واقرباؤهم الانباط والتدمريون والفساسنة والخميون . وكان الانباط ، والى حد اكبر اهل تدمر ، قد اصطبغوا بصبغة التمدن الآرامي . وكان الفساسنة والخميون الذين نزحوا من الجنوب قد استعمروا ارضاً غمرتهم فيها الحضارة السورية البيزنطية والحضارة السورية الفارسية . اذاً فدراستنا للجاهلية ستنحصر في العرض للوقائع التي خاضت غمارها قبائل البدو الشمالية في القرن السابق للهجرة وتتبع مجاري الثقافة الاجنبية التي تسربت الى مواطن الحضارة في الحجاز عشية ظهور الاسلام .

ليس للباحث في ظلمات الجاهلية الا نور ضئيل من الحقائق المثبوتة يهتدي به . والمصادر التي نتوخاها في دراسة هذه الحقبة التي لم يك لعرب الشمال فيها لغة مكتوبة مقصورة على الروايات والاساطير والامثال وفوق ذلك على الاشعار . ولم يدون من هذه الآثار شيء قبل القرن الثاني او الثالث من العهد الهجري - اي بعد انقضاء ما بين مئتين واربع مئة سنة على الحوادث التي عرضت لذكرها . غير ان لهذه المعلومات قيمة وشاناً لا يطعن فيها اصطبغها بصبغة التقاليد والاساطير لان ما تعتقده امة صواباً وان كان خطأه في نفوس ابنائها التأثير نفسه الذي ينجم عن الاعتقاد بما هو حقاً صواب . ولم تنشأ عند عرب الشمال طريقة للكتابة الا في العهد القريب من عصر محمد . ولم يعثر المنقبون على شيء من آثار الجاهلية (باستثناء

نقش امرى القيس في النمارة ٣٢٨ م وهو في لغة عربية نموذجية (الا على نقش زبد في الجنوب الشرقي من حلب (٥١٢ م) ونقش حران في اللجا (٥٦٨ م) .

وتقدم القول بان لفظة « العرب » تتضمن بمعناها الواسع سكان الجزيرة على الاطلاق ، اما معناها الخاص فمقصود على عرب الشمال الذين لم يظهروا في الشؤون الدولية حتى عصور الاسلام . وكذلك « اللغة العربية » فانها تدل بمعناها الواسع على لغة سبأ ولغة الحجاز الشمالية . ولكن عندما اصبحت لغة الحجاز لغة الاسلام وخلفت لهجات الجنوب في اليمن غدت اللغة العربية الفصحى بلا نزاع . وعلى ذلك فاننا سنخص فيما سيتلو من بحثنا بلفظة « العرب » اهل الشمال ، وباللغة العربية لغة القرآن .

ايام العرب

كانت ايام العرب مناوشات قبلية تنشأ في الغالب بين القبائل بسبب النزاع على الماشية او المراعي او المياه . وكانت تتوفر فيها فرص للغزو والنهب واظهار أعمال البطولة الفردية والفروسية التي كان يبيدها زعماء القبائل المتخاصمة وما يصحب ذلك من قاذع الهجاء الذي كان يترامى به الشعراء ، لسان حال الفرق المتحاربة . ومهما يكن في سجية البدوي من الاستعداد والميل للقتال فانه لم يكن راغباً في الموت . فغمرات الوغى التي خاضها ابطال الجاهلية لم تكن تجري الدماء فيها بغزارة كما اوهمتنا الاخبار . غير ان هذه الايام كانت في الوقت نفسه منفذاً تتخلص به البلاد احياناً من شر ازدحام السكان . وكان هؤلاء السكان عموماً في حالة من العدم اشبه بالجماعة . وكان حب القتال فيهم داءاً متأصلاً مزمناً . وبفضل هذه الايام اصبح الثأر من اقوى الانظمة الدينية الاجتماعية في حياة البدو .

ويؤخذ مما وصلنا من الاخبار ان ايام العرب هذه كانت تتشابه بما وقع فيها من حوادث . ففي اول الأمر يحتدم النزاع بين بضعة رجال على أثر خلاف على

الحدود او اهانة لحقت أحد الفريقين ، فما تلبث خصومة الافراد حتى تستحيل الى نزاع عام بين الجماعتين وتلتظي نار الحرب مراراً بين المتناوئين الى ان يخمدها توسط قبيلة محايدة فيوضع السلم في نصابه . ولتسوية الخلاف يدفع من كانوا اقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . اما ذكرى النزاع فلا تموت بانتفاء المعامع بل تبقى بسالة الابطال في مخيلة القوم على مر الايام والاجيال .

كذلك كان يوم بعث ^(١) الذي اشتبكت فيه الأوس والخزرج من قبائل المدينة وهما مرتبطتان باواصر القربى ، ووقعت معاركه الدامية قبيل هجرة النبي وصحبه الى يثرب بسنين قليلة . اما يوم الفجار الذي عرف بذلك الاسم لوقوعه في الاشهر الحرم فلقد جرت وقائعه بين قريش واحلافهم من بني كنانة في جانب والهوازن في الجانب الآخر . واستمرت هذه الحرب ومحمد فتى ويحكى انه شهد بعض وقائعها الرابع ^(٢) .

حرب البسوس

ومن اقدم الحروب البدوية واشهرها حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب المرتبطتين بصلة القرابة ، وقد حدثت في اواخر القرن الخامس الميلادي في الشمال الشرقي من الجزيرة . وكانت القبيلتان تدينان بالنصرانية وتحسبان ان وائلاً جدهما الاعلى . وكان مصدر اختلاف بينهما ان كليلاً سيد بني تغلب جرح ناقه للبسوس عمه جساس ابن مرة سيد بكر ^(٣) فدارت رحى الحرب اربعين سنة - كما يقول الرواة ^(٤) - وراجت سوق العداء والغزو والغارات بين الفريقين تستفزها اقوال الشعراء الحماسية الى ان وضعت الحرب اوزارها حوالي سنة ٥٢٥ بواسطة المنذر الثالث ، ملك الحيرة ؛ فعقد الصلح بين القومين بعد نفاد القوى وكلال السواعد

(١) الاغانى ج ٢ ص ١٦٢

(١) ابن هشام ، السيرة ، ص ١١٧-١٩ وعنه نقل ياقوت ، بلدان ، ج ٣ ص ٥٧٩

(٢) لا يزال اسم هذه القبيلة مغلداً في « ديار بكر » .

(٣) الاغانى ج ٤ ص ١٤٠-٥٢ ؛ ابو تمام ، الحماسة ، ص ٤٢٠-٢٣ ، المقد ، ج ٣ ص ٩٥

اما ابطال ذلك المعتك الشهير فلا تزال اسمائهم معروفة عند الخاص والعام من ابناء الشرق العربي . فمن بني تغلب اشتهر كليب ابن ربيعة واخوه البطل الشاعر المهلهل (المتوفى نحو ٥٣١ م) . ومن بني بكر قام جساس ابن مرة . والمهلهل المذكور يعرف عند العامة بالوزير بطل سيرة بني هلال الشائقة .

ولقد تركت حرب البسوس أثراً في الآداب العربية لا تمحوه الايام بما حاكه الشعراء من القصائد والاغاني في وصفها . و«أشأم من البسوس» أصبح من الامثال السائرة . والحق ان اقدم شعراء العربية ممن اتصلت بنا آثارهم الادبية كانوا من معاصري تلك الحرب الضروس ، فلا عجب اذا كان لها ولشؤونها هذا الاثر العميق فيما نظموا وتغنوا به .

يوم داحس

وليوم داحس والغبراء قدر لا ينقص عن قدر الايام السابقة بل هو اوضح الفصول المدونة من اخبار الجاهلية . وقد دارت رحى هذه الحرب بين قبيلة عَيس واختها ذبيان في اواسط الجزيرة . وكان للقبيلتين فيما يزعم الرواة جدٌ واحد تقليدي هو غطفان . اما سبب نشوب الفتنة بينهما فهو ان ذبيان أساءت الى بني عيس في اثناء سباق بين جواد لقيس سيد عيس اسمه داحس وفرس لحذيفة سيد ذبيان اسمها الغبراء . وذلك انه لما لاح الفوز لداحس اعترضه قبل وصوله آخر الشوط رجل من ذبيان فسبقتة الغبراء . وطالب قيس حذيفة بالرهن فأبى وادعى سبق للغبراء . فثار غضب عيس واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في الشطر الثاني من القرن السادس بعد سلم البسوس بزمن يسير وظلت تظهر في فترات الى ايام الاسلام فتخطت العشرات من سنه الاولى ^(١) ثم عقد السلم بين القبيلتين بتدخل الوسطاء . واشتهر في هذه الحرب عنتر (عنتره) ابن شداد العبسي (نحو ٥٢٥ - ٦١٥ م) شاعراً ومحارباً ^(٢) . ولبعنتره مكانة في الفروسية عند العرب كمكانة أخيل عند

الاغريق . وانتجت هذه الحرب شاعراً آخر مشهوراً هو زهير ابن ابي سلى .
ولقصيدته البديعة ما لقصيدة عنتره من منزلة بين المعلقات .

وتظهر هذه الحروب القبلية مميزات الروح العربية في الجاهلية من عصبية وحمية
نهضت بعقيلة البدوي تارة الى الفضيلة وهبطت به تارة اخرى الى الرذيلة . وانكشفت
فيها بواطن الخلق العربي فاذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردي ، عنيد ، صعب
المراس ، تسوَّغ له اقته وكبرياؤه القتال دفاعاً عن قبيلته سواء اكانت محقة
أم مخطئة . فهو يعمد الى مناوأة القبائل الاخرى قريبة كانت ام بعيدة . الا انه
يأبى الانقياد الى النظام ولا يمثل للأوامر العسكرية بل يطيب له ذلك النوع من
الحرب القائم على المناوشات والغارات الفجائية ويستنكر مجابهة العدو في معارك فاصلة .

لغة الشمال العربية وارتها الكبير

وقل أن نجد بين امم الارض شعباً كالعرب في شدة اعجابهم بالأدب وتأثرهم
بالكلام الانيق الذي يلتقى في مجالس الخطابة . ولهم شغف وهيام كبيران بحال
اللغة سواء رأوها مكتوبة ام سمعوها بأذانهم . حتى تمتعت اللغة العربية بما لم
تتمتع به لغة اخرى من الاستيلاء على عقول الناس والسيطرة على افئدتهم . وما
اكثر المجالس اليوم في بغداد ودمشق والقاهرة وسواها من العواصم العربية يقوم
الخطيب فيها متكلماً في القوم فيحرك نفوسهم ويستفز همهم بحيث يرتفع بهم الى
اعلى درجات الانفعال والتأثر او يلقي عليهم ابياتاً من الشعر تهزهم هزاً او يسمعهم
من النثر ما يثير كوامن اشجانهم ويخلب الباطن بالرغم من ان هذا الأدب يرد احياناً
في لغة منمقة معقدة يفهمون بعضها ويفلق عليهم البعض الآخر . وللشعوب عند العرب
رنة يجلوها الاتساق . وتبدعها موسيقى الالفاظ فتأتي بما يسمونه السحر الحلال .

والعرب وهم ساميون اقحاح لم يبدعوا او ينشئوا فناً عظيماً خاصاً بهم من الفنون
المعروفة ، لكنهم عبروا عما تكنه صدورهم من الغريزة الفنية بصورة واحدة :
الكلام . فان فاخر الاغريقي بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت هندسة البناء ،

فالعربي يرى قصيدته افضل ما يعبر عن خوالج نفسه الداخلية ، والعبراني يحسب زبوره ابداع ما يفصح عن عقليته . وفي امثال العرب « جمال المرء في فصاحة لسانه » . ولقد قالت العرب ايضاً ان الحكمة وقعت على ثلاث : عقل الافرنج وايدي اهل الصين ولسان العرب ^(١) . وكانت مزايا الانسان الكامل الاصلية في الجاهلية تشمل الفصاحة اي المقدرة على الكلام والاجادة فيه نثراً وشعراً والماية والفروسية . ولقد انتادت اللغة العربية بطبيعتها الفذة لاحتباك الكلام واناقة وروعته والنكتة وجوامع الكلم . ثم نزل القرآن في لسان عربي مبين فجمع ما في اللغة من بيان رائع وما في العقلية العربية من ذكاء الخيلة والصفات السيكولوجية التي ذكرنا . ولذا كان اعجاز القرآن اقوى حجة يتمسك بها المسلمون في الدفاع عن صحة كتابهم ودينهم . ولا ريب ان انتصار الاسلام كان الى حد ما انتصار لغة او بالأحرى انتصار كتاب .

ولانتقاد مخيلة العربي ونبوغه في اساليب الكلام واصول الفصاحة وتوخي الانيق الجيد المتوازن من القول اثر بين يعود اليه السبب في بلوغ العرب تلك القمة الشاخنة من اتقان الفيلولوجيا (طبعاً لا نعني علم مقابلة الفيلولوجيا الحديث) . ولم يكن لابداعه في هذا العلم مثيل في العلوم الاخرى والعربي نزعة لحب لغته ورعاية حرمتها وميل للخطابة والكلام اقتضت حفظ المدونات المكتوبة والاقرار بقداسة القرآن . ولقد قضت هذه الدوافع الثلاثة ان يعنى عناية خاصة بالخط ويلتفت الى الاجادة فيه بحيث رفع مقام الخط الى حيز الفنون الجميلة .

عصر البطولة والفروسية

تحدثت الينا عن عصر البطولة والفروسية في الأدب العربي (وهو يشمل عصر الجاهلية من حوالي ٥٢٥ الى ٦٢٢ م) بضعة امثال واساطير واهم من ذلك طائفة كبيرة من الشعر - وقد جمعت هذه الآثار ودونت في ايام الاسلام المتأخرة .

(١) فابل اباخط ، مجموعة رسائل ، (القاهرة ، ١٣٢٤) ص ٤١-٤٣ ؛ العقد ج ١ ص ١٢٥

ولم يكن للعرب في هذا العصر من علوم القدماء شيء يذكر خلا بعض الاصول في السحر وعلم الجوّ (المتولوجيا) والطب . اما الامثال فهي تعبر بصورة دقيقة عن عقلية القوم وخبرتهم في شؤون الحياة وهي غنية بالحكم وجوامع الكلم واللغة العربية حافلة بها . وكان لقمان الحكيم الذي تنسب اليه طائفة كبيرة من حكم الاقدمين واقوالهم حبشياً او عبرانياً . ولقد نقلت الاخبار اسماء عدد من حكماء الجاهلية وحكيماتهم منهم اكثم ابن صيفي وحاجب ابن زرارة وهند بنت الخصى . وفي « مجمع الامثال » للميداني ^(١) (المتوفى ١١٢٤ م) وفي « امثال العرب » للمفضل الضبي ^(٢) (المتوفى ٧٨٦ م) نخبة من ذلك الأدب الجاهلي الحكمي .

ولم يتسن للنثر ان يبرز في الأدب الجاهلي لان طريقة الكتابة لذلك الحين لم تكن قد نشأت او ارتقت بعد . ولكن قد اتصلت بنا بعض الشذرات النثرية واكثرها من نوع الروايات والاساطير التقليدية التي صُنفت في العصر الاسلامي وادعى مؤلفوها انها اتصلت بهم عن الاجيال السابقة . ومعظم هذه الحكايات يتعلق بالانساب والمعارك القبلية وهي ايام العرب التي تقدم ذكرها . وكان علماء الانساب من العرب كزملاتهم من علماء التاريخ يُمقتنون الفراغ في سياق الحوادث التي يسردون فلم يصعب على تخيلاتهم ان توصل ما انقطع او تملأ ما فيه فراغ مما يدونون . فاذا اخذوا بالانساب يؤرخونها اوصلوها في اغلب الاحيان الى آدم غير منقطعة او على الاقل ربطوها باسما عيل و ابراهيم . وفي « كتاب الاغانى » لابي الفرج الاصفهاني (او الاصبهاني المتوفى ٩٦٧ م) وهو اشبه بموسوعة . طريفة ، مادة غزيرة مفيدة في موضوع الانساب . وكذلك وصات الينا ايضاً نماذج النثر من السجع المنسوب الى كهان الجاهلية .

(١) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤ في مجلدين ؛ وراجع ايضاً G. Freytag, *Arabum Proverbia* (Bonn, 1838-43) .

(٢) طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٠ في مجلدين ؛ ولديا ايضاً كتاب للمفضل ابن سلمة المتوفى نحو ٩٢٠ م اسمه كتاب الفاخر ، نشر ستوري (ليدن ، ١٩١٥) .

الشعر

لم يتفوق العربي في العصر الجاهلي الا في ميدان القريض ، ففي هذا الميدان نالت مواهبه الرفيعة فوزها العظيم . وحب البدوي للشعر كان الظاهرة الوحيدة في حياته الثقافية .

والأدب العربي شأن معظم الآداب الأخرى برز الى الوجود بانفجار شعري . غير انه اختلف عن الآداب الأخرى في ان الشعر الذي ظهر فيه يكاد يكون تام النمو منذ اول ظهوره . ويبدو أن اقدم القطع الشعرية التي تحدثت الينا نظمت قبل الهجرة بما يقارب المئة والثلاثين حولاً وذلك في اثناء حرب البسوس . الا ان لهذه القصائد الاولى سنناً واساليب متعارفة تنم عن زمن نشوء طويل قطعت فيه صناعة الأداء اشواط التطور والتحسين الاولى حتى نمت قوى اللغة فيها وبرزت في حلة راقية . وللشعراء الذين نبغوا حوالي منتصف القرن السادس آثار لم يستطع احد بعدهم نظم اجود منها . حتى ان شعراء العربية من المتقدمين والمتأخرين الى يومنا الحاضر يعتبرون تلك القصائد القديمة امثلة عليا من الجودة والبراعة لا يمكن الاتيان بمثلها . ولقد حفظ الرواة هذه القصائد الاولى في صدورهم وتناقلوها بطريقة السماع والتقليد الى ان انتهى الامر بها ان دونت في خلال القرن الثاني والثالث الهجري . ولقد اظهر البحث العلمي الحديث أن هذه القصائد قد مرت بتطورات نفحت وهذبت وعدلت فيها بحيث اصبحت تتفق مع روح الاسلام ^(١) .

ويمكن ان يعتبر النثر المسجع الذي ابتكره الكهان والعرافون خطوة اولى في سبيل ابتداع الفن الشعري . وفي القرآن نماذج لهذا الاسلوب ولعل الخطوة الثانية في هذا السبيل هي الحدا اي انشاد حداة العيس . ولا يستبعد ما افترضته تقاليد العرب من ان اصل الشعر هو محاولة حادي العيس الانشاد على وقع خطى ناقته . والواقع ان لفظة حادٍ تودي معنى سائق . ومن هنا اعتقاد العرب ان الابل تشعر

(١) راجع طه حسين ، الادب الجاهلي ، (القاهرة ، ١٩١٧) .

برنة الموسيقى وتسترخم التوقيع الرقيق العذب .

وقد نشأ الرجز وتقطيعه مستفعلن مكررة ست مرات من النثر المسجع وهو اقدم
بمحور الشعر وابسطها . ولقد قيل بهذا المعنى ان « الرجز بكر الشعر السجع ابوه
والحداء امه » .

القصيدة

كان الشعر في عصر البطولة الوسطة الوحيدة للتعبير الادبي عن الافكار . وكانت
القصيدة تعتبر الطراز الامثل والواحد في الفن الشعري ويحكى ان المهلهل (المتوفى
حوالي ٥٣١ م) وهو بطل تغلب في حرب البسوس كان اول من نظم القصائد
الطوال . ومن المحتمل ان القصيدة أخذت ترتقي بمناسبة ايام العرب وخاصة بسبب
الوقائع بين قبيلتي تغلب وكندة . ومن رجال القصيد امرؤ القيس (المتوفى نحو
٥٤٠ م) وهو قحطاني الاصل من الجنوب وينتمي الى كندة . ومع انه من اقدم
الشعراء فانه يعد امير الشعر في نظر الاكثرين . اما عمرو ابن كلثوم (المتوفى نحو
٦٠٠ م) فلقد كان تغليبا من ربيعة في ارض الشمال . والذي يسترعي انتباهنا من امر
هؤلاء أنه على تفاوت لهجاتهم كانت القصائد التي نظموها ذات اسلوب ادبي واحد
وصيغ ادبية متشابهة .

ولقد ظهرت القصيدة في الأدب العربي فجأة كظهور اشعار هوميروس . الا
ان القصيدة العربية تفوق الالياذة والأدسا في تعقيدها واتقان صناعتها . فلم تظهر على
صفحات التاريخ الا وهي خاضعة لاحكام وسنن ثابتة من مطلع لا تتعداه ووصف
للدار واستعانة بضروب من المجاز والاستعارات ومواضيع مألوفة لا تتغير . وهذه
امور تدل على ان القصيدة مرت بأدوار من التطور .

وتشابهت قصائد الجاهلية في انها تبدأ بالوقوف على الطلل واستيقاف الصحب
ثم تعرض لوصف اطلال الدار حيث اقامت محبوبة الشاعر وحيث اتسع المجال لكثير
من مشاهد الغرام بينها وبين الحب . وبعد أبيات من هذا الفن الغزلي الذي يسمى

النسب ، وهو بمثابة فاتحة ، يأتي الشاعر على ذكر الرحلة التي قطعها على ناقته وما عاناه فيها من احوال الليل وكيف كان يضرب في بطون البوادي تتبعاً للفتاة المحبوبة . وبينما الشاعر يحول اذا به يسلم نفسه لجاذب الصيد فيطارده الظبي والمها وقد يصف مشهداً فيه حلقة شرب او لعب ميسر ، ثم تتناوب الصور والرؤى سراعاً فاذا بالشاعر يذكر فروسيته واقدامه وفعاله وكرم محتده وعراقة نسبه وما آتي قبلته ومفاخرها . واطول القصائد متوسط يبلغ الخمسة والثمانين بيتاً يذكر الشاعر في ختامها غرضه من نظمها . وقد يكون ذلك الغرض محصوراً اما في الاشادة بقبيلة ما يريد ان يمدحها او وصف لقتال او هجاء لخصم او مديح لعظيم يطلب رفته . ولما كانت البادية لا يعتور فضاءها شيء من السحاب ولا ترصع ارضها بالانهر والبحيرات ولا يتعاقب فيها ضوء الشمس والخيال اصبحت الحياة فيها ضيقة برغم تيقظ الشاعر الانسانية . اما العقل فلا تساوره مواضيع التفكير الحي المنعش . وان جميع هذه المظاهر بادية في قصائد العصر الجاهلي الذي نبحت فيه . فالقصيدة غنية بالعاطفة التي تخرجها لغة محبوكة متينة الرصف الا انها فقيرة في الافكار المبتكرة الطلية وعليه فهي قليلة الغناء من حيث انها ادب عام مشترك يتذوقه الناس في كل صقع . ومن هنا تفقد هذه الاشعار الجاهلية قيمتها حين تترجم الى لغة أجنبية لان العنصر الشخصي فيها قوي والمهم فيها هو الناظم لا المنظوم والفكرة الرئيسية واقعية والافق محدود والنظرة اقليمية بحتة . فاذا تغنى الشاعر بحال المرأة فانما هو يعني فتاته الخاصة واذا وصف فرساً او ناقه فمن خيله وابله . ومن هذه الناحية فالشعر العربي يحاكي الاغنية البلدية القروية من الشعر الوصفي عند الاغريق (ايدل) . والعرب لم يحسنوا نظم أشعار البطولة في وصف الملاحم (ايبك) ولاهم انتجوا ما يعتد به من « الدراما » الرفيعة القدر . ومهما يكن من امر فالآثار الشعرية التي اوجدها العصر الذهبي للأدب العربي في القرن السابق للإسلام ثم عن متانة وجمال في السبك عظيمين .

المعلقات

وتحتل المعلقة السبع المقام الاول بين قصائد الجاهلية كلها ولا تزال لها الخطوة الكبرى في كل العالم العربي ويعتبرها الادباء ابداع ما اخرجت صناعة الشعر . وقد ورد في الاساطير ان كلا من هذه المعلقة أستجيدت ونالت قصب السبق في سوق عكاظ السنوية وانها راقى الناس فكتبت بماء الذهب وعلقت على استار الكعبة ^(١) فلذلك يقال مذهب فلان اذا كانت اجود شعره . ويفهم من الاخبار أن نشأة المعلقة مقرونة بسوق عكاظ التي اقيمت بين نخلة والطائف في الحجاز سنة تلو اخرى فجاءت كناية عن مجمع أدبي امته فحول الشعراء تتبارى باشعارها للفوز . ولم يكن للشاعر من مجد اعلى من الفوز في هذه السوق . واذا فسوق عكاظ في جاهلية التاريخ العربي كانت اشبه شيء « بأكاديمية افرسية » في بلاد العرب . ولقد باهى الفائز فيها مباهاة البطل المجلى من ابطال الاغريق في العابهم الاولمبية . وليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيد فخره عن فخر احد اولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية .

: وكانت سوق عكاظ - فيما رووا - تقام في الاشهر الحرم التي كان القتال محظوراً فيها . والتقويم السنوي في عهود الوثنية عند العرب قري مثل التقويم الاسلامي الذي تلاه . وكانت اشهر السنة الثلاثة الاولى ، اى فصل الربيع - ذو القعدة وذو الحجة ومحرم - توافق فترة السلم . وتوفرت الفرص في هذه السوق لبيع الحاصلات والسلع المحلية فانفتحت ابواب التجارة على مصاريغها وجرى التبادل والمقايضة . وجلس القوم للسمر والشراب يرتشفون النبيذ وغيره من المشروبات . ومن السهل ان تتخيل ابناء الصحراء يتوافدون الى هذه الحلقات السنوية زرافات ووحدانا فينتابون الحانات ويطلقون شهواتهم اعنتها فيجدون في نشوة الشراب نعيماً وطرباً ويجدون في انعام القيان متعاً تسلب الباهم حتى يخال لهم انه قد اتيح لهم

من الرخاء والترف اوسع ما في الامكان .

وقد ذهب الرواة الى ان اول قصيدة نالت اعجاب المحكمين في عكاظ هي معلقة امرئ القيس (المتوفى نحو ٥٤٠ م) الا ان المعلقات لم تجمع حتى أواخر العصر الاموي حين قام حماد الراوية في منتصف القرن الثامن الميلادي وهو من المرتزقين برواية الشعر فجمع المعلقات السبع المذاهبات من بين الكثير من اخواتها ووضعها في مجموعة واحدة . ولقد ترجمت المجموعة الى معظم اللغات الاوربية .

وقد وصل الينا من الشعر الجاهلي فضلاً عن المعلقات السبع مجموعة اخرى سميت « المفضليات » ^(١) نسبة الى جامعها المفضل الضبي (المتوفى حوالي ٧٨٦ م) وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة لشعراء اقل شأنًا من اصحاب المعلقات . اضيف الى ذلك عدة دواوين منها ديوان النابغة وديوان علقمة وديوان الاعشى وكلها تعزى الى العصر الجاهلي ، وطائفة وافرة العدد من المقطعات والمختارات تجدها في « ديوان الحماسة » الذي جمعه ابو تمام (المتوفى نحو ٨٥٠ م) . وفي كتاب الاغاني للاصفهاني (المتوفى ٩٦٧ م) . وكأن قصائد الجاهلية باقية من الازهار الارجة القيت الينا من فوق جدار عظيم الارتفاع لا يدري الرأي ما خلفه من آيات ومشاهد . الا ان هذه الباقية تكفي للدلالة على وجود روضة زاهية .

الشاعر الجاهلي

والشاعر كما تدل هذه الكلمة في العربية هو في الاصل رجل وهب معرفة ما ستر عن العامة وذلك بواسطة شعور خفي يوحيه اليه شيطان خاص . اذا فالشاعر من احلاف قوى غير مرئية تؤثر في هناء الانسان وشقائه . وفي امكانه ان ينزل البلايا على خصمه . ولذا كان للهجاء منزلة قديمة في الشعر العربي .

ثم تطور مقام الشاعر وعمله وصار يقوم بوظائف متنوعة ففي ايام القتال كان لسانه

(١) انظر المفضليات ، في ثلاث مجلدات نشر ليال (اكسفورد ولندن ، ١٩٢١ - ٤) .

اهمية لا تقل خطراً عن بسالة بني قومه . وفي زمن السلم كان لخطبه الحماسية وقع في نفوس الجمهور كاف لتهديد النظام العام وكثيراً ما كانت قصائده تدفع بقييلته الى الغزو واخذ الثأر وأثارة نار العصبية ، شأنه في ذلك شأن المهيجين المشاغبين في الكيان السياسي الجاحز حين يتصاولون مع خصومهم السياسيين ويدفعون طبقات الامة الى التناحر . فكان الشاعر في ذلك العهد اذا بمثابة الصحفي اليوم فالتمس الملاء رضاه ، وشرف اليه الامراء والاعيان كما تدل على ذلك مدونات البلاط عند ملوك الحيرة وعشيان . اما سبيل شهرته فواسع اذ ان ثقات شعره وبدائع الادبية كانت تحفظ في الذاكرة وتتناقلها الالسن . وكان للشاعر مزية اخرى هي انه كان في وقت واحد يعبر عن الرأي العام ويكونه . وقولهم « قطع اللسان » هو كناية عن مد الشاعر بالمال ابتغاء لهجائه .

والشاعر فوق كونه حكيم القوم ومرشدهم وخطيبهم ونائبهم المتكلم باسمهم كان يعتبر ايضاً مؤرخهم وعالمهم اذا صح القول ان فيهم علماً . وقيس العرب انذاك بالشعر . جاء في « الاغاني » ^(١) ان شاعراً عليه مقطعات خرز وهو على نجيب مهري قال : « من يفاخري من ينافري ببني صعصعة فرساناً وشعراء وعدداً وفعالا ؟ » اذا فشرف القبيلة وتفوقها يقومان على اربعة امور : القوة الحربية - وهي الفرسان ، وقوة العقل - وهي الشعراء ، والكثرة ، والفعال . ومن حيث ان الشاعر كان مؤرخ القبيلة وعالمها فانه كان يعرف انسابها واخبارها القديمة ويقف على ما تاتي عظمائها ويعرف ما لها من الحقوق في المراعي وخطوط تخومها . وكان عليه فوق ذلك بصفته مدركاً لمواطن الضعف النفسي في القبائل التي تنازع قبيلته ولنقائصهم التاريخية ان يشهر هذه المثالب ويفضح هذه القبائل ويجمعها موضوع هزء وسخرية . فلاشعر الجاهلي اذن اهمية تتجاوز قيمته الفنية وما فيه من رشاقة وأناقة وتتعداها الى الوقائع التاريخية فهو مصدر لدراسة العصر الذي نظم فيه . والحق ان هذا الشعر يكاد ان يكون كل ما لدينا من المصادر المعاصرة للقرن السابق للإسلام . فهو يضيء

جادة الباحث في الحقبة التي تلاها الاسلام . وحقاً ان « الشعر ديوان العرب »^(١) فيه مرآة صافية لاختباراتهم الدينية ولنضالهم وملاحمهم وتطور عقليتهم واصول تفكيرهم . والشعر العربي الى ذلك مقياس نستوعب به طبيعة الخلق القومي وميزان نزن به اهواء العرب وميزاتهم السيكولوجية .

ما يكشف الشعر الجاهلي من مكنونات الطبع البدوي

يكشف هذا الشعر الجاهلي^(٢) عن المثل الاعلى لفضيلة العربي التي تعبر عنها لفظة المروءة . وللمروءة عناصر تتكون منها هي الشجاعة والوفاء والكرم . فالشجاعة تقاس بعدد ما يقوم به البطل من الغزوات ومقدار بلائه في الذب عن قبيله ونبله في معاملة الاعداء . والوفاء يقاس بولاء الفرد لسيد العشيرة وبتفانيه وتضحيته في معايشرة الانداد والقرناء . ويظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعداداه لنحر ناقته وتقديمها طعاماً للضيف او لاطعام الفقراء والمساكين .

وذكر حاتم الطائي (المتوفى ٦٠٥ م) حيّاً الى اليوم وقد تجسدت في شخصيته المثل العليا للضيافة البدوية . وقد رووا انه كانت له قدور عظام بفنائها لا تنزل عن الانافي . وزعموا ان اياه جعله في ابل له وهو غلام فر به عبيد ابن الابرص وبشر ابن ابي خازم والنابعة الذياني فنحر لهم ثلاثة من ابله وهو لا يعرفهم ثم سألهم عن اسمائهم فقسموا له ففرق فيهم الابل كلها . ولما سألوه ابوه ما فعل قال « طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة » واخبره بما صنع فطرده والده^(٣) .

اما عنتر ابن شداد العبسي (نحو ٥٢٥ - ٦١٥ م) - ويظهر انه انتمى الى النصرانية - فلقد بقي ذكره ابد الدهر نموذجاً للبطولة والفروسية عند العرب . ولقد أطلت من حياته مظاهر الفارس والشاعر والحارب والمحب وسطعت باوضح صورة من

(١) السيوطي ، الزهر ، ج ٢ ص ٢٣٥

(٢) انظر القرشي ، جهرة اشعار العرب (مصر ، ١٣٣٠) .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، نصر دي غويه (لندن ، ١٩٠٤) ص ١٢٤

صور شمائل الرجولة التي اطنب بها العرب . ولقد اصبح بنخوته وفعاله وغرامه بعبلة (التي خلد اسمها في مذهبه المشهورة) جزءاً من التراث الادبي في العالم العربي . وكانت امه واسمها زبيبة امة سوداء فكان احد أغربة العرب (اي غربانها لسواد لونه) وهم ثلاثة هو وخفاف ابن عمير الشريدي من بني سليم والسليك ابن عميرا السعدي . وقد ولد عبداً ومع ذلك فقد اعتقه ابوه حين اغارت بعض احياء القبائل على عبس فضايقتها وابى عنتره ان يشترك في القتال فقال له ابوه : « كرا يا عنتره » فأجاب عنتره : « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » فصاح ابوه : « كرا وأنت حر » ^(١) .

وقد عزوا الى تأبط شراً - وهو من فرسان الجاهلية واشتهر بمنازلته النول وبطشه بها - مرثاة قالها في خاله ^(٢) وهي مليئة بالالوصاف التي كان البدو يباهون بها من النخوة والسخاء والولاء والبغيضة للعدو والحب لابناء الجلدة ، ومن ابياتها :
غيث مزب غامر حيث يجدي واذا يسطو فليث أبل ^(٣)

وروا عن الشنفرى وهو صاحب تأبط شراً أنه وقع في يد قبيلة معادية فأقسم حين نجا ان يقتل مئة منها وبعد ان قتل تسعة وتسعين تمكنوا منه وصلبوه فعلق عاماً او عامين مصلوباً الى أن مر به احد ابناء القبيلة المعادية فرفس رأسه برجله فدخل فيها عظم من رأسه فبغت عليه فمات . وكان ذلك الرجل هو تمام المئة ^(٤) .
ولاولئك الشعراء القدماء خدمة ثقافية اسدوها الى الامة العربية وهي انهم توصلوا بهذه القصائد والقطعات التي نشرها القوم من بعدهم في سائر قبائل الجزيرة الى تخطي الحدود الفاصلة بين القبائل وتوسيع افق البدوي وجعل الفرق واضحة بين العرب وسواهم من الاعاجم وبذلك خلقوا فكرة جديدة ساندت الشعور بالوطنية

(١) الاغاني ج ٨ ص ١٤٩-١٥٠؛ ابن قتيبة ، الشعر ، ص ١٣٠

(٢) السعدي ج ٣ ص ٣١٠ حيث ذكر ان الشنفرى خال تأبط شراً .

(٣) ابو تمام ، الحماسة ص ٣٨٢-٨٤

(٤) الاغاني ج ٢١ ص ١٣٤-١٣٥ ، ١٤٣

العربية التي كانت فجرها قيد الانبثاق فما بدت طلائع الاسلام حتى ادرك فجرها الكمال .

البدو والوثنية

لم يكن للبدوي الوثني كما يستدل من الشعر الجاهلي حظ وافر من امور الدين . فقد كان عديم التنبه للدوافع الروحية بل كان قليل الاكتراث بالدين وكانت في ممارسته لبعض الطقوس الدينية انما ينساق بقوة الاستمرار ويجري امثالا لاحكام العرف والتقليد . وليس في مجمل الشعر الجاهلي ما يدل على شعور ديني عميق او عاطفة روحية شديدة ويمكن الاستشهاد بحادثة امرئ القيس : قيل خرج بعد قتل ابيه يريد الانتقام فر بتبالة وبها صنم للاعراب يقال له ذو الخلصة ^(١) فاستقسم عنده بقداحة ^(٢) وهي ثلاثة الامر والنهي والمتربص فأجلها فخرج الناهي ثم أجلها فخرج الناهي ثم أجلها فخرج الناهي فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : كذا وكذا لامك « لو ابوك قتل ما عقتني ! » ^(٣) .

وفيما عدا الاشارات الشعرية فاهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة الوثنية الجاهلية هي بقايا الوثنية في العرب بعد الاسلام ، وبعض القصص والاعخبار الموثقة في الادب الاسلامي . وكتاب الاصنام لهشام ابن محمد الكلبي (المتوفى ٨١٩-٢٠ م) على انه لم يكن للوثنيين العرب في جاهليتهم ميثولوجيا كالتى نعهد لها عند الشعوب الغربية ولا لاهوت ولا علم بتكوين الارض كالذي كان عند البابليين .

ويمثل الدين البدوي اول اشكال المعتقدات السامية وابسطها واكثرها سذاجة . ويرجع ما بينه وبين العقائد العبرانية القديمة المحفوظة في التوراة من وجوه الشبه العديدة الى ان الدينين هما من جذر واحد .

(١) على مسيرة سبع ليال جنوباً من مكة وكان العنم مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة الناج ، الكلبي ، الاصنام ، نشر احمد زكي (القاهرة ، ١٩١٤) ص ٣٤

(٢) لقد حرم القرآن « الاستقسام بالازلام » سورة المائدة : ٩٣،٩٤

(٣) الاغانى ج ٨ ص ٧٠

اما عبادات عرب الجنوب بما فيها من المظاهر الفلكية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية الخلابه وتقديم الذبائح والقرايين فانها تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة ادت اليها حالة الاستقرار والتحضّر في المجتمع . وان تعلق الجماعات المثقفة في البتراء وتدمر بعبادة الشمس لدليل ساطع على بلوغهم في مضمار الحياة الزراعية درجة من الرقي مكنتهم من استكشاف العلاقة بين اشعة الشمس الحية ونمو المزروعات والنباتات .

والديانة البدوية كسواها من انواع الديانات الساذجة هي في قرارتها مبنية على الايمان بوجود ارواح في الاشياء المادية مما يرى الانسان حوله كالاشجار والرمال والحجارة او مما في مظاهر الطبيعة كالرياح والامطار والنجوم والشمس والقمر . فقد تأثرت نفس الإنسان الأول بهذه جميعها فحسب ان لكل منها روحاً تحركها وبالتدرج اصبحت القوى الطبيعية الهامة آلهة اما القوى السفلى فاحيلت الى مراتب الجن والعفاريت . وكأن التباين بين الواحات والبوادي خلق في عقل البدوي اول صورة واضحة لاله ذي اختصاص فروح الارض الصالحة للزراع هي الاله الرحيم الذي يحمل بالناس التقرب اليه . اما روح الارض الجديية فرب شرير يجب ان يتقى ^(١) .

ثم تكاملت صورة الالهية في مخيلة الجاهلي الا أن الحسوسات الطبيعية كالاشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعتبر وسائط يتقرب العابد بها الى المعبود. فالبئر مثلاً في البرية على ما اختصت به من تنظيف جسد الانسان وشفائه وشفاء غليله اصبحت في اقدم العصور موضوع عبادة عنده . ويرجع تقديس زمزم - كما ذكر المؤلفون العرب - الى ما قبل الاسلام فمن هذه البئر استقت هاجر واسماعيل . قيل التمسّت هاجر ^(٢) لابنها ماء فلم تجده فدعت الله واستغاثت به فبعث الله جبريل فهمز به بعقبه فظهر الماء . ولقد ذكر ياقوت ^(٣) واخذ عنه القزويني ^(٤)

(١) والتقوى في اللغة من باب وقاه اي حذره وخافه .

(٢) ابن هشام ص ٧١ (٣) بلدان ج ١ ص ٣٤٤

(٤) القزويني ، عجائب المخلوقات ، نشر وستنفلد (غوتنغن ، ١٨٤٩) ، ص ٢٠٠

ان بئر عروة بعقيق المدينة كانت من خرج من المدينة وغيرها اذا مر بها تزود من مائها وكانوا يهدونه الى اهلهم وهو يغلى ويجعل احياناً في القوارير . اما الاغوار (جمع غار أي كهف) فانها اعتبرت مقدسة لما كان يأوي اليها من الآلهة والارواح التي تسكن بطن الارض . هذا شأن الغيب بنخله حيث كان العرب ينحرون للعزى ^(١) . اما بعل فهو روح الينابيع والمياه الجارية تحت الارض ويظن انه جيء به الى الجزيرة في الوقت نفسه الذي دخلت فيه زراعة النخيل الذي لم يكن يروى بماء المطر . ولقد احتفظت العربية باثر من اسم هذا الاله وذلك في نظام الضرائب الاسلامي الذي يميز بين الارض البعل والارض السقي ^(٢) .

مركز الشمس في نظام آثرهم

كان القمر محور الاعتقادات الفلكية الدينية الاولى عند البدوي لاذ كان يرى قطعانه على ضوءه . وعبادة القمر لاحقة بحياة المراعي والبدواة اما عبادة الشمس فمرحلة ارقى وهي عالقة بحياة الزراعة . وفي يومنا هذا نرى ان البدو من الرولة يعتقدون ان القمر قوام حياتهم ومدير شؤونها - فهو يكشف البخار والندى على الربوع فيسهل نمو النباتات . اما الشمس فانهم يرون فيها عدواً يطمع في افنائهم وافناء الحيوان والنبات ^(٣) .

واذا استقصينا عناصر العقائد الدينية على الاطلاق عند البدو لاحظنا ميلها للاستمرار بشكل ما بالرغم من تقدم اصحابها في مدارج التطور والرقى . وما يتسنى له البقاء من هذه العقائد القديمة يكون عادة نتاج التوفيق بين النزعة الاولى القديمة والنزعة الثانية الحديثة . وهذا المبدأ يفسر لنا معضلة الاله ود (سورة نوح الاية ٢٢) فهو القمر ولكنه بقي على رأس الآلهة عند سبأ وهم زراعيون . ولقد

(١) الكلبي ، الاصنام ، ص ١٨ ، ٢٠ ؛ ياقوت ، بلدان ، ج ٣ ، ص ٧٧٢-٣

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٠

(٣) Alois Musil, *The Manners and Customs* .. p. 1. (٣

ذكر ابن هشام ^(١) والطبري ^(٢) نخلة طويلة في نجران كان العرب يعبدونها ويعلقون عليها الاثواب وحلي النساء وانواع السلاح . اما ذات انواط ^(٣) (وقد دعيت كذلك لانهم كانوا يعلقون عليها عطاياهم) فكان المكيون من قريش يزورونها كل سنة ولعلها شجرة العزى في نخلة ^(٤) . وكانت اللات بالطائف تمثل على شكل حجر مربع ^(٥) وذو الشرى في البتراء على شكل صخرة كبيرة مربعة الجوانب لم تنحت حنيتها وتبلغ اربعة اقدام علواً وقدمين اتساعاً . وكان لكل من هذه الاصنام وقف خاص به من ارض المراعي يسمى الحمى .

الجن

ولقد تخيل البدوي الصحراء أهلة باحياء ذات طبائع وحشية سماها الجن والعفاريت . ولا تختلف هذه الاحياء عن الآلهة في طبيعتها بل في كنه علاقتها بالانسان فالآلهة على العموم تشفق على الانسان وترحمه اما الجن فتخاصمه وتؤذيه . وما هذه الأخيرة الا اشباح توهمها ابن الصحراء مشخصاً فيها احوال البادية وآفاتنا وحيواناتها البرية الخيفة . فالغول سبع من سباع الجن ^(٦) تراوغ المرء عن جادته وتزويى له بازياء مختلفة حتى تقع به فتأكله . قيل ان تأبط شراً وهو من نماذج القروسية في الجاهلية بات ليلة ظلمة وبرق ورعد في قاع فلقيته الغول فما زال يقاتلها الى ان اصبح وهي تطلبه الى ان قتلها وتأبطها وسار ، وفيها يقول :

فلم انك متكئاً عليها	لا نظر مُصهباً ماذا اتاني
اذا عينان في رأس قبيح	كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج وشواة كلب	وثوب من عباء او شنان

(١) السيرة ، ص ٢٢

(٢) تاريخ ج ١ ص ٩٢٢

(٣) السيرة ص ٨٤٤

(٤) الكلي ص ٢٤-٧

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٦

(٦) الاغاني ج ١٨ ص ٢١٢

وكانت الآلهة في نظر البدو تهيمن على الاراضي الآهلة بالسكان
اما الجن فتسيطر على البراري والقفار . والمعنوه الذي يسمى في اللغة مجنوناً هو من
سكنه الجن . وبمجيء الاسلام ازداد عدد الجن لان اصنام الجاهلية واوثانها ومعبوداتها
حشرت في صعيد واحد هي والجن ^(١) .

بنات الله

تغلغت من قديم الزمان عبادة الاجرام الفلكية في نفوس حضر الحجاز (واهل
الحضر في الحجاز لم يتجاوزوا سبعة عشر في المئة من سكان ذلك القطر) . فقامت
في هذه البلاد ، التي اصبحت فيما بعد مهدياً للاسلام ، محارم للعزى واللات ومناة -
وهن بنات الله يعبدونهن زلفى اليه . وفي حديث الغرائق الذي اورده المفسرون
وكتاب السيرة واخذ به جماعة من المستشرقين ان محمداً لما رأى من تجنب قريش
اياه قرأ بعد « افرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » - « تلك الغرائق
العلا وان شفاعتهن لترجى » ^(٢) . اما بعض علماء الاسلام ففسروا الحادثة وفق مبدأ
« الناسخ والمنسوخ » ^(٣) الذي يبدل الله تعالى بموجبه اللفظ لفظاً آخر ويغير مقتضيات
ارادته بالنظر الى علم العبد . وينتج من هذا ان تلغى بعض الآيات وتحل محلها أخرى
(البقرة : ١٠٠) . وكان للات حمى وحرم في جوار الطائف يقصده حجاج مكة
وسواها ويقدمون لها الذبائح . ولقد حرم قطع الاشجار والصيد والقتل في مثل هذا
المكان فكان الحيوان والنبات استمدا من تلك البقعة مناعة الحرم . وهكذا كان
لبنی اسرائيل من قبل مدن ملجأ يهرب اليها القاتل ^(٤) ولقد ذكر هيرودس ^(٥)
هذه الآلهة العربية بين معبودات الانباط فساها أليلة . ولقد تقدم معنا ان ابن

(١) سورة الصافات : ١٥٨ ؛ الانعام : ١٠٠

(٢) راجع حسين هيكل ، حياة محمد (القاهرة ، ١٣٥٤) ص ١٢٣-٣١ ففيه بحث عن قصة الغرائق .

(٣) انظر سورة الحج : ٥١-٥٢ ؛ البضاوي ، انوار التنزيل ، نشر فليشر ج ١ (ليبرغ ، ١٨٤٦)

ص ٦٣٦-٧ ؛ الطبري ، تفسير ، ج ٢٧ ص ٣٤ وما يلي ، ج ١٧ ص ١٣١

(٤) سفر العدد ٦:٣٥

(٥) Bk. III, ch. 8.

زنوبيا وشريكها على عرش تدمر كان وهب اللات .

والعزى (تأنيث الاعز بمعنى الاقوى تقابلها فينس ، كوكب الصبح ، او الزهرة - الهة العشق) وكان مقرها بوادي نخلة الى الشرق من مكة ، ويقول الكلبي ^(١) انها كانت اعظم الاصنام عند قريش فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح . وروى أن رسول الله ذكرها يوماً فقال : « لقد أهديت للعزى شاة غفراء » وكان ذلك في ايام حداثته . وكانت قريش قد حمت لها شعباً في وادي حراض يقال له ، سُعَام فيه ثلاث اشجار باسقات . والعزى هي الآلهة عزيان التي قدم لها احد عرب الجنوب - حسبما ذكرت الرقم - تمثالا من الذهب رجاء ان تشفي اخته العليلة واسمها امة عزيان ^(٢) . وكان اسم عبد العزى كثير الشيوع في مطلع الاسلام .

والى اى شيء كانوا يرمون بتقديم الذبائح للآلهة ؟ انما الفكرة الاساسية فيها ان يشارك المعبود العابد في المأكّل . فالتذبيحة في الدرجة الاولى شركة روحية وكانت عظيمة الشأن لدى العربي الذي اعتاد حسابان الغريب عدواً ما لم يرتبط به بصلة « الخبز والملح » . فالتقدمة اصبحت اواسطة لنقل الصلاة والامنية من الانسان الى الاله . ولما كان العرب لا يحرقون ذبائحهم فانهم لم يعرفوا المذبح بل اكتفوا بكومة من الحجارة يقال لها الغري او النصب .

ومناة (من المنية جمعها المنايا ، اى ما يقدر للمرء ، الموت) هي الهة القضاء والقدر ^(٣) فهي اذن تمثل حالاً من احوال الحياة الدينية الاولى ^(٤) . وكان صنمها حجراً اسود منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين يثرب ومكة . وكانت عظيمة القدر عند الاوس والخزرج وهما القبيلتان اللتان ناصرتا النبي يوم هجرته الى يثرب من مكة . ولقد ورد اسمها كمعبود قائم بذاته مشاركاً لذي شرى في رقم

(١) الاصنام ، ص ١٨-١٩

(٢) Nielsen, Handbuch, vol. i, p. 236.

(٣) قابل في العبرانية لفظة مني ، اشعيا ١١:٦٥

(٤) الكلبي ، ص ١٣

الانباط بججر^(١) . والى هذا اليوم نسمع من شعراء العربية نسبة الآلام والحن
إلى « المنايا » و « الدهر » و « الزمان » .

وقد اقتضت صلة الارحام ان يكون دم المرأة اهم من دم الرجل في حلقات
القرباة بين الناس ذلك عند الشعوب السامية على الاطلاق . وكانت السيادة في
الاسرة بادية الامر في يد الامهات لا الآباء ، اذن فالالهة العربية سبقت الاله زمناً
وفاقته قدراً .

الكعبة في مكة

وكان لقريش اله في جوف الكعبة يدعى هُبل (من الارامية بمعنى البخار ،
الروح) جعلوه على صورة انسان واقاموا قدامه سبعة اقدح وكانت العرب كلما اشتدت
بها الحيرة في أمر تلجأ الى الكاهن (كلمة أرامية الأصل) وهو صاحب القداح كي
يستفتي لها هبل كبير الآلهة عن طريق القداح يضرب بها عند هبل فمن خرج قدحاه
على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . ونقل ابن هشام^(٢) ان عمراً
ابن لُحي خرج من مكة الى الشام في بعض اموره فلما قدم مؤاب من ارض البلقاء
وبها يومئذ العماليق رأهم يعبدون الاصنام فسألهم عنها فأجابوه « هذه اصنام نعبدها
فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا » وبناء على طلبه اعطوه صنماً يقال له هبل
فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه . ولعل في هذا التقليد شيئاً من
الحقيقة التي تقرر ان الصنم العربي اجنبي الأصل وبعبارة اخص ارامي^(٣) .

وغدت كعبة مكة مثابة للناس في الجاهلية اقاموا فيها الاوثان وتوجهوا اليها
كل عام من كل صوب وحذب . وهي بناءً مكعب الشكل بسيط الصنعة ساذجها ،
لم يكن له سقف اول العهد . وفي وسطها قام نصب هو عبارة عن قطعة من الحجر

(١) انظر Cooke , pp. 217 , 219 وقابل Lidzbarski , *Ephemeris* , vol. iii, 1909 - 15 (Giessen, 1915) p. 85

(٢) السيرة ، ص ٥٠ وما يلي .

(٣) لفظة صنم العربية مأخوذة من صلح الارامية ، واقد حطم النبي محمد هبل عند فتحه مكة كاحطم سواه من اصنامها

البركاني الاسود يعبدونه . والبناء الذي كان قائماً حين مجيء الاسلام انما هو من بناء الوليد ابن المغيرة الذي تهدمت الكعبة في ايامه فأعاد بناءها من حطام سفن للاغريق كانت قادمة الى الحبشة وحطمتها الامواج وقذفت قطعها على شاطئ البحر الاحمر ^(١) . وتحيط بالكعبة ارض الحرم المقدسة وقد تولى شؤونها رجال ذوو مناصب منها سدانة البيت أي تولى مفاتيحه . وكان يقصد الحجاج الكعبة مرة في السنة . ويقدمون لها الذبائح والقرايين .



الحجر الاسود

وفي التقليد الاسلامي ان الكعبة بناها آدم وفقاً لنموذج سماوي ثم جاء الطوفان فتهدمت اركانها واعاد بناءها بعد الطوفان ابراهيم واسماعيل ^(٢) . وظلت سدانتها في ايدي سلالة اسماعيل حتى مقدم بني جرهم وبني خزاعة من بعدهم الذين ادخلوا اليها عبادة الاصنام ثم وليتها قريش فعادت الامرة فيها للاسرة الاسماعيلية القديمة . ويضيف التقليد ان اسماعيل اذ قام يبني جدرانها اتاه جبريل بالحجر الاسود

(١) الازرقى ، اخبار مكة ، نشر وسدغلد (ليرغ ، ١٨٥٨) ص ١٠٤-٧ ؛ اليمقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٧-١٨

(٢) سورة البقرة : ١١٨-٢١

الذي لا يزال محفوظاً في الزاوية الجنوبية الشرقية منها وإن اسماعيل اول من تلقن مراسيم الحج .

الله

وكان القدم على المعبودات التي حوتها الكعبة اذ ذاك الله (الاله) على انه لم يكن الوحيد عندهم بل نعله نشأ عن تجريد معنى الالهية او حصرها في واحد من آلهة الكعبة المتعددة . واسم « الله » عريق في القدم اعتقد المستشرق درنبورغ انه رآه في رقيم معيني قديم ^(١) . وفي نقوش صفا ورد الاسم هكذا « هلاه » وذلك قبل بزوغ الاسلام بخمسة قرون ^(٢) .

ولقد ورد ايضاً في رقيم نصراني يرجع الى القرن السادس الميلادي ^(٣) عثرت عليه بعثة جامعة برنستون الى سورية . وكان اسم والد محمد هو عبد الله ، وهو اسم مركب من عبد اي خادم او عابد ، والله وهو الاسم الذي نعرض له . ويدل ذلك على منزلة الله عند اهل مكة في الجاهلية ، ما في القرآن من آيات تشعر بذلك منها سورة لقمان ، الآية ٢٤ ، ٣١ ؛ والانعام ، الآية ١٣٧ ، ١٠٩ ؛ يونس ، الآية ٢٣ . فهو الخالق الحميد واذا حلت بهم مصيبة دعوه مخلصين له الدين . ويسوغ الاستنتاج من ذلك ان الله كان المعبود القبلي لقريش قبل الاسلام .

وراجت منزلة مكة لعلو شأن البيت الحرام فيها بالرغم من انها بواد غير ذي زرع رديء الهواء وبفضلها اصبح الحجاز اعظم مركز ديني في شمال الجزيرة .
ومن آلهتهم كَسَرُ ^(٤) وَعَوَفُ ^(٥) وهما اسمتا طائرين يرجعان الى اصل

(١) Journal Asiatiques, vol. XX (1892) pp. 157-66

(٢) Dussaud, Les Arabes en Syrie, pp. 141-42

(٣) Enno Littmann, Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete, vol. vi (٣ (1929), pp. 197-204

(٤) سورة نوح : ٢٣

(٥) عبد عوف اسم مألوف عند العرب القدماء .

طوطني.. اما فكرة الآخرة فاننا لا نجد في الادب الجاهلي اشارة واضحة اليها .
والعبارات القليلة الغامضة التي تحمل مسحة من التفكير بالآخرة جاءت على اثر
التعاليم النصرانية . واخلاق العربي قائمة على فلسفة اللذة الحالية فكان ابداً دائماً
في مهام الحياة التي تحتاطه ولم يكرس من الفكر كثيراً لأمور الآخرة . وفي هذين
البيتين لشاعر قديم سرّ الفلسفة العربية في الحياة :

نُطَوِّفُ مَا نُطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي ذُووِ الْأَمْوَالِ مِنَّا وَالْعَدِيمُ
إِلَى حَقَرٍ أَسْفَلَهُنَّ حُوفٌ وَأَعْلَاهُنَّ صَفَاحٌ مُقِيمٌ ^(١)

ولما كان البدو يترددون على مراكز الحضارة في الحجاز لتبادل البضائع وبخاصة في
الاشهر الحرم الاربعة فأنهم قد تأثروا بطابع الافكار المدنية التي كانت ارقى من
افكارهم درجة وتعلموا بعض الشعائر الدينية مثل الطواف بالكعبة ونحر الذبائح .
وكانوا يقدمون الابل والاغنام ذبائح في مكة وعند مختلف الانصاب التي كانت تعتبر
اصناماً او مذابيح . وكان الحج الى مزار مشهور في احدى مدن الحضريين اعظم
الفرائض الدينية عند البدوي . وكانت الاشهر الحرم الاربعة تتضمن ما أصبح في
التقويم الاسلامي الشهر الحادي عشر والثاني عشر والاول من كل عام (ذو القعدة وذو الحجة
والحرم) يضاف اليها شهر آخر في منتصف السنة وهو رجب . وكانوا قبل الاسلام
يفرزون الاشهر الثلاثة الاولى للفرائض الدينية اما الشهر الاخير فلتعاطي التجارة .
وامتاز قطر الحجاز بخصائص فريدة منها وقوعه في نقطة مركزية وسهولة الوصول اليه
وقيامه على طريق القوافل السائرة بين الشمال والجنوب . فافتحت فيه ابواب واسعة
للحركة الدينية والتجارية . وبفضل هذه نشأت سوق عكاظ والكعبة .

مدنه الحجاز الثمرت : الطائف

الحجاز بلاد في الجزيرة تحجز بين مرتفعات نجد وبين السهول المنخفضة الواقعة

على الساحل المسمى تهامة . وليس فيها مدين جديدة بالذكر الا ثلاثاً : الطائف ومكة والمدينة .

وتقع الطائف في أكناف الجنان الغناء على ارتفاع نحو ستة آلاف قدم وهي طيبة الهواء وقيل في وصفها انها قطعة من ارض الشام . وكانت ولا تزال مصيفاً لاستقرائية مكة . وقد زارها الرحالة السويسري بركهاردت في آب سنة ١٨١٤ قادماً



مكة من جهة الشمال الشرقي

من جدة فاعرب عن انشراح صدره للمناظر الطبيعية التي عاينها في طريقه اليها وقال انه لم ير مثلاً من بعد مغادرته لبنان ^(١) . وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب والزيتون والدراقن والسفرجل ^(٢) . واشتهرت ورودها بالعطر الذي كان يمد اهل مكة بما يحتاجون اليه من طيب . وقد أدخلت الكرمة الى

(١) . John L. Burckhardt, *Travels in Arabia*, (London, 1829) vol. i, p. 122 .

(٢) فابل ابن بطوطة ، تحفة النظار، نشر دفريري وسانغويني (باريس ، ١٨٩٣) ج ١ ص ٣٠٤-٥ .

الطائف كما نقل صاحب الاغاني ^(١) على يد امرأة يهودية وقد اهدت بعض قضبان الكرم لبعض الزعماء هناك . اما خمر ^(٢) الطائف فقد كان برغم كثرة الطلب عليه اقل ثمناً من النوع الاجنبي الذي كانوا يستقدمونه من الشام والعراق ويشهرونه في الشعر العربي . والطائف اقرب بلدان الجزيرة مطابقة للوصف الذي جاء به الوحي في سورة محمد الآية ١٦ : ١٧ من ذكر الجنة التي وعد بها المتقون .

وكان اهل الطائف من قبيلة ثقيف وهي تمتاز بالعقل والمقدرة فانجبت في صدر الاسلام المغيرة وزياد وهما القائدان المخنكان في جيش معاوية وكان منها الحجاج ابن يوسف عامل عبد الملك على العراق المعروف ببطشه ومحمد ابن القاسم الذي تغلغل في قلب آسية الوسطى ورفع لواء الاسلام فوق ربوعها .

مكة

واسم مكة ^(٣) الذي اورده بطليموس ^(٤) بصيغة مكورباً مشتق من الاسم السبئي مكورابا ومعناه مقدس او حرم . ويستفاد من هذا الاصل ان مكة كانت في اول عهدها مقاماً دينياً اذاً فهي مركز للعبادة يرجع عهده الى ما يسبق محمداً بازمان متطاولة . وهي واقعة في تهامة الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية واربعين ميلاً من البحر الاحمر وذلك في واد قفر صخري وصفه القرآن بانه « واد غير ذي زرع » (سورة ابراهيم الآية ٤٠) . ويسجل ميزان الحرارة في مكة درجة لا تحتل . ولقد زارها الرحالة العربي الطنجي ابن بطوطة ^(٥) فاراد الطواف بالكعبة حافي القدمين فوصل المطاف وارد استلام الحجر الاسود فلحقه لهب الحجارة وشاء الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصله الا بعد جهد عظيم ورجع وهو لم يطف حتى بلغ الرواق .

(١) ج ٤ ص ٧٥

(٢) لفظة خمر مستارة من الآرامية وكانوا يطلقون لفظة نبذ على الخمر المستقطرة من العنب والتمر

(٣) انظر الازرقى ، اخبار مكة .

(٤) Geographia, ed. Nobbe, Bk. VI, ch. 7 § 32.

(٥) ج ١ ص ٢٨١

وقد وقعت مكة في وسط طريق القوافل ما بين مأرب وغزة وهي طريق تجارة الطيوب في عصور دول الجنوب فكانت « محطة » للآتين من جنوب الجزيرة وللمتجدرين من شمالها . وكانت الاسواق تنصب فيها للبيع والشراء فمهر اهلها في شؤون التجارة وما يتعلق بها من مرافق ووظائف . وجعلوا مدينتهم مكة مركز عمران وثروة . وفي غزوة بدر (١٦ آذار سنة ٦٢٤ م) كانت قافلة للمكيين راجعة من غزة فيها الف بعير ومعها من المال خمسون الف دينار على ما رواه الواقدي ^(١) . ولما عاد المسلمون بعد غزوة بدر بالاسرى الذين وقعوا في يد النبي من المكيين اقتدتهم مكة باربعة آلاف درهم للرجل الى الف الا من كان معدماً فقد منّ عليه محمد بحريته . وكان تجار مكة يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . فاصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية ^(٢) يرأسها الموسرون من اكابر قريش ومقدميها الذين اتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاهاً ووسائل للترف على اوسع نطاق . وراجت تجارة مكة فقامت قريش توطد مركزها في البلد الحرام فننت رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة واعتبرت العاصمة المعترف بها وسمت منزلة سوق عكاظ فاصبح ملتقى الخطباء وقطب الدائرة الفكرية في الجزيرة ، وهو امر لم يسبق له مثيل في ثقافة اليمن القديمة او في مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة في بلاط الحيرة والغساسنة . وكان قصي مؤسس مجد قريش فابتنى في الشطر الاخير من القرن السادس دار الندوة ليجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرته ليتشاوروا في مهام بلدتهم . وما ان اخذ نجم الاسرة يتألق حتى ظهر فيها كبير آخر هو عبد المطلب - جد النبي - الذي يروى انه كان حامي حوض مكة حين وجه ابرهة جيشه لهدم البيت الحرام وامتهان مكة وقريش في عام الفيل .

(١) كتاب المغازي ، نشر فون كريم (كلكتا ، ١٨٥٥-٦) ص ١٩٨

(٢) اللأ في سورة المؤمنين الآية ٣٤ ، الشعراء : ٣٣

تقع يثرب (يثرب في نقوش سبأ ويثربا في جغرافية بطليموس^(١)) على بعد نحو ٣٠٠ ميل من مكة وقد حبتها الطبيعة بمزايا لم تعرفها مكة من طيب الهواء وجودة التربة . ولم تكن يثرب على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل وهو كثير فيها وقد أصبحت المدينة من امهات المراكز الزراعية على ايدي يهودها بني النضير وبني قريظة . واذا اعتبرنا الاسماء العلمية التي تسمى بها يهود يثرب والألفاظ الأرامية التي كانوا يستعملونها في حياتهم الزراعية فاننا نجسم انهم كانوا بالاكث من القبائل العربية والأرامية التي تهودت^(٢) . مع انه ربما كانت نواة هذه الجماعة اسرائيلية صرفة هجرت فلسطين في القرن الاول للميلاد على اثر الفتح الروماني . ولعل هؤلاء اليهود الناطقين بالأرامية هم الذين استبدلوا « يثرب » اسمها القديم باسم جديد « مدينتا » وهو آرامي . اما الاعتقاد بانها سميت المدينة لصيرورتها مدينة الرسول فهو رأي متأخر . واذا استثنينا الجالية اليهودية فالمسكنة بين القبائل العربية كانت للأوس والخزرج وهما من اليمن اصلاً .

المؤثرات الثقافية في الحجاز : ١ . سبأ

ان بلاد الحجاز لم تساهم ايام الجاهلية في مجرى الحوادث العالمية ولكنها في الواقع لم تكن مجهولة تمام الجهل وقد بدأ انعزالها بعد الاسلام منذ السنة الثامنة للهجرة حين جهز المسلمون عشرة آلاف رجل الى مكة فتمت امنية محمد في ان يفتح ام القرى من غير اراقة دماء . فدخلها ثم عفا عن خصومه جميعاً وطهر الكعبة من الاصنام ودخل اهل مكة في الاسلام . اذ ذاك نزلت الآية : « يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... »^(٣) . الا

(١) Bk. VI, ch. 7, § 31, ووردت ايضاً لثربا

(٢) اليعقوبي تاريخ ، ج ٢ ص ٤٩ حيث اورد المؤلف اسماء القبائل العربية التي تحدروا منها .

(٣) التوبة : ٢٨

ان هذا النهي جاء في باب تحريم مكة على الوثنيين والمشركين وطردهم منها .
وتقل عن النبي انه قال : « يا ايها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات
والارض لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دمًا ... » ^(١)
الا ان المولدين ساروا في التفسير شوطاً بعيداً فحرموا على اهل الذمة دخول مكة
والمدينة واستباحوا دم غير المسلم اذا وطئها ^(٢) . ومن الراهن انه في القرن الاول
بعد وفاة النبي كان يقيم في مسقط رأسه عدد لا يستهان به من النصارى واليهود
يحترفون الطب والموسيقى ويتعاطون التجارة .

وفي العهد الذي ولد فيه محمد كانت جزيرة العرب قد فقدت مدينتها القديمة
الوحيدة التي ازدهرت حقبة من الدهر في زاوية الجزيرة الجنوبية الغربية وكان
ابناء تلك المدينة قد شتتوا في سائر انحاء البلاد وفي الشام والعراق . فالحجاز لم
يرث مخلفات الثقافة الجنوبية التي سبقته لأنه بعيد عنها من حيث الزمن والمكان .
والادب الاسلامي لم يحفظ من بقايا تلك العصور البهية شيئاً يؤخذ به ذلك لان
الاسلام ينسخ ما قبله .

ولكنه لم يكن طبعياً ان تمر مدينة الجنوب العربية دون ان تترك بعض
الآثار في اختها الشمالية وهذه نقوش حمير تشير الى ذلك . فهناك رقيم (٥٤٢ -
٣ م) لابرهة يعرض لانهيار سد مارب كشف عنه المستشرق غلازر ونشره فاذا في
مطلعه هذه الكلمات : « بقوة ونعمة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح قدسه » ^(٣) .
ولفظه « رحمان » في الاصل تسترعي اهتمام الباحث لانها اصبحت فيما بعد الرحمان
في لغة قريش ولهذا اللفظة شأن واضح في القرآن كأحد أسماء الله الحسنى العامة
في جميع المصنفات العربية واخصها كتب الفقه وعلم الكلام والشرع . وهي
كثيرة الورود في سورة مريم . واللفظة الواردة في الرقيم المذكور وان دلت على

(١) قابل البخاري ، صحيح ، (بولاق ، ١٢٩٦) علم ، ٣٧ ؛ الترمذي ، حج ، ١

(٢) قابل البيضاوي ، انوار التنزيل ج ١ ص ٣٨٣ ؛ والطبري ، تفسير ج ١٠ ص ٧٤

E. Glaser, *Mitteilungen der vorderasiatischen Gesellschaft* (Berlin, 1897) , pp. (٣
390, 401; *Corpus inscriptionum Semiticarum*, Pars iv, t. i, pp. 15-19.

الاله الحي عند النصارى فالظاهر انها مأخوذة من اسم احد المعبودات القديمة في الجنوب . وما يذكر في هذه المناسبة ان الاسود العنسي الذي قام فتكهن في اليمن في بدء الاسلام كان يسمي نفسه « رحمان اليمن » كما تسمى مسيلة من قبل « رحمان اليمامة » ^(١) . اما لفظة « الرحيم » فواردة ايضاً اسماً لاله (رح م) في رقم سبأ وحير ^(٢) . ولقد شوهدت في رقيم جنوبي آخر لفظة « شرك » بمعنى عبادة آلهة متعددة والشرك هو ما حمل عليه محمد منذ بعثه وشروعه بتبليغ رسالة التوحيد . والشرك في الاصل أن يعبد اله من الآلهة عظيم الشأن يشرك معه آلهة صغرى . وفي الرقيم نفسة لفظة « كفر » ^(٣) وهي الكلمة التي استعملت في لغة الضاد للتعبير عن معنى الشك والاحاد .

٢ . الحبشة

ولقد كان يحل ساحل الجنوب الغربي من البحر الاحمر قوم من الساميين تسربوا اليه كما رأينا - من ساحل الجزيرة المقابل فسموا فيما بعد بالاحباش . ونشأت بين هؤلاء الاحباش واقربائهم في الجزيرة وبين المكين صلات تجارية ما لبثت ان توثقت عراها فاندمجوا في تلك الكتلة التجارية الواسعة النطاق التي تولت زعامتها سبأ وحير وتم لهم مجتمعين احتكار خطوط الطيوب القديمة التي كان يمر اهم فروعها بالحجاز . وقد استطاع الاحباش ان يوطدوا حكمهم في ارجاء اليمن مدة خمسين سنة قبل ولادة النبي . وفي عام مولده رأيناهم وقوفاً على ابواب مكة يتهددون كعبتها بالخراب . ومكة اذ ذاك مقام جالية حبشية لعلها نصرانية يدعى افرادها « الاحابيش » . وكان بلال ^(٤) ذو الصوت الرائع الذي رقاها النبي الى

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٥

(٢) Dussaud and Macler, *Voyage archéologique*, p. 95; Dussaud, *Arabes*, pp. 152-3

(٣) J. H. Mordtmann and D. H. Müller, *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, vol. X (1896), pp. 285-92

(٤) ولا يزال قبره معروفاً في دمشق .

وظيفة مؤذن عبداً زنجياً من الاحباش . واذا تأملت الآيات القرآنية التي نزلت في وصف البحر وعواصفه ^(١) هذه الآيات التي تتميز بصفاتها ووضوح صورها ادركت انها صدى لهذا النشاط والاتصال البحري بين الحجاز وبلاد الحبشة . ولما اعلن الرسول رسالته وقامت قريش تضطهده وتسرف في ايداء المسلمين اشار عليهم ان يذهبوا الى بلاد الحبشة ^(٢) « فان بها ملكاً لا يظلم عنده احد وهي ارض صدق » ^(٣) .

٣. فارس

وفي القرن السابق لحجى الاسلام كانت فارس الزردتشية تنازع الحبشة السيادة على اليمن . فتسربت فنون الحرب الفارسية الى العرب من الجنوب وكذلك من الشمال عن طريق بلاد العرب الفارسية وعاصمتها الحيرة . وفي الحديث أن سلمان الفارسي كان اعرف باساليب الحرب من غيره فأشار على النبي بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها ^(٤) وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته فحفر الخندق وعمل فيه النبي بيديه .

تحكم الفرس في شؤون الحيرة فانتقلت منها مؤثرات ثقافتهم ومؤثرات الثقافة الارامية النسطورية الى الجزيرة في العصور السابقة للنبي . وكما اصبح النساطرة بعدئذ

(١) « الفلك مواخر فيه » وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان . « من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض » . (سورة النحل : ١٤ ؛ سورة يونس : ٢٣-٤٤ ؛ سورة النور : ٤٠) .

(٢) وفي العربية كلمات حبشية الأصل مثل برهان وحواريون وجهم (واصليها قبلاً عبراني) ومائدة ومحراب وملاك (عبراني) ومنبر ومصحف وشيطان . وهي تدل على ما كان لبلاد الحبشة النصرانية من أثر في الحجاز الاسلامي ، ولقد أفرد السيوطي في الاتقان ، فصلاً (ج ١ ص ١٣٥-١٤٠) للاتفاظ الاعجمية اواردة في القرآن . وله رسالة « المتوكلي » طبعت في نيوهيفن سنة ١٩٢٤ لدراسة ١٠٨ كلمات قرآنية اصلها اعجمي .

(٣) قابل ابن سعد ج ١ القسم ١ ص ١٣٦

(٤) ومن الالفاظ الفارسية في اللغة العربية فرند (سيف) وفردوس (سورة الكهف : ١٠٧) والمؤمنين :

(١١) وسجل اي حجر (سورة القيل : ٤) وبرزخ اي عقبة (سورة المؤمنين : ١٠٢) ، الرحمان : ٢٠ ، الفرقان : ٥٥ ، وزنجيل (سورة الانسان : ١٧) الخ .

حلقة الاتصال بين الثقافة الهلينية وبين الثقافة الاسلامية الفتية هكذا نشطوا في هذا العصر الى نقل افكار بني الشمال من آرامية وفارسية وهلينية الى قلب بلاد العرب الوثنية . ولعل تنصر تغلب القاطنة ربوع الشمال الشرقية وجيرانها من بني بكر ابن وائل كان من اثر هذا الاتصال .

١٠٤ ارض غسان

وكما كان لنساطرة الحيرة اثر على العرب المقيمين في تخوم فارس كذلك كان للمونوفيزيين القائلين بطبيعة المسيح الواحدة ، وهم يقيمون في ارض غسان ، اثر ظاهر على عرب الحجاز . وتسنى لهؤلاء الغسانيين في القرون الاربعة التي سبقت الاسلام ، وهم شعب سوري ، أن يجعلوا العالم العربي على اتصال لا بسورية فحسب بل ببيزنطة ايضاً . ولا يندر وجود اسماء علمية كداود وسليمان وعيسى بين اسماء العرب في الجاهلية . ومع ذلك فيجب الا يبالغ في اهمية هذه المؤثرات الشمالية او تقدر فوق ما تستحق لان كلتا الكنيستين المونوفيزية والنسطورية لم تكن لهما الحيوية ما يكفل لعقائدهما الدينية انتشاراً وشيوعاً ، وليست المعلومات التي جمعها الأب لويس شيخو^(١) كافية لاثبات ان النصرانية كانت موطدة في شمال الجزيرة . ولكنها تعكس صورة صافية لما كان يعيه شعراء الجاهلية من الآراء المسيحية الشائعة والتعابير النصرانية . والاشارات لبائعي الخمر من النصارى والاديرة والصوامع والصنوج والنواقيس التي يضرب بها اذا جاء موعد الصلاة ليست مألوفة كثيراً في الشعر الجاهلي . والمألوف هو ورود وصف الناسك المسيحي يأوي الى صومعته في عزلة القفر يرى القادم سراجة من بعيد او تشبيه نور ، بضوء مصباح الراهب كقول امرىء القيس^(٢) :

يضيء سناه او مصابيح راهبٍ آمالٍ السليط بالذبال المقتل

(١) النصرانية وآدابها - جزءان - (بيروت ، ١٩١٢ و ١٩١٩ و ١٩٢٣) وشعراء النصرانية ، مجلدان ، (بيروت ، ١٨٩٠) .

(٢) انظر معلقته في الزوزني البيت ٤٠ و ٧١ وقابل سورة المائدة : ٨٥ والنور : ٣٥ ولعل امرىء القيس نصراني ، انظر مقالا لمحمد صالح سمك في المقتطف ج ٧٨ سنة ١٩٣١ ص ٤٨١-٨٨٠

. ولا شك في ان رؤية المتعبد المتكشف دائماً على زهده في خلوته تركت أثراً عميقاً في التاجر العربي المتنقل بين مراكز القوافل في ربوع الشمال اذكت عاطفته الشعرية وخياله الواسع .

ونذكر من شعراء الجاهلية عدداً ابن زيد (نحو ٦٠٤ م) الذي عاش في الحيرة وساهم بنحظ وافر في بلاط اللخمين . وقسّ ابن ساعدة (المتوفى نحو ٦٠٠ م) الذي سمي خطأ « أسقف نجران » وهو مشهور بفصاحته وحكمه وعنترة ابن شداد (٥٢٥ - ٦١٥ م) الذي اصبحت اسمه في الادب العربي مرادفاً للشعر والفروسية . هؤلاء وامثالهم من شعراء الجاهلية يقال انهم كانوا نصارى . وتسربت الى اللغة العربية اذ ذاك طائفة من الألفاظ الآرامية منها كنيسة وبيعة ودمية وصورة وقسيس وصدقة ^(١) . ولم تنحصر هذه الألفاظ في ميدان الفكر والدين بل جاوزته الى ميادين الاقتصاد والاجتماع وسواهما من نواحي المدنية المادية كلفظة ناطور ونير وفدان . وكأن العرب ، وقد تغنى شاعرهم في ان ما يكسب المرء المجد والفخار هو رمي النبال وطعان الرماح لا الزراعة والحراثة ، لم يحفلوا بالمفردات الزراعية . ولفظة قنديل في الاصل لاتينية - كاندلا - انتقلت الى الاغريقية ثم الآرامية فالعربية . ولفظة كاسترم اللاتينية صارت في السريانية - قسطرا - وفي الآرامية الغربية قصرا ومنها قُصر في اللغة العربية وهذه هي اللفظة التي اعادتها لغتنا الى اوروبا في صورة كاسرو الايطالية والكازار الاسبانية .

• • البرود

لم يكن التوحيد الذي تأثرت به بلاد العرب من النوع النصراني فقط بل كانت هناك مستعمرات يهودية زاهرة في المدينة وفي واحات كثيرة من اعمال الحجاز الشمالي . وبواسطة هذه المراكز وسواها تطرقت الى مفردات اللغة العربية الفاظ عبرانية مثل جبريل وسورة وجبار . وفي « طبقات الشعراء » ^(٢) . تأليف

(١) راجع شيخو ، النصرانية ، ج ٢ ص ١٥٧ - ٢٢٦

(٢) نشره (لندن ، ١٩١٦) ص ٧٠ - ٧٤

محمد ابن سلام الجمحي (المتوفى ٨٤٥ م) باب خاص باليهود من شعراء المدينة وارباضها . وجاء في « الاغانى » عرض لعدد من شعراء بلاد العرب واليهود . ولكن لم يخلف احد منهم ديواناً الا السموأل (صموئيل^(١)) ابن عادياء صاحب الابلق الفرد قرب تيماء ، زعموا انه يهودي معاصر لامرىء القيس ، على ان شعره لا يمتاز بشيء يخرج به عن مستوى الشعر الذي صاغه سواه من شعراء الجاهلية . هذا ما حدا بالبعض حقاً الى الرية في يهوديته . وقد ذهبوا الى ان اليهودية اصبحت في ربوع اليمن دين الحكومة ابان حكم ذي نواس . ومهما يكن امر تلك الدولة التي قامت في الجنوب فلم يتحقق انها أثرت في حضارة الشمال الى حد يؤبه له .

والخلاصة التي نختم بها هذا البحث ان الحجاز في القرن السابق لرسالة محمد كان محاطاً بمؤثرات ثقافية - فكرية ودينية ومادية - منبعثة من مصادر بيزنطية وسورية (آرامية) وفارسية وحبشية . وقد اتيح له بواسطة علاقته بالفساسنة والمخمين واليمنيين ان يأخذ ما أخذ من هذه الثقافات الخارجية . ولكن ذلك لا يعني ان الحجاز تأثر بمدينة الشمال ، التي فاقت ما عنده مرتبة ، تأثراً عميقاً قلب جوهر ثقافته الخاصة . ومع ان النصرانية كانت قد علقت اصولها بنجران واليهودية باليمن والحجاز ، فلم يتم لها شيء من الهيمنة على العقلية العربية في الشمال . على ان وثنية الجزيرة البالية كانت تضععت وتدنت الى حيث اضاءت مكانتها ولم يبق لها فاعلية في احياء نفوس الامة الخاملة وإيقاظها فخرج عليها فئة اعتنقوا نزعة توحيدية غامضة . هؤلاء هم الخفاء^(٢) ومنهم أمية ابن ابي الصلت (المتوفى ٦٢٤م) وكانت تربطه بالرسول قرابة عن طريق امه . ومنهم ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة ولو أن بعض المصادر جعلت ورقة نصرانياً . اما من ناحية النظم السياسية فان الحياة القومية المنظمة التي نشأت قديماً بين عرب الجنوب كانت اذ ذاك متهدمة متضعضة . وقد تهيأت الاسباب ودنت الساعة لظهور زعيم ديني وقومي عظيم .

(١) ديوان السموأل ، الطبعة الثانية ، نشر شيخو ، (بيروت ، ١٩٢٠)

(٢) مفردا حنيف وهي مستمارة من الآرامية عن طريق النبطية .

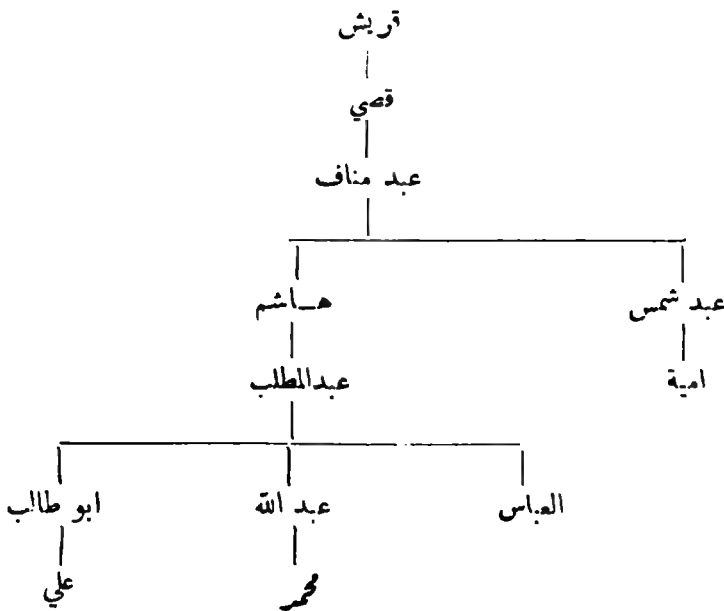
القسم الثاني

ظهور الإسلام ودولة الخلفاء

الفصل الثامن

محمد رسول الله

في السنة الحادية والسبعين بعد التمسئة او ما يقاربها ولد في قبيلة قريش بمكة صبي دعتة امه باسم قد يظل مجهولا ، وبعد أن شب اطلق عليه قومه لقب « الامين » ^(١) فلزمه . اما في القرآن فاسمه محمد (سورة آل عمران ، الآية ١٣٨ ؛ الاحزاب ، الآية ٤٠ ؛ الفتح ، الآية ٢٩ ؛ محمد ، الآية ٢) واحمد (مرة واحدة في سورة الصف ، الآية ٦) . وقد كثر تداول هذا الاسم محمد حتى ان عدد المذكور الذين يعرفون به يفوق عدد كل من تسمى باسم آخر . وكان عبد الله والد محمد قد توفي قبل ولادة الطفل فما أن بلغ السادسة من عمره حتى ماتت امه آمنة ايضاً . فتعهد أمره جده عبد المطلب الى أن ادركته الوفاة فآلت كفالة الغلام الى عمه أبي طالب .



(١) ابن هشام ص ١٢٥ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨ ؛ السعدي ج ٤ ص ١٢٤

ولما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره فيما يروى رافق عمه ابا طالب في رحلة الى الشام زعموا أنه قابل في اثنائها راهباً مسيحياً يعرف بالراهب بحيرا .
ومع أنه ليس بين انبياء العالم من ولد في ضوء التاريخ الاً محمداً فإن نشأته محاطة بالغموض فليس لدينا عن معيه في طلب الرزق ومحاولاته لبلوغ آماله وادراك الغرض الذي كان يرمي اليه وما قاساه من المشقة والألم في سبيل تحقيقه سوى قليل من الاخبار الموثوقة . وكان اول من كتب عن حياة النبي هو ابن اسحاق المتوفى في بغداد سنة ١٥٠/٧٦٧ وقد وصلت اليها هذه السيرة التي كتبها ابن اسحاق من رواية ابن هشام المتوفى في مصر نحو ٢١٨/٨٣٤ . ومهما يكن من أمر فانه ليس لدينا غير المصادر العربية لدرس حياة النبي وللبحث في تاريخ فجر الاسلام . وهناك مؤرخ بيزنطي اسمه ثيوفنس ^(١) زها في مطلع القرن التاسع الميلادي وكان اول مؤرخ بيزنطي ذكر شيئاً عن محمد ولكنه كان متحاملًا عليه فسماه حاكم الشرقيين ونبهيم المزعوم . واول اشارة الى محمد في اللغة السريانية هي تلك التي وردت في مؤلف يرجع الى القرن السابع ^(٢) .

ولم يبدأ الفصل الواضح من حياة محمد حتى تزوج وهو في الخامسة والعشرين من خديجة وهي تناهز الاربعين فوجد فيها خير النساء واغناه الله ^(٣) بما لها من جاه ومقام وسعة مال . وكانت خديجة بنت خويلد قرشية من بني اسد وقد تزوجت مرتين من بني مخزوم واصبحت من اوفر اهل مكة غنى . وكانت تستخدم رجلا من قريش في مالها منهم محمد . ولم يذكر محمد في الزواج من غيرها وهي في قيد الحياة .

وحسبك الطمأنينة والدعة في حياة محمد في هذه السنين من عمره التي كفاه الله فيها الحاجة الى متاع الدنيا . وفي سورة الضحى الآيات ٦ - ٩ اشارة الى ما اعطاه

(١) Chronographia, p. 333.

(٢) A. Mingana , Sources syriaques , vol. i , Bar-Penkayé (Leipzig , 1908) p . 146

(text) = p. 175 (tr.)

(٣) سورة الضحى : ٦ - ٩

الله من مال وراحة بال فتوفرت له السبل لكي يترك نفسه لسجيتهما من التفكير والتأمل . واعتاد محمد أن يذهب الى غار بأعلى جبل حراء ^(١) - على فرسخين من شمال مكة - ممعناً في التأمل والاستلهام . وفيما هو نائم يوماً في هذا الغار ^(٢) . سمع صوتاً يأمره قائلاً : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » الخ . . (سورة العلق) فكان هذا اول الوحي وبدء الرسالة (وعرفت ليلة ذلك اليوم من بعد ليلة القدر ^(٣) وعينت في انها ليلة السابع والعشرين من رمضان « ٦١٠ م ») .

ومرت به فترة من الزمن ثم سمع صوتاً يناديه للمرة الثانية فرجع محمد وقلبه يضطرب خوفاً حتى دخل على خديجة وهو يقول « زملوني » فرملته وهو يرتعد كأن به الحمى فنزلت « يا ايها المدثر قم فأنذر » الخ ^(٤) (سورة المدثر) وكانت الاصوات التي سمعها النبي تختلف عليه وتشكل ومنها ما يأتي احياناً مثل « صلصلة الاجراس » ^(٥) الى ان جاءت السور المدنية فاذا الصوت واحد واضح واذا بمحمد يتحقق أن هذا الصوت هو صوت جبريل .

دعي محمد الى تأدية رسالة الله كما دعي انبياء الله الغابرون . وتتلخص دعوته في أن الله واحد فرد علي عظيم وهو مبدع الكون وخالق الموجودات وان الآخرة خير من الأولى وان كل امرئ يوم القيامة مجزي بأعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر وان الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات النعيم .

الا ان قوم محمد اعرضوا عنه . وكانوا اذا جلسوا وجرى ذكره على لسانهم لم يثر اكثر من ابتسامات الهزء والاستخفاف . واضحى محمد نذيراً (سورة الملك ، الآية ٢٦ ؛ الذاريات ٥٠ ، ٥١) يلقي في افئدتهم الخشية ويردد الآيات في وصف يوم الدين ، يوم تجزي كل نفس بما كسبت ، ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود

(١) انظر ابراهيم رفعت ، مرآة الحرمين (القاهرة ، ١٩٢٥) ج ١ ص ٥٦ - ٦٠

(٢) البخاري ، صحيح ج ١ ص ٣

(٣) سورة القدر : ١

(٤) سورة المدثر : ١ الخ

(٥) البخاري ج ١ ص ٣

هو جاز عن والده شيئاً . وجاءت الآيات في وصف جهنم النار وتصوير آلام المعذنين فيها وسعادة الصالحين في فردوس النعيم .

ولكن القوم أمعنوا في ضلالهم واسرفوا في الاساءة اليه الا زوجته خديجة ، وكانت قد تأثرت بتعاليم ابن عمها ورقة ابن نوفل وهو حنيف ^(١) فكانت اول امرأة اسلمت ثم تلاها علي ابن ابي طالب ابن عم الرسول وابو بكر فهما اول من اسلم من الرجال . اما ابو سفيان زعيم بني امية وهم اشراف قريش فظل على خصومته للنبي . وتساءل بنو امية فيما لو اتيح لهذا الرجل ان يؤلب عليهم اهل مكة ويصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول اليه تجارة قريش ؟ وماذا يكون مقام معبوداتهم الكثيرة ومكة مثابة الحج واليها تشد الرحال من انحاء الجزيرة ؟

ازداد الاسلام انتشاراً بين العبيد والمستضعفين حتى ضاقت قريش ذرعاً بمحمد واصحابه ورأت ان الاستخفاف به لا يجدي فعولت على سلاح اشد فعلاً من ذلك فانصرفت الى الأذى والسعي الى صرف المسلمين عن ايمانهم بالعذاب والتشنيع . فنصح محمد لأتباعه ان يذهبوا الى ارض الحبشة فخرجوا في هجرتين . كانوا في الاولى احدى عشرة اسرة مكية ثم لحقت بهم في سنة ٦١٥ ثلاث وثمانون اسرة اخرى وفي مقدمتها اسرة عثمان ابن عفان . ووجد المسلمون في جوار النجاشي النصراني امناً ودعة . وبعثت قريش لتردهم اليها وبعد ان سألهم النجاشي عن امرهم قال : « ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، فوالله لا اسلمهم الى ايدي الاضطهاد » ^(٢) وجابه به محمد الاضطهاد وخسران المناصرين الموقت بلا خوف ولا وجل واستمر يعلم الناس ويعظمهم ويسعى الى جذبهم الى الاسلام عن سبيل العقل والاقناع لتركوا عبادة الآلهة وقبلوا الايمان باله واحد حق هو الله . وكانت الآيات تنزل عليه وهم ان يرى لقومه كتاباً كالذي بأيدي اليهود والنصارى .

وما لبث الأمر بعمر ابن الخطاب وهو من اشد قريش وقية في المسلمين ، حتى

(١) قابل ابن هشام ص ١٢١ ، ١٤٣

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧-٢٢٠ ؛ وقابل ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٦-٩

قصد الى محمد فأعلن اسلامه فوجد الاسلام فيه منعة وقبض لعمر أن يلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية الفتية كما سترى بعد . وقبل الهجرة بثلاث سنوات توفيت خديجة زوجة الرسول وتوفي ابو طالب عمه الذي كان على تمنعه من قبول الاسلام خير ملاذ لمحمد من خصومه . وفي هذه الفترة كان الاسراء^(١) والمعراج . وكان محمد ليلة الاسراء في بيت ابنة عمه هند ابنة ابي طالب وكنيتها ام هانيء فلما صلى الصبح قال : « يا ام هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه » . هذا هو الاسراء . ثم حملته دابة عجيبة هي البراق لها وجه المرأة واجنحة النسر . وذهب الطاووس الى السماء السابعة - هذا هو المعراج . وكانت المحطة في هذه الرحلة صخرة يعقوب في بيت المقدس ومن هنا اصبحت مدينة القدس المقدسة عند اليهود والنصارى جميعاً حرماً عند المسلمين ايضاً .

واعتبرت وما زالت تعتبر الحرم الثالث بعد مكة والمدينة في نظر العالم الاسلامي . واخذت كتب السيرة والتفسير الاسراء والمعراج ووقفت عندهما طويلاً تارة تطلب في هذه الحادثة معجزة رائعة واخرى تنصرف الى تصويرها والاستغراق في وصف ما رواه محمد في اسرائه^(٢) . وما زالت حلقات التصوف في ايران وتركيا تقيم لحديث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد عالم اسباني^(٣) ان الاسراء والمعراج مصدر « الرواية الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي دانتي . ومما يدل على ان ذكرى الاسراء لا تزال حية وذات اثر في الاسلام تلك الاضطرابات الخطيرة التي وقعت في آب من سنة ١٩٢٩ في فلسطين بشأن حائط المبكى في بيت المقدس وهو الذي يعتبره المسلمون الصخرة التي ربط اليها محمد البراق^(٤) قبل تعريجه الى السماء .

(١) سورة الاسراء : ١ ؛ البخاري ج ٤ ص ١٥٦ ، ٢٣٠ ؛ البغوي ، مصابيح السنة (القاهرة، ١٣١٨) ج ٢ ص ١٦٩-٧٢ ؛ الخطيب ، مشكاة المصابيح ، (سانت بطرسبرغ ١٨٩٨-٩) ج ٢ ص ١٢٤-٩ .
(٢) هيكل من ١٥٧-٦٠

(٣) Miguel Asin , *Islam and the Divine Comedy*, tr. H. Sunderland (London, 1926) (٣)
(٤) من البرق عند النعاة ويرى بلوشة ان لفظه براق مستعارة من الهلوية: باره = حصان ، واك للنسبة
Histoire de Religion, (Paris, 1899) vol. iv. ويطلق الاسم اليوم على حائط المبكى .

وفي سنة ٦٢٠ ميلادية قدم سوق عكاظ نفر من يثرب معظمهم من بني الخزرج فعرض عليهم محمد الاسلام فطابت نفوسهم بما سمعوا . ولم يطل بمحمد الانتظار حتى بدت له في الافق تباشير الفوز آتية من ناحية يثرب . ففي سنة ٦٢٢ وفد منها اليه وفد من خمسة وسبعين شخصاً بينهم امرأتان فبايعوه واحتكموا اليه في الخلاف الناشب بين الأوس والخزرج ودعوه الى اتخاذ يثرب (المدينة) مسكناً . ولجوار اليهود والعرب في يثرب أثر أبعد من هذا النزاع على الزعامة . فاليهود يحسبون انفسهم شعب الله المختار ويتربون ظهور المسيح . فنشأ عن اتصالهم بالعرب في يثرب ان الأوس والخزرج اصبحوا اكثر استعداداً من غيرهم من وثني العرب لاستماع الحديث في الشؤون الروحية ولتوقع زعيم ديني . واشتدت اساءة قريش لمحمد فخرج الى الطائف يطلب النصرة والمنعة باهلها من قومه ويرجو اسلامها ولكنه عاد خائباً . فأمر بعد رجوعه مثنين من اصحابه ان يلحقوا باخوانهم الانصار بيثرب وهي مسقط رأس امه على ان يبارحوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . اما الرسول فشحص الى يثرب فوصلها في ٢٤ ايلول سنة ٦٢٢ . فلم تكن الهجرة اذن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة استغرقت سنتين . واصبحت السنة الهجرية التي هاجر فيها الرسول الى يثرب (ابتداء من ١٦ تموز) اول العهد الاسلامي ^(١) وذلك امر اقره الخليفة عمر بعد وقوع الهجرة بسبع عشرة سنة .

وجاءت الهجرة فاتحة دور جديد من ادوار حياة النبي فهي آخر الحقبة المكية واول الحقبة المدنية . هجر محمد بلده التي نشأ فيها مهاناً مرفوضاً وقدم يثرب زعيماً مكرماً وهنا أخذ يصرف عنايته الى الوصول بيثرب الى وحدة سياسية نظامية وأخذ يلتفت الى امور السياسة وما تقتضيه من توحيد صفوف المسلمين .

انتهاز الانصار (وهو الاسم الذي عرف به اذ ذاك مسلمو المدينة) فرصة الاشهر الحرم وهم بحاجة الى ان يعيلوا المهاجرين بين ظهرانيهم فاعترضوا قافلة تجارية لقريش

كانت عائدة من رحلتها الى الشام في الصيف وبهذا وجهوا ضربتهم الى اعظم نقطة حيوية في حياة مكة العاصمة التجارية وهددوا خط التجارة الساحلي بين مكة والشام . وكان ابو سفيان نفسه يرأس قافلة قريش فاتصل به خروج محمد لاعتراضها فخاف عاقبة الامر فارسل رجالاً مسرعاً الى مكة ليستنفر قريشاً . فانطلق قوم من مكة ليمنعوا ما لهم واخوانهم . والتقى الجمعان في بدر وهي على بعد عشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من المدينة وكان ذلك في رمضان من سنة ٦٢٤ . وبفضل النبي وقيادته التي توحى الحماسة والشجاعة استطاع ثلاث مئة من المسلمين ان يغلبوا القاء من اهل مكة . وغزوة بدر هذه وان لم تكن بنفسها الا وقعة حربية بسيطة ^(١) فانها قد غدت مقدمة لانتشار سلطان النبي الزماني وبادرة لوحدة الجزيرة . وهي اول انتصارات الاسلام الحاسمة . وجاء الوحي « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فانتقوا الله لعلكم تشكرون » - (سورة آل عمران ، الآية ١١٩) « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الخ . (سورة الانفال ، الآية ٤٢ - ٣) . وقد اعتبر هذا النصر معجزة وتعضيداً من الله لهذا الدين الجديد ^(٢) . وظلت روح النظام والبأس وازدراء الموت التي تجلت في هذه المعركة الاولى في الاسلام ملازمة له في معاركه الكبرى ابان عصر الفتوحات . ولم تصبر قريش على عار بدر بل جمعت جموعها برئاسة ابي سفيان ونازلت المسلمين (٦٢٥) في أحد ^(٣) ودارت الدائرة على المسلمين واصابت الحجارة التي قذفها قريش النبي فوق وشج وجهه . الا ان فوز قريش لم يدم فما لبث الاسلام ان استرجع قواه وتحول من دور الدفاع الى دور الهجوم . ولم يبق شيء يحول دون

(١) افرز الواقدي (المتوفى ٢٠٧/٨٢٣) اكثر من ثلث « كتاب المغازي » ص ١١-٧٥ لذكر واقعة بدر وابطالها .

(٢) القرآن ٣ : ١١٩ ، ٨٠ : ٤٢-٤٣

(٣) جبل صغير في ظاهر المدينة .

لانتشاره وامتداده . وقد كان الإسلام الى ذلك الوقت عبارة عن دين في دولة ، اما في المدينة بعد بدر فقد أصبح أكثر من دين دولة ، انه أصبح الدولة نفسها ومن هناك منذ ذلك الوقت خرج الى العالم قوة حربية سياسية .

- واقبلت سنة ٦٢٧ فاذا الأحزاب وهي تتألف من المكين واعوانهم من البدو ومرتزة الاحباش قد عسكرت بمقربة من المسلمين تريد اقتحام مواطنهم وخرجت الوثنية لحرب الله . فعمل محمد بنصيحة سلمان الفارسي ^(١) . وكان هذا فيما يقال قد اشار عليه بحفر خندق ^(٢) حول المدينة . وايقنت قريش ومن معها انها مقيمة امام يثرب وتخذلها طويلاً دون ان تستطيع اقتحامها وأسقط في يد شرادم البدو التي لم تكن تتوقع نوعاً كهذا من الدفاع الجهول واعتبرت الاحتماء وراء الخندق جيناً لا عهد للعرب به . فانسحب الأحزاب وعادوا ادراجهم من بعد حصار شهر . وكانت قتل الطرفين لا تتعدى العشرين نفساً . وعاد محمد بعد رحيل الأحزاب فحمل على اليهود يريد الاقتصاص منهم لمعاونتهم للأحزاب يوم كانوا على ابواب المدينة ومؤازرتهم في القتال بالمسلمين . فعرض عليهم أن يسلموا فيأمنوا على دمائهم واموالهم وابنائهم فابى بنو قريظة وهم في مقدمة قبائل اليهود فحكم الرسول بقتلهم فضربت اعناق ست مئة مقاتل منهم واجلي الباقون عن مساكنهم . واقتسم المهاجرون اموالهم واحتلوا ما لهم من جنان النخيل ^(٣) . وكان بنو قريظة اول خصوم الاسلام الذين خيروا بين الاسلام او الموت . وكان النبي في السنة السابقة قد امر بني النضير ^(٤) وهم قبيلة من يهود المدينة ايضاً بالجلاء ، اما يهود خيبر فاخرجهم من واحتمهم الخبيصة في الشمال من المدينة سنة ٦٢٩ (٧ هـ) .

وفي هذا العهد المدني تم تنظيم الاسلام وحدة عربية قومية . وقطع النبي الجديد

(١) قابل Josef Horowitz, *Der Islam*, vol. XII (1922), pp. 178-83

(٢) لفظة خندق العربية مأخوذة من كندك البهلوية الفارسية عن طريق الآرامية .

(٣) سورة الأحزاب : ٢٦-٢٧

(٤) البلاذري ص ١٧-١٨ ؛ الواقدي ص ٣٥٣-٦

صلته باليهودية والنصرانية . وعين يوم الجمعة للصلاة الجامعة واعتض بالاذان عن
النفع بالبنوق وقرع الاجراس وجعل رمضان شهراً للصوم وحولت القبلة من بيت
المقدس الى مكة وأقر الحج الى الكعبة ولثم الحجر الاسود فيها وهما من فروض
الدين المرعية في الجاهلية .

وفي سنة ٦٢٨ سار محمد بصحبة الف واربع مئة من المؤمنين الى مكة مسقط
رأسه فجرت بينه وبين قريش مفاوضات انتهت بتوقيع صلح الحديبية الذي وضع
المسلمين على قدم المساواة مع المكيين ^(١) . وقد انهى هذا الصلح بالفعل ما كان
بين محمد وبين قومه قريش من حرب . وكان بين الذين دخلوا في الاسلام اذ ذاك
خالد ابن الوليد وعمر بن العاص اللذان قدر لهما فيما بعد ان يرفعوا لواء الاسلام عالياً
ويحملوا سيفه ظافراً الى شتى البلدان . وتم فتح مكة بعد انقضاء سنتين على صلح
الحديبية (في اواخر كانون الثاني سنة ٦٣٠ / ٨) فدخل محمد الكعبة وامر باصنامها
فحطمت وطهر البيت الحرام منها وكان عددها على ما قيل يبلغ ثلاث مئة وستين .
وجعل محمد يشير الى هذه الاصنام بقضيب في يده وهو يقول : « وقل جاء الحق
وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » ^(٢) . وامكنه الله من قريش التي كانت
تأتمر عليه . الا ان محمداً قدر فعلاً ^(٣) . وقلماً تجدد في التاريخ القديم مثلاً للعفو
عند المقدرة يعادل هذا المثال .

والراجح ان محمداً في هذه المدة ^(٤) اقر المسجد الحرام اي الكعبة وما يحيط
بها من ارض حرماً لا يجوز للمشركين ان يقربوه . ونزلت الآية ٢٨ من سورة
التوبة . « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد
عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم »

(١) البلاذري ص ٣٥-٦

(٢) البلاذري ص ٤٠ وقابل سورة الاسرى : ٨٣

(٣) الواقدي ص ١٦٤

(٤) ابن سعد ج ٢ قسم ١ ص ٩٩ وقابل البيضاوي ج ١ ص ٣٨٣

فانتهج المفسرون منها طريقاً للقول في أن الله قد حرّم علي غير المسلمين الاقتراب منها .
والظاهر ان المراد من هذه الآية هو منع عبدة الاوثان من الحجى الى الكعبة في
موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مرعياً الى يومنا هذا ^(١) . ولا يزيد
عدد النصارى الاوروبيين الذين افلحوا في الوصول الى الحرمين الشريفين ونجوا
بأنفسهم على الخمسة عشر رجلاً اولهم لودفيكو دي فارتما من اهالي بولونية ^(٢) . في
سنة ١٥٠٣ وآخرهم إلدن رتر الانكليزي ^(٣) . اما اكثرهم فضلاً على العلم فهو
بلا ريب السر رتشرد برتن (١٨٥٣) ^(٤) .

واقام محمد في السنة التاسعة للهجرة حامية في تبوك على حدود غسان . ولما لم يلق
كيداً صالح صاحب أيلة (العقبة) وهو نصراني كما انه صالح قبائل اليهود المقيمين
في واحات أذرح ومقنا والجرباء ^(٥) الى الجنوب . واقام محمد عند الحدود يتحدى
من شاء ان ينازله او يقاومه . فاقبل النصارى يصالحونه فاعطوه الجزية فكتب لهم
رسول الله كتب أمن واحاطهم بكل صنوف الرعاية . وكانت الجزية تشمل الخراج
والضريبة فاصبحت هذه الجزية سابقة لها شأن بعيد في تطورات السياسة الاسلامية
من بعد .

وتسمى السنة التاسعة (٦٣٠-٣١) « سنة الوفود » لان الوفود كانت فيها ترد
تتري الى المدينة لتنضم الى الدين الجديد ولتعلن الطاعة للنبي الامير . ودخلت كثير

(١) محمد ليب البتوني ، الرحلة الحجازية ، (القاهرة ، ١٣٢٩) ص ٤٧ وفيه : « ترى الآن أهل
الحرمين انفسهم يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يقدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبم وصنعاء جنوباً ومحطة
الاعلا شمالاً احد من الاجانب بالمرّة وان فعل فاهو الامورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد . »

(٢) انضم لودفيكو الى جماعة الحجاج في دمشق وهو متنكر في زي ممالك مصر ، ووصف رحلته الى الحجاز
في كتاب بالاطالية (سنة ١٥١٠) نقل الى سواها من لغات اوربا ودحض افتراء بعض الاوربيين الشائع في
اقطار الغرب آثذ والفائل ان جسم محمد بعد وفاته ظل معلقاً في الفضاء فوق مكة . انظر *The Travels of*
Ludovico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Arabia Felix, tr. J. W.
Jones (Hakluyt Society, vol. xxxii, London, 1863), pp. 25 seq.

(٣) Rutter, *The Holy cities of Arabia*, 2 vols. (London, 1928)

(٤) Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to el Medinah and Meccah*, 3 vols. (

(٥) البلاذري ص ٥٩ ومايلي .

من القبائل في الدين الجديد إذعاناً لمتعضيات الظروف ان لم يكن عن عقيدة وإيمان . ولم يكن الاسلام يطالب المنضوين فيه الا بالشهادة الشفهية وتأدية الزكاة . ويستدل على كثرة الداخلين في الاسلام من البدو بقول يعزى الى عمر : « البدو مادة الاسلام » . وكانت القبائل والانحاء التي لم ترسل ممثلها قبلاً تسرع الآن في ارسال وفودها من اقاصي عُمان وحضرموت واليمن وبينهم ممثلو طيء وهمدان وكندة على قول الروايات . واقبل عدد من القبائل التي لم تكن قد أذعنت لرجل واحد من قبل تقدم الطاعة لمحمد وتعلن له الاسلام .

وفي السنة العاشرة للهجرة دخل محمد ظافراً على رأس موكب الحج السنوي الى مكة عاصمته الدينية الجديدة . وكانت هذه آخر مرة يحج فيها النبي فسميت « حجة الوداع » ^(١) . وبعد ثلاثة اشهر مرض النبي فجأة فمات وهو يشكو من صداع شديد وذلك في الثامن من حزيران سنة ٦٣٢ .

وفي الدور المدني انزلت سور القرآن الطويلة وهي على العموم غزيرة المادة وقد ورد الكثير منها في اسلوب جدلي او تشريعي . ويلاحظ في هذه السور تنظيم امور الصوم والزكاة والصلاة وقوانين اجتماعية وسياسية وترتيب مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد واسرى الحرب والاعداء ولقد اوصى القرآن خيراً وبراً بالعبد واليتيم والمساكين وابن السبيل والبائس . أولم يجد الله الرسول يتيماً معدماً فأواه ؟ « فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر » ^(٢)

ولم ينس محمد وهو في ذروة المجد ايام فقره وخمول ذكره بل بقي زاهداً في الطعام واللباس يسكن بيتاً من الطين كأكثر المنازل الخفية في الجزيرة وفي الشام اليوم ، بضع غرف حول بهو ينفذ الداخل اليها منه . وكثيراً ما كان يرى يصلح ملابسه بيديه ويشارك اهل مكة في حياتهم العامة . وكان عند محمد اول ما اشتد

(١) الواقدي ص ٤٣٢

(٢) سورة البقرة : ١٧٢ ، ٢١٨ ؛ سورة النساء : ٤٠ ؛ سورة التوبة : ٦٠ ؛ سورة النور : ٣٣ ؛

سورة الضحى : ٩ . وقابل . Robert Roberts, *The Social Laws of the Qorân* (London, 1925)

المرض به سبعة دنانير تصدق بها جميعاً على قراء المسلمين . ولقد تزوج النبي من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوج منها بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسي أو اجتماعي . وولدت له خديجة عدداً من البنين والبنات فمات البنون ولم يعيش بعده من البنات الا فاطمة زوج علي . وحز موت ابنته في نفسه ولكنه تعزى حين ولد له من مارية القبطية ولد اسماء ابراهيم . ولم يعيش ابراهيم طويلاً ففرض ومات وحزن النبي عليه حزناً مريعاً . وتركت اعمال محمد اليومية وسلوكه في الامور الخطيرة والتافهة أبعد الاثر في النفوس بحيث اصبحت قدوة يقتدي بها الملايين الى يومنا الحاضر . ولم يحدث ان اعتبر شخص واحد عند أي طائفة من طوائف الجنس البشري المثل الكامل للانسان فقلدت افعاله بمنتهى الدقة كما حدث لمحمد .^(١)

ومن هذا المجتمع الديني في المدينة نشأت فيما بعد دولة الاسلام وبقي الدين أس اجتماعها كما كان للمهاجرين والانصار . وهذه اول محاولة في تاريخ الجزيرة لتنظيم الجماعة العربية تنظيمًا غير مألوف من قبل قائماً على أساس الدين لا أساس الدم كما كان في الماضي ومرتبطاً بالله الواحد الفرد يمثل الوحدة السياسية . وكان الرسول مادام على قيد الحياة هو المنفذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامة المدنية . وعلى هذا كان محمد علاوة على مقامه الروحي يمارس السلطة الزمنية نفسها التي يمكن ان يمارسها رئيس الدولة ومن هنا اصبحت جميع افراد الجماعة الاسلامية بقطع النظر عن نزعاتهم القبلية وولائهم القديم اخواناً في العقيدة واعضاء في اخوية واحدة يجمعهم حب الله والخضوع لرسوله . وهذه كلمات الرسول في خطبته الجامعة في حجة الوداع : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ! تعلمن ان كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرء من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه »^(٢) . وهكذا فقد قضى الاسلام دفعة واحدة على قرابة الدم وهي اوثق صلة تربط بين

القبائل واستعاض عنها بقرابة جديدة هي قرابة الايمان بحيث نشأت شبه جامعة اسلامية لبلاد العرب . ولم يكن لهذا المجتمع الجديد كهنوت او زعامة دينية ذات رتب او بلاط مركزي للدين كالمجلس البابوي في النصرانية . وكان للمسجد في هذا المجتمع قيمة خاصة فهو بمثابة دار الندوة وساحة التدريب العسكري كما انه كان مكان التقرب والعبادة . وكان الامام في الصلاة هو ايضاً الامير الاكبر لجيش المؤمنين الذين كانت تجمع بينهم روابط قوية متآزرين للدفاع عن انفسهم متحدين ضد العالم اجمعين . اما العرب الذين ظلوا على وثنيتهم فهم خارج الجامعة الروحية في نظر الامة . وللحج الاسلام ما قبله فالحجر والميسر - وهما من بعد النساء اعز ما كان يتوق اليه العرب - حرمهما في آية واحدة ^(١) . ونبد الغناء وهو ايضاً مما تستطيه نفس العربي . ويبدو الاختلاف بين العهد الجاهلي والعهد الاسلامي في كلمات نسبتها الرواة الى جعفر ابن ابي طالب قيل كلم بها النجاشي يوم أحضر هذا المهاجرين وسألهم في دينهم فقال جعفر :

أيها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل كل الميتة ^(٢) ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل كل قوي منا الضعيف فكنا في ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه واماته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والاوثان . وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ^(٣) ... فصدقناه وآمنا به واتبعناه ^(٤) ...

(١) سورة المائدة : ٩٢

(٢) قابل سورة البقرة : ١٦٨

(٣) الواقع ان فريضة الصوم لم تحدد حتى انتقل الرسول الى المدينة اى بعد الهجرة الى الحبشة بزمان طويل.

سورة البقرة : ١٧٩ ، ١٨٣

(٤) ابن هشام ص ٢١٩

ومن المدينة امتدت اصول الحكم الاسلامي الى كل نواحي الجزيرة وانتشرت من بعد في معظم اقطار آسية الغربية وافريقية الشمالية . وكانت الجماعة المدنية اذاً مثلاً مضغراً لما وصلت اليه الدول الاسلامية بعدئذ من اتساع الرقعة وترامي الامصار . ولقد استطاع محمد في سحابة عمره وهو غير طويل ان يهيء الوسائل لنشوء أمة فتية لم تكن قد نهضت من قبل تتألف من قبائل تأبى الاتحاد في بلاد كانت حتى ذلك الوقت « تعبيراً جغرافياً » قليلة الشأن ، وأن يؤسس ديناً دحر النصرانية واليهودية في الشرق الادنى وحل محلها وهو لا يزال دين جزء كبير من الجنس البشري . واستطاع فوق ذلك ان يضع حجر الاساس لامبراطورية ما لبثت ان جوت بين أطرافها المترامية أجل مقاطعات العالم المتمدين في ذلك العصر . وكان محمد امياً^(١) ومع ذلك فقد انزل على يديه كتاب لا يزال ثمن سكان العالم يحسبونه آية العلم والحكمة والدين .

(١) ان لفظة « امي » في القرآن (آل عمران : ١٩) تطلق في رأي اهل السنة على من لا يقرأ أو يكتب إلا أن الطبري ، تفسير : ج ٣ ص ١٤٣ يقول ان الاميين هم « الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب » . والنقادة من العلماء يرون ان لفظة امي في القرآن (سورة الاعراف : ١٥٦ ؛ آل عمران : ٦٨-٩٠ ؛ الجمعة : ٢) ترمز الى غير أهل الكتاب ويجب ان تفسر بمعنى الذي لا يقرأ الاسفار المقدسة مما عند اليهود والنصارى .

الفصل التاسع

القرآن كتاب الله

في السنة التي تلت وفاة النبي عهد ابو بكر ، فيما تذهب اليه التقاليد الاسلامية ، الى زيد ابن ثابت كاتب النبي ان يجمع اجزاء القرآن المبعثرة من المخطوطات المختلفة . ويقال ان عمر هو الذي أشار بذلك على ابي بكر لما لاحظ ان القتل قد استحرّ في القراء (حفظة القرآن) في حروب الردة وخشي على القرآن من الضياع ولقد تم جمع المصحف الكريم من قطع العسب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) والواح اللخاف (حجارة بيض رقاق) ومن صدور الرجال ^(١) فجيء بهذه المقطعات وعورض بعضها ببعض ثم اثبت النص القرآني . وفي خلافة عثمان (٦٤٤ - ٥٦) راجت قراءات شتى في المتداول من مخطوطات القرآن المكتوبة بالخط الكوفي فانتدب الخليفة في سنة ٦٥١ لجنة للمراجعة رئيسها زيد ابن ثابت نفسه ايضاً . وكانت نسخة ابي بكر اذ ذاك في حيازة حفصة بنت عمر - احدى زوجات النبي - فاحضرت وُعول عليها فصارت اساساً لمصحف عثمان هذا . ثم حفظت المخطوطة الاصلية من صورة المصحف الجديد في المدينة ^(٢) بعد أن كتب ثلاث نسخ منها بعث بها الى جيوش الاسلام المرابطة في دمشق والبصرة والكوفة وامر بكل نسخ القرآن الاخرى ان تباد .

اما في رأي العلم الحديث فان المصحف الذي كتبه زيد ابن ثابت لا يبي بكر

(١) الخطيب ، مشكاة ، ج ١ ص ٣٤٣

(٢) يقال ان ولاية الامر الترتك قدموا هذه النسخة هدية الى الامبراطور وليم الثاني . انظر معاهدة فرساي ،

القسم الثامن ، الباب الثاني ، المادة ٢٤٦ .

الصديق كان مصحفاً خاصاً لا رسمياً . وان عثمان وجد بضعة مصاحف في الجزيرة
وسورية والعراق بدت فيها قراءات مختلفة ، فأخذ مصحف المدينة وجعل كتابته
مصحفاً رسمياً و امر باحراق ما عداها من صحف ومصاحف . واخيراً ثبت النص
القرآني على يد الوزيرين ابن مقلة وابن عيسى في سنة ٩٣٣/٣٢٢ بمساعدة العلامة
ابن مجاهد الذي اجاز قراءات سبعاً كانت قد نشأت لخلو مصحف عثمان من النقط
والشكل . ولقد اتفق دارسو القرآن من نقادة العلم الحديث على صحة الرواية في
نسخه المتداولة اليوم وان هذه النسخ تكاد ان تكون مطابقة للاصل الذي اقره زيد
وان نص القرآن المعروف اليوم هو كما نزل على لسان محمد ^(١) .

والقرآن عند المسلمين كلمة الله التي املاها جبريل على محمد من كتاب مكنون في لوح
مخفوظ في السماء السابعة (سورة الزخرف الآية ٣ ، الواقعة : ٧٦-٩ ، البروج : ٢١-٢) ^(٢) .
وليس معنى السور فقط هو الذي اوحى به من الله بل كل كلمة وكل حرف .
ومن يتحرر القرآن يجد ان لسوره ترتيباً سطحياً جامعاً لنظام الطول والقصر .
فالسور المكية وهي نحو تسعين راجعة لعهد الجهاد في حياة النبي وتمتاز بانها قصيرة
حادثة حماسية ذات اسلوب ناري مليئة بالمعاني النبوية وتدور السور المكية حول
وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبية وما ينتظره من ثواب وعقاب .
اما السور المدنية فاربع وعشرون (نحو ثلث القرآن حجماً) ولقد انزلت في الدور
الذي انتصر فيه النبي . وهي طويلة مفصلة غنية بالمادة التشريعية . فيها وردت
العقائد والسنن لانظمة الصلاة والصوم والحج والاشهر الحرم . وفيها ايضاً تحريم الخمر
ولحم الخنزير والميسر واحكام لتنظيم المال والحرب وتطبيقها على شؤون الزكاة والجهاد ،
وشرائع مدنية وجنائية تتعلق بالقتل والتأثر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنى
والميراث وتحرير العبيد . ومعظم هذا التشريع وارد في سورة البقرة وسورة النساء

Arthur Jeffery, *Materials for the History of the Text of the Koran* (Leyden, (١
1937), pp. 1-10; و قابل Hartwig Hirschfeld, *New Researches into the Composition and
Exegesis of the Koran* (London, 1902), pp. 138 seq.

(٢) راجع البيضاوي ، ص ٢٣٥ ، ٣٠٩ ، ١٠-٣٩٦

وسورة المائدة . اما أحكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها (سورة النساء ، الآية ٣) (١) فهي في الحقيقة تحدد عدد الزوجات ولا تقر التعدد الذي كان مألوفاً . ويرى النقاد ان احكام الطلاق (سورة النساء ، الآية ٣٤ والاحزاب : ٤٨ والبقرة : ٢٢٩) هي اكثر الاحكام عنفاً وشدة وان الاحكام التي تعنى بمعاملة العبد واليتيم والغريب (سورة النساء الآية ٢ ، ٣ ، ٤٠ ، والنحل : ٧٣ ، والنور : ٣٣) هي اكثر التشريع الاسلامي رحمة وانسانية ورفقاً وبراً . ولقد علم القرآن ان اعتاق العبد نافلة يرضاها الله من الانسان كفارة عن الذنوب . ومن اوقع آيات القرآن في النفس وانبليها الآيتان ٢٥٦ ، ١٧٢ من سورة البقرة .

ولاخبار القرآن التاريخية امثلة تقابلها في التوراة خلا بعض الانباء التي هي عربية محضة كذكر عاد وثمود ولحيان و « اصحاب القيل » وخلا قصتين ترمزان الى الاسكندر (٢) والى اصحاب الكهف . الا ان هذه الاخبار قد سردت بأسلوب مختصر . ومن رجال العهد القديم الذين وردت اسمائهم في القرآن مراراً : آدم ونوح وابراهيم (٣) (وقد ورد اسم الاخير سبعين مرة في خمس وعشرين سورة وابراهيم اسم السورة الرابعة عشرة ايضاً) واسماعيل ولوط ويوسف (والسورة الثانية عشرة سميت به) وموسى (وقد ورد اسمه في ٢٤ سورة) وطالوت (شاول) داود وسليمان والياس وايوب ويونس (وسميت السورة العاشرة به) . ولقد وردت الاشارة الى خلق الانسان وسقوط آدم خمس مرات والى قصة الطوفان ثماني مرات والى قصة سدوم ايضاً ثماني مرات . والتوازي ظاهر بين القرآن واسفار موسى

(١) قابل سورة المراج : ٢٩-٣٠

(٢) سورة الكهف : ٨٢ وما يلي ، حيث يظهر ان لذي القرنين وظيفة مقدسة انتدبه الله لها . وفي نبوة دانيال ١١ : ٥ ، ٢١ اشارة واضحة للاسكندر . اما أصل تلقب الاسكندر بذئ القرنين فغير معلوم ولعله مأخوذ من صورته الظاهرة على بعض النقود المكيكة ويبدو فيها قرناً كبش كقرني الاله عمون الذي تشبه الاسكندر به .

(٣) وفي السور المدية يصحح ابراهيم حنيفاً ، ومسلماً في آل عمران : ٦٠ وهو سلف محمد الامثل والجد الروحي للاسلام (النساء : ١٢٤ ، آل عمران : ٦١) ومؤسس الكعبة (البقرة : ١١٨ وما يلي) وفي التوراة هو خليل الله (اشعيا : ٤١ : ٨ ، سفر الاخبار الثاني ٢٠ : ٧) كذلك هو في الانجيل (رسالة يعقوب ٢ : ٢٣) وفي القرآن (النساء : ١٢٤) .

الخمسة ^(١) أكثر من سواها من اقسام العهد القديم .

ويقصد من عرض هذه القصص التوصل الى عبرة اخلاقية وما المقصد الاسنى مجرد سرد حكاية بل البلوغ بالقارىء . والسامع معاً الى مغزى سام او عظة ادبية مثلى كأن يعلن للناس ان الله في القديم كان يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير علي شره . اما قصة يوسف فلقد جاءت في قالب واقعي جذاب والاختلافات البسيطة في هذه وامثالها من القصص الاخرى كقصة استجابة ابراهيم لدعوة الله الواحد الحق (الانبياء ٥٢ وما يلي) عن المعروف في التوراة لها نظائرها التي تقابلها في المشنة والتلمود وسواهما من كتب اليهود القانونية ^(٢) .

ولا يذكر القرآن من اشخاص الانجيل ذكراً واضحاً الا زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ويسوع (عيسى) ومريم . والاسمان الاخيران يغلب ورودهما معاً . ومريم ام عيسى هي بنت عمران واخت هارون ^(٣) في آن واحد . اما هامان الذي تعرفه التوراة كأحد المقربين الى عرش احشوريش ^(٤) فهو في القرآن وزير فرعون ^(٥) ملك مصر . والجدير بالذكر ان اسماء شخصيات التوراة الواردة في القرآن جاءت على ما يظهر عن طريق اللغة السريانية (مثل نوح) واليونانية (مثل الياس ويونس) لا مباشرة عن طريق اللغة العبرانية .

وان دراسة القصص القرآنية السابقة ومعارضة آياتها بما في التوراة لا تثبت ان هنالك اقتباساً صريحاً واليك العبارات التي تتوازي في الكتابين المقدسين : البقرة الآية ٤٤ - ٥٨ واعمال الرسل ٣٦:٧ - ٥٣ ؛ البقرة : ٢٧٣ وانجيل متى ٦ : ٣ ، ٤ ؛ يونس ٧٢ ورسالة بطرس الثانية ٢ : ٥ ؛ يونس : ٧٣ ، النور : ٥٠ والثنية ٦:٥ - ٢١ ؛

(١) هذه الاسفار الخمسة هي التوراة ، من اللفظة العبرانية : توراه - اي الصريعة مع ان الشائم اليوم ان تطلق كلمة التوراة على كل اسفار العهد القديم .

(٢) راجع The Legacy of Israel, ed. E.R. Bevan and C.Singer (Oxford, 1928) pp. 129-74

(٣) سورة مريم : ١٦ - ٢٩ ؛ آل عمران : ٣١ - ٤٠

(٤) سفر استير ٣ : ١

(٥) سورة القصص : ٣٨ ؛ المؤمن : ٣٨

الانبياء ٢٠ ورؤيا يوحنا ٤ : ٨ ؛ المؤمنين ٣ : متى ٦ : ٧ ؛ يس : ٥٣ وتسالونيكي الاولى ٤ : ١٦ ؛ الزمر : ٣٠ متى ٦ : ٢٤ ؛ الثوري : ١٩ ؛ وغلطية ٦ : ٧-٩ ؛ القتح : ٢٩ ومرقس ٤ : ٢٨ ؛ الليل : ١٨ ؛ ولوقا ١١ : ٤١ . وليس في القرآن سوى آية واحدة (١٠٥ من سورة الانبياء) حسبها بعضهم مقتبسة رأساً من التوراة (المزامير ٣٧ : ٩) . والتشابه صريح في الآيات بين الانبياء : ١٠٤ واشعيا ٣٤ : ٤ ؛ النجم ٣٩-٤٢ وحزقيال ١٨ : ٢٠ ؛ النجم : ٤٥ وصموئيل الاول ٢ : ٧ . اما الآيات التي وردت فيها عبارات مثل « بالعين بالعين » (المائدة : ٤٩ قابل الخروج ٢١ : ٢٣ - ٧ والجل في « سم الخياط » (الاعراف : ٣٨ قابل متى ١٩ : ٢٤) و « من اسس بنيانه على شفا جرف هار » (سورة التوبة : ١١٠ قابل انجيل متى ٧ : ٢٤ - ٧) و « كل نفس ذائقة الموت » (الانبياء : ٣٦-٣٧ والعنكبوت : ٥٧ وآل عمران : ١٨٢ قابل العبرانيين ٩ : ٣٧ ؛ ٢ : ٩ متى ١٦ : ٢٨) فالظاهر انها من الامثال السامية القديمة وجوامع الكلم المألوفة في العبرانية والعربية معاً . واكثر الامثلة على التوازي بين الكتابين هي بين انجيل متى والسور المكية . اما العجائب التي ينسبها القرآن الى عيسى كالتقول انه « يكلم الناس في المهد » (آل عمران : ٤٤) وانه خلق من الطين كهيئة الطير (آل عمران : ٤٣) فهي تذكرنا ببعض الخوارق التي نسبت الى عيسى في الاناجيل الابوغرافية (اي غير الموثوق بها) وخصوصاً في انجيل الطفولية ، ولسنا نرى في القرآن شيئاً يتوازي مع ما ورد في اسفار الفرس المقدسة الا صورة السماء والجحيم وهي مرسومة بريشة قد غطست في اصباغ ملونه تغلب فيها المادة على الروح (الواقعة ٨-٥٦) . وان لقي كتب الفرس ما يقابل ذلك . ويقال ان صورة النعيم والجحيم التي اخرجها القرآن اوحتها الرسوم الدقيقة او بدائع الفسيفساء التي خلفها النصارى مما يمثل به جنان الفردوس . وفيها صور الملائكة رسمت على اشكال الولدان والخور .

وعلى الرغم من أن القرآن هو احدث الكتب التي غيرت مجرى التاريخ فانه

اوسع الكتب المدونة انتشاراً ويقرأ اكثر من غيره . وليس القرآن كتاب دين فحسب بل هو كتاب درس واطلاع يعتمد عليه كل مسلم ومسلمة في تعلم اللغة العربية .. وليس للقرآن ترجمة الى لغة اجنبية يعترف بها المسلمون ولكن هناك ترجمة تركية رسمية وعدة ترجمات لمعاني القرآن قد اصدرها المسلمون في لغات شتى منها الفارسية والبنغالية والاردية والمرثية والجاوية والصينية . وبلغت اللغات التي ترجم اليها القرآن نحو اربعين لغة ^(١) . وكان المسلمون الى مدة متأخرة يعتمدون في نشر القرآن على طبع الحجر (ليتوغراف) او المخطوطات ولم يحبذوا طبعه على آلات الطباعة . ولقد اجصت آياته وكلماته وحروفه بعناء ودقة فكانت آياته (٦٢٣٦) وكلماته (٧٧٩٣٤) وحروفه (٣٢٣٦٢١) . وبلغ احترام المسلمين للقرآن وتكريمهم له مداه الاقصى اذ شاعت فكرة بعيد عصر النبي تقول ان القرآن غير مخلوق « ونرى ان هذه الفكرة صدى لنظرية « الكلمة » على حد قول الانجيل « والكلمة كانت عند الله » . لذلك فالقرآن لا يمس الا المطهرون » ^(٢) (هذه نظرية اللوغس ^(٣) اليونانية) . وليس نادراً في هذا الزمن ان ترى مسلماً يلتقط ورقة من الارض فيضعها بخشوع في مكان امين من جدار لئلا يكون اسم الله عليها .

ولفظة قرآن معناها الاصلي قراءة او خطبة او محاضرة . وهو كتاب حي فعال

(١) اول ترجمة للقرآن الى لغة اجنبية كانت الى اللاتينية وقام بها نحو سنة ١١٤١ بطرس راهب كلني الملقب بالحقير (Venerable) بمساعدة ثلاثة من علماء النصارى وآخر عربي . وكان يحاول في ترجمته السقيمة هذه ان يدحض المعتقدات الاسلامية . ثم ظهرت اول ترجمة انكليزية سنة ١٦٤٩ في لندن وقام بها اسكندر روس معتداً على ترجمة افرنسية اصدرها سيور دي زير . اما ترجمة سيل الانكليزية (١٧٣٤) فقد سلك فيها طريق التصرف واعتمد على نسخة لاتينية اصدرها مارانشي سنة ١٦٩٨ . ثم جاء رودول (١٨٦١) فترت السور حسب تاريخ تزوها . واصل بالمر (١٨٨٠) ترجمة جديدة سعى فيها الى الاحتفاظ بالرواق النبري ولكن بالمر ورودول تأثرا بترجمة سيل . ومن الترجمات القليلة التي قام بها علماء مسلمون ترجمة مولانا محمد علي (لاهور ، ١٩١٦) الى اللغة الانكليزية . والترجمة الوحيدة التي قام بها مسلم انكليزي هي تلك التي اصدرها مار ماديوك بكتول (لندن ، ١٩٣٠) واول طبعة عربية للقرآن ظهرت بين سنتي ١٤٨٥ و ١٤٩٩ في البندقة وقام بها الساندرو دو باغبيني من اهل برسكيا .

في النفوس خصوصاً اذا رتل ترتيلاً وتلى بلغته الاصلية . وان بعض قوته واثره في النفوس لراجع الى ما يشتمل عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والاناقة . على ان هذه اوصاف للاسلوب الانشائي يتعذر نقلها الى لغة اجنبية . اما طول القرآن فيعادل اربعة أخماس الترجمة العربية من الانجيل . وليست مرتبة القرآن الدينية العائدة الى مقامه السامي كأساس الاسلام والمرجع الاعلى الذي يحتكم اليه في الامور الروحية والادبية الا ناحية واحدة من نواحي عظمته . ولما كان الكلام والفقه والعلم وجوهاً متفرقة لموضوع واحد عند المسلمين اصبح القرآن عندهم كتاباً مدرسياً يأخذ من مناهله كل من يتبني التعليم الحر . وفي الازهر (وهو اعظم جامعة اسلامية) وسواه من معاهد العلم في الاسلام تجد القرآن اساساً لمنهاج الدراسة . ويمكن ان يدرك تأثيره الادبي اذا عرفنا ان بفضل وحده اتحدت اللهجات المختلفة للشعوب التي تتكلم العربية فهو الذي حال دون تطورها الى لغات قومية مختلفة كما جرى للغات الرومانسية المتحدرة من اللاتينية . فابن العراق اليوم مثلاً وان لاقى بعض الصعوبة في فهم لغة المراكشي العامية فهو لا يجد شيئاً من الصعوبة في فهم لغة مراکش المكتوبة لان اللغة التي يكتبها القوم سواء في العراق او مراکش - او في الشام والجزيرة ومصر ايضاً - هي اللغة الادبية نفسها التي سنّ طريقها القرآن وسار عليها الكتاب العرب في كل مكان ، ولم يكن للغة العربية على عهد النبي كتاب عالي المقام في الأدب النثري . لذلك صار القرآن اقدم مثال للنثر ولا يزال الى يومنا الحاضر النموذج الذي يحتذى في الكتابة النثرية . ولغة القرآن هي من النثر المسجوع البليغ ولكنها ليست شعراً . اما السجع الذي جاء في عرض الكتاب فهو مثال رفيع يقتضي اثره كل كاتب عربي من المحافظين الى هذا اليوم .

الفصل العاشر

الاسلام دين الخضوع لإرادة الله

من بين الديانات التوحيدية الثلاث التي انشأها الساميون يعتبر الاسلام اقرب الى دين ابراهيم الخليل الذي تمثله التوراة من دين عيسى الذي يبشر به الإنجيل . على ان بعض النصارى من اهل اوربا واهل الشرق تكون عندهم في العصور الوسطى رأي يستند الى ما بين الاسلام واليهودية والنصرانية من التشابه ومؤداه ان الاسلام بدعة نصرانية اكثر منه ديناً جديداً . وقد وضع دانتى في روايته الالهية محمداً في الجحيم الاسفل مع اولئك « الذين زرعوا بزور العثرة والانشقاق » وقد تطور الاسلام بالتدرج حتى اصبح نظاماً دينياً مستقلاً . ولقد كان للكعبة وتقرش الفضل الأول في تقرير هذا التطور .

العقائد

وجرى فقهاء الاسلام في تدارسهم عقائد ديانتهم على التمييز بين الايمان والعبادات والاحسان - ويجمعها كلها لفظ دين ^(١) « ان الدين عند الله الاسلام ^(٢) » والايمان هو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخير . واول العقائد واعظمها هي شهادة ان « لا اله الا الله » . واولى ما في الايمان الايقان بمنزلة الله العليا . والواقع أن تسعين بالمائة من اصول الدين الاسلامي يدور حول فكرة « الله »

(١) راجع المحاوره بين جبريل ومحمد في المهرستاني ، الملل والنحل ، نشر كيرتون ، (لندن، ١٨٤٢-٦) ص ٢٧ وهذه اللفظة « دين » فارسية الأصل ولا علاقة لها بـ « دين » (بمعنى دينونة) الارامية الأصل .

ولقد عبرت سورة الاخلاص بآياتها المحكمات عن الاقرار بوحداية الصمد . فهو الحقيقة العظمى الازلية ، ومبدع الكون ، الخالق (سورة النمل : ٣-١٧ ؛ البقرة ، ٢٧-٨) والعليم القدير (الرعد : ٩-١٧ الانعام : ٥٩-٦٢ ؛ البقرة : ١٠٠-١٠١ ؛ آل عمران : ٢٥-٧) والحي القيوم (البقرة : ٢٥٦ ؛ آل عمران : ١) وله الاسماء الحسنى ^(١) (الاعراف : ١٧٩) وهي تسعة وتسعون تقابل عدد صفاته لذلك فالسبحة الاسلامية فيها تسع وتسعون حبة تقابل اسماء الله . وصفات الحب في الله تتضاءل امام صفات القوة والجلال فهو الاله المهيمن العزيز الجبار (سورة الحشر : ٢٣-٤) . والاسلام (المائدة : ٥ ؛ الانعام : ١٢٥ ؛ الحجرات : ١٤) دين الطاعة والتسليم لارادة الله . والظاهر ان امتحان ابراهيم يوم امره الله ان يقدم ابنه قرباناً - وهي قصة تمثل التسليم لامر الله (الصافات : ١٠٣) - هي الفكرة التي هيأت للدين الجديد اسمه . وقد عبر القرآن عن خضوع ابراهيم بكلمة « أسلم » . واثق ما في الاسلام من اسباب المنعة هو هذا الايمان الراسخ بوحداية الله وذلك الاعتقاد البسيط الخالص بسمو الملك الفعال . ومن هنا ما يتولد في المؤمن من شعور القناعة والاستسلام الذي لا نعرف له مثيلاً عند ابناء الاديان الاخرى . وبعد فلا عجب اذا كانت حوادث الانتحار نادرة في البلدان العربية .

والعقيدة الثانية في باب الايمان هي ان محمداً رسول الله (الاعراف : ١٥٧ ؛ الفتح : ٢٩) ونبيّه (الاعراف : ١٥٦ ، ١٥٨) ونذيره الى أمته (الملائكة : ٢٢) وخاتم النبيين الذين تتابعوا منذ اول الدهر (الاحزاب : ٤٠) واعظمهم . وفي علم الالهيات القرآني ليس محمد الا بشراً لم يتم الله على يده من العجائب غير اعجاز القرآن ^(٢) . الا ان التقاليد والاساطير التي اصطنعتها العامة من بعد نسجت حول

(١) الفزالي ، المقصد الأسنى ، الطبعة الثانية (القاهرة ، ١٣٢٤) ص ١٢ وما يليها : البغوي ، مصابيح

ج ١ ص ٩٦-٧

(٢) هذه السورة المدنية هي الوحيدة التي تعين جبريل كناقل الوحي الى محمد . قابل التكويز : ١٩-٢٠ ؛

النجم : ٥-٧

هامة الرسول هالة من النور الالهي . ودين محمد دين عملي صريح . وقلما يشير القرآن الى هدف عال يصعب نواله . ويكاد ان يكون خلواً من العقد اللاهوتية وليس فيه اثر للاسرار الرمزية المقدسة او مراتب الكهنوت وما رتبته اصول الرسامة والمسح والتكريس و « الخلافة الرسولية » .

والقرآن كلام الله (التوبة : ٦ ؛ الفتح : ١٥ ؛ قابل الانعام : ١١٤ - ١٥) وهو آخر الكتب المنزلة (الاسرى : ١٠٧ - ٨ ؛ القدر : ١ ؛ الدخان : ٢ ؛ القصص : ٥١ ؛ الاحقاف : ١١) وهو ازلي « غير مخلوق » . والاقتراس من القرآن يستهل بـ « قال الله » . وكل ما في القرآن من حروف وقرآت ومجازات وأساليب لغوية فانه يطابق ام الكتاب - اي اللوح المحفوظ في السماء (الواقعة : ٧٦ - ٩ ؛ البروج : ٢١ - ٢) . وان تكن عجائب فالقرآن اعظمهن « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ... » (الاسرى : ٩٠) .

ويقدم الاسلام في نظام الملائكة مرتبة جبريل على سواه وهو حامل الوحي (البقرة : ٩١) ^(١) وروح القدس (النحل : ١٠٤ ؛ البقرة : ٨١) والروح الامين الشعراء : ١٩٣) . وهو كناقيل اكلم الاله الاعلى يماثل هرمس في المثلولوجية الاغريقية .

والخطيئة اما أن تكون خلقية او شعائرية ، على ان الشرك اعظم الآثام عند الله . والله لا يغفر أن يشرك به آلهة اخرى ويغفر ما دون ذلك . (النساء : ٥١ ، ١١٦) . فالزعم بان الله شركاء كان ابغض الامور الى محمد حتى لقد نزلت السور المدنية فاذا هي حافلة بتهديد المشركين وارهابهم بالدينونة الاخيرة (العنكبوت : ٦٢ وما يلي الانبياء : ٩٨ وما يلي) . والراجح أن محمداً لم يشمل اهل الكتاب - اليهود

(١) القرآن معجز من حيث اسلوبه واناقة سبكه ؛ الرعد : ٢٧ - ٣٠ الاسرى : ٨٧ - ٩٦ وانظر ابن حزم الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ج ٣ (القاهرة ، ١٣٤٧) ص ١٠ - ١٤ ، والسيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (القاهرة ، ١٩٢٥) ج ٢ ص ١١٦ - ٢٥

والنصارى - في عداد المشركين مع أن بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

واعمق اقسام القرآن اثرًا في النفس تلك التي تعنى بمسألة الدينونة والآخرة . وفيه سورة كاملة تسمى « سورة القيامة » . ولقد نبه الى حقيقة الآخرة واكدها باشارات متواترة ذكر فيها « يوم الدين » (الحجر : ٣٥ - ٦ ؛ الانفطار : ١٧ - ١٨) و « يوم البعث » (الحجج : ٥ ؛ الروم : ٥٦) و « يوم » او « يوماً » (النور : ٢٤ - ٥ ؛ لقمان : ٣٢) و « الساعة » (النحل : ٨٥ ؛ الكهف : ٢٠) والحاقة (الحاقة : ١ - ٢) . والآخرة التي صورها القرآن تتناول عذاب الجحيم ولذات النعيم الجسديين ومن هنا فهي تستدعي بعث الاجساد .

الاركان الخمسة :

١ . الشهادة

تقوم العبادات في الاسلام على خمسة اركان .
الركن الأول الشهادة وصيغتها ان : لا اله الا الله محمد رسول الله . هذه اول كلمة تطرق اذن الطفل المولود في احضان الاسلام وآخر ما يلقي على قبر المؤمن الراحل . وبين الولادة والموت لا يسمع المسلم كلمة تردد أكثر من تلك . فهي جزء من الدعاء الذي يرسله المؤذن اذ يدعو القوم الى الصلاة مراراً كل يوم من اعالي المآذن . وعلى العموم فالاسلام يقبل هذه الشهادة الشفهية علامة للدخول في حظيرته فاذا ما قال المرء الشهادة فهو مسلم .

٢ . الصلوة

ويطلب من المسلم ان يصلي خمس مرات ^(١) كل يوم مولياً وجهه شطر مكة

(١) الفجر والظهر والعصر والغروب والعشاء .

مردداً الكلام المفروض . والصلاة هي ركن الاسلام الثاني . فاذا نظرت الى العالم الاسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء وقدّر لك ان تستوعب جميع انحاءه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة وتنتشر في مساحة تزداد قدراً وحجماً منتهية من سارا ليونه في الغرب الى كاتتون في الشرق ومن توبولسك في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

ولفظ الصلاة العربية مستعارة من الآرامية يدلّك على ذلك انها كانت تكتب بواو- « الصلوة » . ويرجح ان ما مورس من امر الصلاة في البلاد العربية قبل الاسلام كان غير منظم . والصلاة وان حضت عليها السور الاولى (الاعلى : ١٥) وفرضت مطالبيها واصول اقامتها بعض السور المكية (هود : ١١٦ ، الاسرى : ٨٠ - ٨١ ، الروم : ١٦ - ١٧) فان فروضها ومنها تعيين اوقاتها الخمسة المتفرقة في ساعات الليل والنهار وما يقتضيه ذلك من القيام لله في حالة القنوت والطهارة الطقسية (البقرة : ٢٣٩ ، النور : ٥٧ ، ^(١) النساء : ٤٦ ، المائدة : ٨ - ٩) لم تنظم الا في الحقبة المدنية . والصلاة الوسطى (البقرة : ٢٣٩) هي آخر ما اوصى به الكتاب . ولقد روى البخاري ^(٢) ان النبي قال « فرض الله على امتي خمسين صلاة » . ثم اخرج ان الخمس هي ما اقامه الله من بعد مراجعة الرسول له بايعاز من موسى يوم زار السماء السابعة وحلق الى سدرة المنتهى (سورة الاسرى : ١) ويجوز الاستدلال بسورة النساء ، الآية ٤٦ على ان استنكار الخثر وتحريمها من بعد قد دفعت اليه الرغبة في حفظ الوقار والسكينة في مواعيد الصلاة والعبادة .

وتمتاز الصلاة الطقسية بكونها عبادة يحددها الشرع ويقوم بها المؤمنون مجموعين وعلى طراز واحد من السجود والركوع مولين وجوههم ناحية مكة وعلى المتعبدين ان يحضر الصلاة في حالة الطهارة حسبما ينص الشرع . وعليه ان يصلي باللغة العربية

(١) قابل الزايم ٥٥ : ١٧

(٢) ج ١ ص ٨٥ وما يلي ؛ قابل سفر التكوين ١٨ : ٢٣-٢٣

مها كان لسانه القومي . فالصلاة على هذه الصورة المنظمة الموحدة ليست طلباً الى الله اودعاءً بل هي ذكر لله كثير (الجمعة : ٩ - ١٠ ؛ الانفال : ٤٧) . و « الفاتحة » ذات المعاني العميقة والبساطة المغرية التي تقابل « الصلاة الربانية » عند النصارى يتلوها المسلم الورع نحو عشرين مرة في اليوم بحيث اصبحت من اكثر الصيغ ترديداً . اما الصلاة التي يقوم بها العابد من تلقاء نفسه آناء الليل - التهجد (بني اسرائيل : ٨١ ؛ قاف : ٣٨ - ٩) فهي تعد نافلة ويضاعف له بسببها الجزاء . وصلاة الظهر من كل جمعة هي الصلاة الوحيدة المشتركة العامة (الجمعة : ٩ ؛ المائدة : ٦٣) ، وقد وجبت على كل الذكور من المسلمين . وفي بعض المساجد افرزت اماكن مخصصة للنساء . وتمتاز صلاة الجمعة بالخطبة التي يلقيها الامام . وفيها يطلب من المولى البركة والخير لرئيس الدولة . ولقد نسج الاسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس الا انه تأثر من بعد بطقوس صلاة الاحد التي يمارسها النصارى في البيع . وليس من شكل للصلاة المشتركة يفوق صلاة الجمعة قيمة من حيث الجلال والروعة والبساطة والترتيب . ينتصب فيها العابدون في صفوف ذات اتساق خاص داخل المسجد ممثلين لقيادة الامام بدقة وخشوع حتى غدت مشاهدة جمع المصلين تحرك اسمى العواطف الروحية في اعماق الصدور . وما لبثت هذه الصلاة العامة حتى اصبحت اداة توحيد لصفوف المسلمين من ابناء البادية ذوي النفوس الفخورة المشبعة بالروح الفردية فغرت فيهم المساواة الاجتماعية وانشأت في افئدتهم فكرة الشعور الموحد وربتهم على اخوة الايمان التي ارادها محمد بديلاً لصلة الارحام وعلاقة الدم . هكذا اصبح مقر الصلاة « الساحة الاولى لتدريب جيوش المسلمين » .

٣ . الزكاة

جعلت الزكاة في الاصل كعمل خير وبر يوجه لذوي الحاجة فكانت عملاً اختيارياً (البقرة : ٢١٦ - ١٧ ، ٢٦٣ - ٩ ، ٢٧٣ - ٥) ولكنها ما برحت حتى

انقلبت فريضة تفرض على العقار والمال والانعام والحبوب والاثمار والتجارة . والقرآن (البراءة : ٥ ؛ البقرة : ٤٠ ، ٧٧) اورد الزكاة الى جانب الصلاة في عدد من الآيات . وفي اوائل الدولة الاسلامية كانت جباية الزكاة معقودة لعمال منتدبين وامر توزيعها منوط بخزانة الدولة ومنها كانت الحكومة تتقاضى نفقاتها (البراءة : ٦٠) . ولفظة زكاة من اصل آرامي وهي اخص واكثر تعييناً من لفظة صدقة التي تعتبر عملاً تبرعياً وتدل على العطاء والبذل بنوع عام . والزكاة أمر طائفي محض يشمل اعطية المسلمين التي توزع في المسلمين دون سواهم . وفي حديث نبوي هي « قنطرة الاسلام » . والحق ان المبدأ الاولي الذي تنبعث فكرة الزكاة عنه يوافق مبدأ العشر الذي قال بلينيوس ^(١) أن التجار من عرب الجنوب كانوا يؤدونه لآلهتهم قبل أن يسمح لهم ببيع طيوبهم . ولقد تغيرت مقادير الزكاة على مر الايام الا انها تتعين دائماً بالرجوع الى الفقه . والزكاة على العموم تبلغ اثنين ونصف بالمائة من الاصل الذي تجبى منه . وهي تضرب على كل انواع المال حتى أن معاشات الجند المتقاعدون لم تكن لتعفى منها . ولدى تضعيع الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى اصلها اي صارت قائمة على وجدان المسلم . والزكاة هي الركن الثالث من اركان الدين .

٤ . الصوم

تعددت الاوامر بالصوم في السور المدنية اما توبة الى الله او نذراً (المجادلة : ٥ ، مريم : ٢٧ ؛ النساء : ٩٤ ؛ البقرة : ١٩٢) . ولم يذكر رمضان كشهر صيام الا مرة (البقرة : ١٧٩ - ٨١) . الا ان القرآن نزل في رمضان (البقرة : ١٨١) وفيه تم الفوز للمسلمين في وقعة بدر . والصوم فيه يعني الامتناع عن كل ما كل ومشرب من الفجر الى مغرب الشمس (البقرة : ١٨٣) . ولقد غالى بعض المسلمين في تفسير كنه الامتناع عن الطعام الذي يقتضيه الصوم بحيث منع احدهم الطبيب من ادخال ملعقة في فمه مخافة ان يكون عالقاً بها شيء من الطعام يفسد عليه صيامه ^(٢)

وتحاول بعض الحكومات في البلاد الاسلامية احياناً تطبيق فرض الصيام بالقوة اذا ما لاحظت في المؤمنين استهتاراً به .

ولا دليل لدينا يثبت وجود الصوم في ايام الجاهلية . إلا ان العادة كانت مألوفة ولا ريب عند النصارى واليهود . ولقد ذكر ابن هشام ^(١) ان قريشاً في جاهليتها كانت تجاوز في حراء من كل سنة شهراً تقبل فيه التحنث (التبرر) . وكان محمد قبل فرض رمضان يصوم يوم عاشوراء وهو العاشر من محرم . ولقد اخذ عاشوراء عن اليهود ^(٢) . ولم ترد لفظة « الصوم » في السور المكية الا في موطن واحد (مريم : ٢٧) وذلك بمعنى السكوت على ما يلوح .



الكمة

٥ . الحج

والحج (آل عمران : ٩١ ؛ البقرة : ١٩٢ - ٦ ؛ المائدة : ١ - ٩٦ ، ٢) هو

(١) السيرة ، ص ١٥١ - ٢

(٢) البخاري ج ٢ ص ٢٠٨ ؛ سفر اللاويين ١٦ : ٢٩

الركن الخامس والاخير من اركان الاسلام وقد فرض على كل مسلم ومسلمة يستطيعان اليه سبيلاً وهو يستدعي زيارة البيت الحرام مرة في العمر في حين معين من السنة .
والعمرة اقل اهمية من الحج الحقيقي وهي عبارة عن زيارة لمكة يقوم بها المسلم متى شاء وفي الوقت الذي يريد .

يلج الحاج العتبات المقدسة محرماً (لابساً الازار وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط) فيطوف حول الكعبة سبعاً ثم يتم السعي ^(١) اي يجتاز سبع مرات بين جبل الصفا وجبل المروة . ولا يبدأ الحج الحقيقي الا بالمسير الى عرفة ^(٢) في اليوم السابع والثامن من ذي الحجة . اما الوقوف في المواقف فعند حرمي عرفة وهما المزدلفة ومنى . ورمي الجمار (الحجارة) يتم على الطريق المؤدية الى وادي منى عند جمرة العقبة . ثم تقدم الذبائح عند منى . وتكون الاضحية من بهيمة الانعام اي بدنة من الابل او الغنم او احدى ذوات القرون (الحج : ٣٤ - ٧) يذبحونها في العاشر من ذي الحجة وهذا هو عيد الاضحى الذي يحتفل به المسلمون اينما كانوا في الارض . وبه تنتهي فريضة الحج رسمياً . وعلاوة على بعض الامور التي حظرت على المسلم اثناء صيامه ، فانه قد فرض على الحاج ، ما دام محرماً ، ان يراعي شروط الاحرام والمناسك التي تقتضي ان لا يسفك دماً او يقتل صيداً او يقتلع نباتاً ^(٣) ومن بعد حلق الرأس يخلع الحاج احرامه ويحل .

وكان الحج الى الاماكن المقدسة نظاماً سامياً قديماً ^(٤) وكان من معالمة ما عرف في زمانب العهد القديم (سفر الخروج ٢٣ : ١٤ ، ١٧ ؛ ٣٤ : ٢٢ - ٣ ؛

(١) يقوم المسلمون بالسعي تذكراً لما جاء في الاحاديث من ان هاجر سمعت سبع مرات بين الصفا والمروة طلباً للماء لارواء غليل ابنها اسماعيل .

(٢) عرفة اسم الوادي وعرفات اسم الجبل كما يرى رفعت ، مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٤ ولكن اللفظين يترادف استعمالها كثيراً .

(٣) لزيادة الايضاح عن شعائر الحج راجع مرآة الحرمين ج ١ ص ٩٩-١٤٢ ولقد كان رفعت مؤلف مرآة الحرمين امير الحج المصري سنة ١٩٠١ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٨ .

(٤) W. Robertson Smith, *Lectures on the Religions of the Semites*, 3 ed. by S. A. Cook (London, 1927), pp. 80, 276.

صموئيل الأول ١ : ٣) ونعله في الاصل ظاهرة من عبادة الشمس كان القوم يحيون عيداً لها فصادف ان وقع هذا العيد في الاعتدال الخريفي - وهو رمز انشراح صدر الانسان فكان العيد بمثابة توديع لقيظ الشمس وسيطرتها الغاشمة واستقبال لقزح ، اله الرعد والخصب . وكانت مواسم الاسواق السنوية في الجاهلية في شمالي الجزيرة تنتهي بالحج في ذي الحجة الى الكعبة وعرفة . ولقد استنّ محمد في السنة السابعة للهجرة عادة الحج القديمة فأضافها الى الاسلام بما فيها من مراسيم العبادة المتركة في مكة وعرفة . قم للاسلام بتلك الفروض اعظم تراث له من جاهلية الجزيرة . ولقد ذكر ابراهيم رفعت ^(١) بعض ما يصدر من العربان من الكلام الساذج الغريب وقت طوافهم بالبيت الحرام كأن يقول الرجل منهم « يا رب البيت ! اشهد اني جيت ! لا تقول ما جيت . اغفرلي ولوالدي والا تغفرلي غصباً ، تراني جيت ! »

وتتوجه جماعات الحجيج من اواسط افريقية بصورة غير منقطعة الى الحجاز من السنغال وليبيريا ونيجريا سائرة الى الشرق ويزداد عددها كلما واصلت سيرها . ويسير بعض الحجاج مشياً على الاقدام ويركب غيرهم الابل . اما كثرة الزاهبين فمن الرجال والنزر القليل من النساء والأولاد . ومنهم من يعول على الاتجار وغيرهم على الاستعطاء اوسواه من الوسائل تمهيداً لانفسهم للوصول الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويموت عدد كبير من هؤلاء في طريق الحج فيصبحون في عداد الشهداء . اما الناجون بانفسهم فلقد يتيسر لهم البلوغ الى أحد مرافئ البحر الاحمر الغربية ومنه يسافرون في قوارب خاصة بشواطئ جزيرة العرب الى الشاطئ المقابل . الا ان قوافل الحج العظمى تفد من اليمن والعراق والشام ومصر . ولقد كانت هذه البلدان فيما مضى ترسل كل عام على رأس قافلة حجيجها محملاً عنواناً لمكاتها . والحمل يغطى بنسيج من الحرير وافر الزينة والزخرف يحمل على جمل يقاد باليد دون ان يركبه أحد . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي جرى اولياء الامر في الاقطار

الاسلامية على اشخاص هذه المحامل اعلاناً لاستقلالهم واطهاراً لما لهم من حق حماية الحرمين . وفي الاخبار المنقولة ان شجر الدر زوجة نجم الدين احد سلاطين الدولة الايوبية المتأخرين هي التي ابتدعت فكرة الحمل في منتصف القرن الثالث عشر . الا ان بعض التأليف^(١) القديمة تحسب الحجاج ابن يوسف (المتوفى ٧١٤) ، عامل الامويين على العراق ، منشىء هذه العادة . وسواء اصدقت هذه الرواية ام تلك فالجلي ان الاحتفال بايفاد الحمل لاقى تشجيعاً خاصاً وعناية فائقة على دور الممالك في عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ٧٧) حتى صارت العادة أثراً^(٢) يقتضى من بعده . وفي غضون السنين المتأخرة لم يعادل ركب الحجاج المصري الا الركب الشامي من حيث العظمة والأبهة . ولقد بلغ عدد الحجاج السنوي من بعد الحرب العالمية معدل ١٧٢٠٠٠ . وجاء في احصاءات الاتراك لسنة ١٩٠٧ أن عددهم كان في تلك السنة نحو ٢٨٠٠٠٠ . وافر فئة بين الحجاج تأتي من ملقا وعددهم حوالي ٣٠٠٠٠ على التقريب وليس لبلاد الحجاز القاحلة افضل من موسم الحج مورداً اقتصادياً .

ولا يزال الحج على كر العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عرى التفاهم الاسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين . وبفضله يتسنى لكل مسلم ان يكون رحالة مرة في حياته على الاقل ، وان يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً اخوياً ، ويوحّد شعوره مع شعور سواه من القادمين من اطراف الارض . وبفضل هذا النظام يتيسر للزواج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم - اغنياء كانوا او فقراء عظماء او صعاليك - ان يتآلفوا لغة وایماناً وعقيدة . وقد ادرك الاسلام نجاحاً لم يتفق لدين آخر من اديان العالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية -

(١) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٧٤ ؛ ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ص ٨٨٦ ؛ ابن رسته ص ١٩٢ ، وانظر السيوطي ، الكنز المدفون (بولاق ، ١٢٨٨) ص ٦٨

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٧٤ ؛ وقابل القريري ، المواعظ والاعتبار نصر غاستون فييت (القاهرة ، ١٩٢٢) ج ٣ ص ٣٠٠ والسلوك في معرفة دول الملوك ترجمة كاترمير ج ١ ص ١٤٩ - ٥٠ . ويمكن ان الحمل ومركب (عطفة) الرولة وتابوت العهد ترجع كلها الى اصل سامي واحد .

خاصة بين ابنائه . فهو لا يعترف بفاصل بين افراد البشر الا الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين .. ولا شك ان الاجتماع في مواسم الحج ادى خدمة كبرى في هذا السبيل فضلاً عن تأثيره في نشر الدعاية والافكار المذهبية بين الخلائق القادمة من بلدان لم تربطها وسائل الاتصال الحديثة والتي ليس للصحافة فيها صوت ومن امثلة ذلك الحركة السنوسية في شمالي افريقية التي لولا الحج لما تهيأ لها من وسائل التكون والذيع والذيع ما تهيأ .

الجهاد

وهناك الجهاد ^(١) (البقرة : ١٨٦ - ٩٠) وترفعه فرقة من فرق الاسلام (الخوارج) الى مصاف الاركان وتجعله ركناً سادساً . واليه يعود الفضل في امتداد الاسلام امتداداً لا قرين له في نهضة الدول العالمية . وتتضمن وظيفة الخليفة توسيع النطاق الجغرافي لدار الاسلام على حساب دار الحرب . وان تقسيم العالم الى منطقة سلم ومنطقة حرب توازيه النظرية الاشتراكية التي تتمسك بها روسية السوفياتية . الا ان فكرة الجهاد لم تحظ في السنين الاخيرة بمناصرة العالم الاسلامي وذلك في الاكثر لان معظم اقطار الاسلام المتزامية الاطراف تخضع لسلطات اجنبية لا تستطيع التخلص منها او لا ترغب فيه . وآخر دعوة الى الجهاد وجهت الى العالم الاسلامي هي تلك التي نادى بها محمد رشاد السلطان العثماني في خريف سنة ١٩١٤ الا انها لم تأت بأية نتيجة .

أن ما ذكرناه فيما تقدم من العبادات الواجبة هو اساس الدين الاسلامي . ولكن ليست العبادات كل ما في القرآن من اوامر وفروض . فالاحسان مثلاً يدعمه التشريع القرآني . كذلك قانون السلوك الأدبي سواء اكان فردياً ام اجتماعياً فانه يبنى على اوامر الدين ونواهيه والقياس الذي به يعرف الحلال من الحرام يرجع ابدأ الى ارادة الله كما نزلت على محمد . على ان الاسلام هو اول دين في الجزيرة قال بوجود

(١) ليس في الاسلام نظرياً حرب دنيوية ، انما هو جهاد .

العلاقة الفردية بين الخالق والمخلوق وجعل العبد مسؤولاً عن نفسه . هذا وقد نسخ الاسلام في ميدان الاجتماع قانون القبائل المبني على علاقة الدم واستعاض عنه باخوة دينية . اما في ميدان الفضائل الانسانية فلقد جعل الاسلام عمل الخير واجباً ووصفه بلفظة الزكاة وشدد عليه جداً . والآيات التي نقرأها في سورة البقرة : ١٧٢ وآل عمران : ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١ والنساء ٤٠ : والاعراف : ٣١ تضاهي افضل ما تجده في التوراة (مثلاً سفر عاموس ٥ : ٢٣ - ٤ يوشع ٦ : ٦ ؛ ميخا ٦ : ٦ - ٨) وفيها يتجلى ما في القرآن من مثل اخلاقية عليا .

الفصل الحادي عشر

عصر الفتح والنوسع والاستعمار

٦٣٢ - ٦٦١ ميلادية

الخلفاء الراشدة

- ١ . ابو بكر ٦٣٢ - ٦٣٤
- ٢ . عمر ٦٣٤ - ٦٤٤
- ٣ . عثمان ٦٤٤ - ٦٥٦
- ٤ . علي ٦٥٦ - ٦٦١

جمع محمد في شخصه وظائف النبوة والاشتراع والامامة والقضاء وقيادة الجيش والرياسة المدنية في الامة . ولكن محمداً قد مات الآن فمن ذا ترى يخلفه بعد موته ؟ على ان وظيفة الرسول من حيث هو خاتم النبيين واعظمهم هي بطبيعتها غير قابلة للانتقال الى خلف يرثها عنه .

لم يترك النبي ذرية من الذكور ولا من الاناث خلا ابنته فاطمة زوجة علي اما الزعامة او المشيخة عند العرب فلم تكن وراثية تماماً بل كانت في الغالب انتخابية تنتقل الى اكبر القبيلة سناً . وعلى هذا فلو ان النبي لم يحتسب بنيه فان المشكلة التي جابهها الاسلام من بعد ممات الرسول تبقى على ما هي من التعقيد . ولم يعين محمد بوضوح خلفاً له فأصبحت الخلافة اقدم المعضلات التي واجهها الاسلام واعصاها ولم يزل يعاني مشقتها حتى اليوم . وفي آذار من سنة ١٩٢٤ الفى الكماليون

الترك الخلافة العثمانية في الاستانة واقصوا عبد المجيد الثاني بعد انقضاء ستة عشر شهراً على ثلهم عرش آل عثمان . ثم عقدت عدة مؤتمرات اسلامية جامعة في القاهرة ومكة لبحث مسألة الخلافة وتعيين من هو أخق الناس بها . ولكنها لم تصل الى نتيجة . وقد صدق الشهرستاني ^(١) إذ قال : « واعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سأل في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سأل على الامامة في كل زمان » . توفي محمد فظهرت احزاب متضاربة - وهو ما يحدث في كل مجتمع يفاجأ بشأن خطير . فكان هناك حزب المهاجرين واكثرهم قرشيون من قبيلة النبي وقد ادعوا ان الخلافة حق لقريش وزادوا انهم هم أول من قبل رسالة النبي . وكان ينازعهم على الخلافة حزب الانصار وهم من اهل يثرب ودعواهم ان الخلافة يجب أن تكون فيهم وانه لولا احتضانهم لمحمد وحمايتهم للاسلام في طفولته لضاعت الرسالة والرسول معاً . ثم حدث بعد ذلك أن توحد هذان الحزبان تحت اسم الصحابة . وكان هناك حزب آخر تألف من اصحاب النص والتعيين مبدأه انه لا يجوز التسليم بان الله ورسوله يضعان جماعة المؤمنين تحت رحمة الانتخاب والمبايعة . ولا مجال للشك - في رأيهم - ان زعامة الاسلام معقودة لمن يستحقها على أساس منصوص معين أي لعلي ابن عم الرسول وزوج فاطمة التي خلفته . فعلي هو خليفة الرسول الشرعي يؤيده النص والتعيين . واستمد هذا الحزب الولاية من الله فكان حق الخلافة عنده مقدساً بينما استمدها الآخرون من الامة واناطوها بالانتخاب والمبايعة . وأخيراً ظهر حزب ارستقراطية قريش يمثلها الامويون الذين كانت لهم الزعامة في الجاهلية واستاثروا بالسلطة والثروة الا انهم كانوا آخر من قبل الاسلام ولقد نهضوا الآن يدعون الخلافة وعلى رأسهم ابو سفيان بعد ان كان هذا زعيم المعارضة للنبي حتى فتح مكة .

مقدمة الراشدين : عصر الحكم المشيخي

وظفر الحزب الأول - حزب المهاجرين - قم انتخاب ابي بكر حي النبي واحد

الثلاثة او الاربعة الأول الذين آمنوا بالرسول فبايعه رهط الرؤساء المحتشدين . ولعل مبايعة ابي بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر ابن الخطاب وابي عبيدة ابن الجراح - الكتلة الثلاثية التي ادارت شؤون الاسلام وهو بعد في مهده .
وابو بكر الصديق (٦٣٢ - ٤ م) هو الخليفة الأول في الاسلام ورأس الخلفاء الراشدين الاربعة وقد تلاه عمر ابن الخطاب (٦٣٤ - ٤٤ م) فعثمان ابن عفان (٦٤٤ - ٥٦ م) فعلي ابن ابي طالب (٦٥٦ - ٦١) وكان عصر هؤلاء الخلفاء الاربعة عصر شظف في العيش وخشونة وتقلل في المطعم والملبس لقرب العهد بسيرة الرسول وما نسجته تلك السيرة للمؤمنين من مثل عليا في البر والتقوى والبساطة التي لم تكن الايام قد درستها بعد . فانطبع اخلاق الخلفاء الراشدين بطابع الرسول الشخصي وحسبك ان كلا منهم كانت تربطه بالرسول عرى الصداقة والقربى . واستقرت ولايتهم في المدينة وهي حافلة بذكرات ايام الرسول الاخيرة الا علياً فانه اختار الكوفة بالعراق فجعلها عاصمة له .

الجزيرة تنوم

وكانت خلافة ابي بكر (٦٣٢ - ٤ م) قصيرة الأمد شغلته فيها حروب الردة . ولقد سلكت مدونات العرب التاريخية مسلكاً واحداً في العرض لهذه الحروب فذهبت الى ان الجزيرة باسرها اذغنت للاسلام ودانت للرسول في ايام حياته ، حتى اذا ما ادركته الوفاة قامت قيامة الاعراب وارتدوا فيما خلا الحجاز وتبعوا نفراً من الانبياء الكذبة الذين ظهروا عندئذ . والواقع ان خطوط الاتصال بين انحاء الجزيرة كانت يومئذ صعبة قليلة ووسائل نشر الدين وبث دعوته ضعيفة ولم يكن الزمن لاكتساب الاتباع قد اتسع بحيث لم يكن من المستطاع بالفعل أن يدخل الاسلام في حياة الرسول اكثر من ثلث سكان الجزيرة . ويجب ان لا ننسى ان الحجاز وهو القطر الذي ولد الاسلام فيه لم يعمه هذا الدين الا قبل موت الرسول بسنة او سنتين . اما الوفود التي قيل انها قصدت النبي لتقديم الطاعة

والاقرار بولايته فلا يسوغ البت في انها كانت تنوب عن كل انحاء الجزيرة . واذا اسلمت القبيلة يومئذ فلم يكن في الامر سوى ان زعماءها دخلوا في الدين .

وكانت بعض هذه القبائل المسلمة في اليمن واليامة وعمان قد تهاونت في مسألة الزكاة واستنكرت بعثها الى المدينة . وجاء موت الرسول حافزاً لها على الخروج . ولا يستبعد أن تشوف العاصمة الحجازية للسيادة حركت كوامن الغيرة والحسد في أوساط الجزيرة فتجلت النزعات الفردية والعصبيات الاقليمية التي طبع عليها العربي .

ومع ذلك فقد اصر ابو بكر على طلب الاذعان من المرتدين والتسليم بلا قيد او شرط والاّ فالحرب حتى الدمار ^(١) . ولم يمض الا زهاء ستة اشهر حتى تمكن الاسلام بقيادة خالد ابن الوليد من اخضاع قبائل الجزيرة الوسطى وحملها على تقديم الطاعة . فخالد هو بطل هذه الحروب . وكانت اول قبيلة اخضعها هي طيء ثم اسد وغطفان وكان فيها نبي لقبه المسلمون بطليحة الكذاب . ثم فاز جند المسلمين على بني حنيفة من اهل اليامة وقد اجتمعوا تحت راية نبي لهم ذكرته الاخبار العربية باسم مسيلة بصيغنة التصغير تحقيراً له واستهزاء به . وكان مسيلة هذا قد ابدى اعظم مقاومة للاسلام فقد وحد صفوفه وعقد حلفاً دينياً دنيوياً مع سَجَاح ^(٢) وهي امرأة نصرانية فيما رووا ادعت النبوة وتعاطت العرافة فتبعتها تميم ثم تزوج منها وسار فيما يقال باربعين الف مقاتل فانتصر على جيشين من جيوش المسلمين فوافاه خالد وواقعه ولم ينثن الا والنصر في جانبه . بيد ان الغلبة لم تتم للمسلمين دون استشهاد عدد من حفاظ القرآن خشي بعد موتهم على الكتاب الكريم من الضياع . ولقد سيرت المدينة حملات عسكرية بامرة قواد آخرين تم لهم من النصر حظوظ متفاوتة ^(٣) منها ما انفذ الى البحرين وعمان وحضرموت واليمن حيث كان الأسود العنسي قد ادعى النبوة ودعا قومه فآمنوا بنبوته . اذن لم تكن حروب الردة في الواقع حروباً

(١) البلاذري ص ٩٤

(٢) كانت امها تنسب الى تغلب القبيلة النصرانية .

(٣) راجع البلاذري ص ٩٤-١٠٧

يقصد بها اخماد ثورة قام بها المرتدّون وكبح جماح الثأرين على الاسلام ممن اتخذه ديناً - كما توهم مؤرخو العرب - بل هي في الحقيقة حملات قصد بها اخضاع اعداء ما عرفوا الاسلام ولا قبلوا رسالته وحملهم على الانضمام اليه .

توحدت الجزيرة في خلافة ابي بكر بسيف خالد . وقبل ان تهبّ الجزيرة الى اخضاع العالم كان عليها ان تخضع نفسها بنفسها . ولقد جعلت هذه الحملات الداخلية من بلاد العرب في الاشهر اللاحقة لوفاة النبي امة مسلحة ما كادت تطفىء نار الثورة الاهلية حتى حاولت الاتجاه الى الخارج والتطلع الى منفذ جديد تستثمر فيه ما خبرته من شؤون القتال . ولما كان الاسلام قد وضع حداً لتطاحن القبائل ضمن دائرته وشمل العرب بنوع من الاخوة والسلام كان لا بد للروح الحربية العربية من ميدان جديد .

كانت الحادثتان الخطيرتان في اواخر العصور القديمة هما الهجرات التوتونية (الجرمانية) التي اسفرت عن تقويض الامبراطورية الرومانية العريقة والفتوحات العربية التي دكت صرح الدولة الفارسية الى الأساس وزعزعت اركان الامبراطورية البيزنطية . فلو قام في الثلث الاول من القرن السابع الميلادي احدٌ وتكهن بان دولة خاملة الذكر وضيفة الجانب تخرج من مجاهل جزيرة العرب ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقتض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر باملاكها ثم تقتطع من ولايات الثانية - بيزنطة - ازهى مقاطعاتها نقول لو صدرت مثل هذه النبوة من فم انسان في ذلك العصر لحكم عليه بالجنون . والواقع ان هذا ما حدث فعلاً . فبعد الرسول تغيرت طبيعة بلاد العرب الجذباء واخذت تنشئ رجالا ابطالا يندر وجود من يشاكلهم في اي صقع كان فكان اعجوبة حلت فيها . فالحملات العسكرية التي قام بها خالد ابن الوليد وعمر بن العاص وسعد ابن أبي وقاص فاتحين بها العراق وفارس وسورية ومصر هي من اعظم الحملات التي يرويها تاريخ

الحروب المدوّنة وقد كشفت عن نبوغ قوادها وتفوقهم في اساليب القتال وخلدت اسماءهم مع اسماء نابوليون وهانيبال ويوليوس قيصر والاسكندر .

ولقد يسر الفتح للعرب اسباب منها ان فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب بينهما اجيالا طويلا . فاضطرتهما هذه الحرب الى ارهاق رعاياها بضرائب قاسية أدّت الى نفورهم . ناهيك بان استيطان القبائل العربية في سورية وارض القراتين وفي المناطق الواقعة على حدود الهلال الخصيب وظهور الشقاق في جسم الكنيسة المسيحية الشرقية حيث نشأت البدعة المونوفيزية في سورية ومصر ، والنسطورية في العراق وفارس ، مع ما لابس ذلك من عداوة بيزنطة واضطهادها للمنشقين عن كنيستها - جميع هذه الامور سهلت عمل الفاتحين . وكان الروم قد اهلوا تحصين الثغور ، ومن بعد غزوة مؤتة الواقعة الى شمالي البتراء التي انتصر فيها عرب الشام على جيش ارسله الرسول عليهم (ايلول سنة ٦٢٩) ابطال هرقل الجراية التي كان يوزعها في قبائل الشام العربية المقيمة جنوباً من البحر الميت على الخط الواصل بين المدينة وغزة ^(١) . وكان سكان الشام وفلسطين وهم ساميون وسكان مصر وهم حاميون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم باولئك الحكام الاجانب الغاصبين . فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الادنى مجده السامي الغابر وجاء الاسلام مهيباً بالشرق الى النهوض من كبوته بعد الف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب . ولندكر ان الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على ابناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة كانت اقل مما كانت يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة . ولقد افتتح امام الامم المغلوبة باب الحرية فصاروا يمارسون عقائد اديانهم دون ازعاج . اما العرب انفسهم فقد كانوا شعباً ممتلئاً حميّة ونشاطاً وقد الهبتهم حماسة قومية جديدة وتمكنت من نفوسهم ارادة للفتح والظفر وهياهم دينهم الجديد الى ان

يسخروا من الموت ويحتقروا الحياة . على ان نصيباً وافرا من الفوز الذي خازوه يرجع الى اعتمادهم اساليب حربية تلائم فلولات آسية الغربية وصحارى افريقية الشمالية - منها استعمال الخيل والابل - ولم تكن الروم تحسن استعمالها .

اسباب اقتصادية

وقد مال بعض الباحثين في الحركة الاسلامية الى النظرية الدينية التي كررتها المصادر العربية ففسروا التوسع الاسلامي كنتيجة لعامل الدين ولم يعلقوا كبير اهمية على العوامل الاقتصادية . وتمسك بعض كتاب النصرانية بفكرة اخرى خاطئة وهي ان المسلم العربي انما اكتسح البلدان رافعاً القرآن في يد والسيف في الأخرى . ولا صحة لهذا الزعم فان العرب في حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على اهل الكتاب من يهود ونصارى امراً ثالثاً غير القرآن والسيف هو اقرب الى مطامع الحاربين واصلاح لهم من كلا الامرين الأولين - الجزية . « قاتلوا من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . » ^(١) ثم قضت الاوضاع ان يعرض هذا الاختيار الثالث حتى على الجوس اتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فجرى عليهم وهم من غير اهل الكتاب وعوملوا معاملة اهل الكتاب اذ لم يمكن أخذ من لم يؤمن منهم وهم العدد الكثير بالسيف ، فالضرورة قامت اذا ذاك مقام النظرية القرآنية . ولا نزاع في ان الاسلام الف بين المسلمين ووحدهم اهدافهم وخلق لهم شعاراً جديداً فكان نبراساً لامانيهم القومية . فزال المشاحنة والبغضاء والتحمت العناصر المتنافرة فنشأت بين العرب قوة محركة فعالة . الا ان هذه الروح الاسلامية العجيبة لا تكفي لتعليل الفتوحات . فليست الاثرة الدينية والتعصب ما حدا بالعرب الى تدوين الدول وفتح الامصار انما هي الحاجة المادية التي دفعت بمعاشر البدو ، واكثر جيوش الفتح منهم ، الى ما وراء تخوم البادية الفقراء الى مواطن انخصب في بلدان الشمال . ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض الى بلوغ جنة النعيم

قد حجب لهم حومة الوغى فان ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في احضان المدينة التي ازدهر بها « الهلال الخصب » كان الدافع الذي حجب لهم القتال .
ولم يتعام مؤرخو العرب القدماء عن الناحية الاقتصادية في تحليل الفتوحات .
ولقد توسع في بسط هذه النظرية العالمان كيتاني ^(١) وبكّر ^(٢) وسواهما من العلماء النقدة . وذكر البلاذري ^(٣) وهو اعدل مؤرخي الفتوح حكما ان ابا بكر اذ رأى توجيه الجيوش الى الشام كتب « الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستغزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع واتوا المدينة من كل اوب » . وذكر ايضا ان رسم القائد الفارسي القائم بالدفاع عن بلاده ضد هجمات العرب ارسل الى سعد ابن ابي وقاص يسأله توجيه بعض اصحابه اليه فوجه المغيرة ابن شعبة فكلمه رسم بكلام كثير ثم قال له : « قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون » ^(٤) . وفي حماسة ابي تمام ^(٥) بيت يجمع فيه هذا الرأي :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز احسب والتمر
فاذا تحرينا التوسع الاسلامي واحطنا بالاحوال الحقيقية التي احدثت به اتضح
لنا أنه كان الشوط الاخير في عملية النزوح المتواصل على مدى الدهر من البادية
القاحلة الى ما يتاخها من انحاء الهلال الخصب - هو آخر الهجرات السامية العظيمة .
وان مؤرخي العرب وقد نظروا الى وقائع الفتوح على ضوء الحوادث التي تلتها
ذهبوا الى ان الحملات الاولى في الاسلام واخصها ما تم في ايام ابي بكر وعمر
تولاها الخلفاء بثاقب رأيهم وبعد نظرهم ونفذت بموجب خطة سابقة . على ان

(١) Annali, vol ii, pp. 831-61.

(٢) Becker, Cambridge Medieval History (New York, 1913) vol. ii, ch. xi.

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٠٧

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٦-٧

(٥) الحماسة ، ص ٧٩٢

متصفح التاريخ العالمي قلما يجد القائلين بالامور الجسام يستبقون مجرى الحوادث الخطيرة . كلا ! لم تكن هذه الحملات نتيجة خطة رسمها اولياء الامر من قبل . بل بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول الى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد ان حيل بينها وبين الحرب والخصومات ضمن ذلك النطاق الاخوي الذي حدده الاسلام . وكان الغرض منها في اكثر الاحوال الغنيمة لا الاحتلال او الاستعمار . الا ان هذه الاداة الحربية التي توسل بها الاسلام في بدء امره لم تلبث ان عظم شأنها فأفلتت من يد الذين استخدموها . وتواترت الانتصارات فاذا المحاربون يزدادون دربة وتوغلاً . وهنا بدأت الفتوحات المنظمة ولم يبق بد من نشوء الامبراطورية العربية . فالفكرة الاولى في خلق هذه الامبراطورية لم ترجع الى سابق عزم او تدبير بل الى مجرى الحوادث وسير الامور .

وفي تعليل التوسع الاسلامي تعليلاً دينياً مجارةً للتعليل الالهي الذي اوردته التوراة في اثناء سردها وقائع التاريخ العبراني ومواقفةً لما اصطنعته الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى لتفسير التاريخ المسيحي . ومما سهل نشر هذه النظرية الخاطئة بين ابناء العربية ان للفظه « اسلام » معاني ثلاثة يسهل الالتباس بينها : بدأ الاسلام ديناً فلم يلبث ان اصبح دولة ثم صار ثقافة . فالاسلام باعتبار انه دين يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة في انه مثل النصرانية ديانة تبشير وجهاد في سبيل الذيوع والانتشار . وما لبث ان اصبح دولة منيعة الجانب . على ان الاسلام الذي فتح اراضي الشمال لم يكن الدين بل الدولة . والعرب الذين فاجأوا العالم واقتضوا عليه انما كانوا مدفوعين بعامل قومي . فالقوز الاول كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي . ولم يدخل السواد الاعظم من سكان سورية والعراق وفارس في دين محمد حتى القرن الثاني والثالث للهجرة . اذن فبين الفتح العسكري والفتح الديني حبة طويلة من الدهر . واذا كانت الامم المغلوبة قبلت الاسلام بعدئذ فلا أنها ارادت الخلاص من الجزية وتاقت لمشاركة الطبقة الحاكمة في ولاية الامور . وبعد الفتح العسكري والفتح الديني

سار العرب والمستعربون في منهاج الثقافة بخطى واسعة فاصبح الاسلام ثقافة وركز اركانه على اساس ما ورثه من حضارة السريان والآراميين والفرس واليونان التي تحدت اليه . فالاسلام باعتبار انه ثقافة جاء متأخراً ولاحقاً لانتشار اللغة العربية بين الشعوب المغلوبة . وبالاسلام استطاع الشرق الادنى ان يسترجع ماضيه المجيد لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة ايضاً حيث تسنى له ان يعيد سيادته الفكرية .

الفصل الثاني عشر فتح الشام

حين قدم هرقل الذي كان قد لقبه ابناء رعيته حامي النصرانية ومعيد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية الى بيت المقدس للاحتفال برفع الصليب ^(١) بعد ان استرده الروم من الفرس بلغه من جنده الم رابط وراء الاردن ان عصابة من العرب قد هاجمتهم فردوها على اعقابها بجهد يسير . وقد جرت هذه الواقعة في مؤته وهي تتاخم اللقاء الى الشرق من طرف البحر الميت الجنوبي . وكان النبي قد ارسل جيشاً من المسلمين قوامه ثلاثة الاف مقاتل ^(٢) يقودهم ابنه الذي تبناه زيد ابن حارثة ^(٣) قتل زيد وتسلم خالد ابن الوليد وهو حديث العهد بالاسلام اعباء القيادة وخف عائداً بجيشه الممزق الشمل الى المدينة . وكان الغرض الظاهري من هذه الغارة هو الثأر لرسول كان النبي قد بعثه الى امير الفساسنة في بصرى فقتل . اما الباعث الجوهري فهو رغبة محمد في الحصول على السيوف المشرفية ^(٤) التي كانت تصنع في مؤته ونواحيها ليسلح بها رجاله يوم الهجوم العتيد على مكة . وكان من الطبيعي ان تفسر هذه الواقعة على انها غزوة عادية من هذه الغزوات التي يدهم بها البدو ابناء الحضارة ابد الدهر . والواقع انها الطلقة الاولى من نزاع مستمر لم ينته امره حتى سقطت العاصمة البيزنطية الفخورة (١٤٥٣) على يد آخر حماة الاسلام آل عثمان وحل اسم محمد محل اسم المسيح المنقوش على جدران سانت

(١) في ١٤ ايلول سنة ٦٢٩ وهو عيد يعيده النصارى في لبنان وسوريا الى اليوم .

(٢) الطبري ، تاريخ ج ١ . ص ١٦١٠ ؛ وقابل Theophanes, p. 336

(٣) مولى الرسول سابقاً .

(٤) نسبة الى مشارف الشام .

صوفيا - افخم كاتدرائية في العالم المسيحي حين ذاك .
وكانت غزوة مؤته هي الحملة الوحيدة التي جردت على الشام في حياة محمد . اما
حملة تبوك ^(١) التي قادها محمد نفسه في السنة التالية (٦٣٠ / ٩) فلم ترق فيها دماء
مع ان المسلمين اخذوا فيها بضع واحات من اليهود والنصارى .
ووضعت حروب الردة اوزارها فجهز المسلمون في خريف سنة ٦٣٣ ثلاث سرايا
في كل منها ثلاثة الاف مقاتل يرأس الاولى عمرو بن العاص والثانية يزيد ابن ابي
سفيان والثالثة شرحبيل ابن حسنة وسيروها الى الشمال ^(٢) . فرحفت الحملة الى
الشمال وباشرت الحركات العسكرية في الجنوب والجنوب الشرقي من الشام . وكان
حامل اللواء في سرية يزيد اخوه معاوية مؤسس الدولة الأموية فيما بعد . وسلك
يزيد وشرحبيل طريق تبوك ومعان المباشر . اما عمرو (الذي عهد اليه بامارة
الجيش كله اذا استلزم الامر عملاً متحداً) فقد سلك طريق أيلة (العقبة) الساحلي ،
وظل المدد يصل الى السرايا حتى صار مع كل امير نحو سبعة آلاف وخمسمئة رجل
وكان ابو عبيدة ابن الجراح الذي صار امير الجيش فيما بعد قد جاء على رأس
بعض هذه الامدادات سالكاً بها طريق الحج المعروف وهو طريق النقل القديم الذي
يربط المدينة بدمشق .

وكان اول اصطدام في وادي عربة وهو منخفض عظيم جنوبي البحر الميت
وانتصر فيه يزيد على سرجيوس بطريق فلسطين الذي كان مقره قيسارية فارتدت
الروم نحو غزة ولم يبق من جيشها الا عدة آلاف من الجنود البيزنطيين يقودهم
سرجيوس فاتبعهم المسلمون وادركوهم عند قرية يقال لها داثن وكادوا ان ينفوهم
(٤ شباط ٦٣٤) . اما في غير هذه الواقعة فلقد ساعد البيزنطيين موقعهم الطبيعي
ونكّلوا بالفتاحين تنكيلاً . ثم اسرع هرقل ، الذي كان قد تمرس على الحروب
وقاتل الفرس في الشام ومصر ست سنوات حتى اجلهم عنها ، عائداً من الرها

(١) الواقدي ص ٢٥٠ وما يلي ؛ البلاذري ص ٥٩

(٢) قابل البصري ، فتوح الشام ، نشر ليس (كالكتا ، ١٨٥٣ -) ص ٨ - ١١ ، ٤٠ - ٤٢

« ادسًا » موطن اجداده لتنظيم خطة الدفاع وتجهيز جيش وافر العدد والعدة يعقد امارته لاختيه ثيودورس .

وبينا خالد ابن الوليد سيف الله ^(١) يقاتل في العراق و معه خمسة جندي ممن ضرستهم حرب الردة يناصرهم بنو شيبان وهم من بطون بكر ابن وائل المقيمين على حدود فارس اذا بكتاب يأتيه من ابي بكر يأمره فيه بالشخص فوراً الى جبهة الشام لنجدة جيوش الاسلام فيها . وكانت غزوة العراق قد جاءت في مستهل الفتوحات الاسلامية فلم تهرق فيها كثير من الدماء . وليس غريباً ان يكون خالد قد قام بهذه الغزوة مستقلاً حيث ان اصحاب الامر في المدينة والحجاز كانوا يحصرون اكثر اهتمامهم في بلاد الشام المجاورة دون سواها . وقبل ان يصدر ابو بكر امره الى خالد بالمسير الى الشام كانت الحيرة في العراق قد سلمت لخالد وحليفه المثنى ابن حارثة سيد شيبان على ان يدفع اهلها ستين الف درهم . وكانت هذه المدينة التي كان على عرشها امير عربي نصراني اول غنيمة اخذها المسلمون خارج الجزيرة او قل هي اللؤلؤة الاولى التي انتزعها العرب من تاج آل ساسان . وكان خالد قد فتح عين تمر عنوة وهي حصن منيع في البادية الى الشمال الغربي من الكوفة قبل ورود كتاب ابي بكر عليه .

مغامرة خالد في البادية

قطع خالد البادية فسلك طريقاً تختلف الكتب في وصفها الجغرافي كما تختلف آراء المؤرخين في تعيين الزمن الذي استغرقته تلك المغامرة ^(٢) . ولقد رجح النقدة الحديثون ان خالداً بدأ سيره من الحيرة (آذار ٦٣٤) واتجه غرباً مخترقاً قلب

(١) الواقدي ص ٤٠٢ ؛ ابن عساكر ج ٥ ص ٩٢ ، ١٠٢

(٢) قابل البلاذري ص ١١٠-١٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٠-٥١ ؛ الطبري ج ١ ص ٢١١-١٣ ، ٢١٢-٤ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ١٣٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، نشر تورنبرغ ج ٢ (لندن ، ١٨٦٧) ص ٣١٢-١٣

الصحراء الى واحة دومة ^(١) الجندل (الجوف حديثاً) وهي واحة تقع على منتصف الطريق بين العراق والشام وتلك كانت اسهل الطرق المعروفة . وانحاز من دومة الى وادي سرحان (بطن السر قديماً) ثم انحاز عن بصرى وهي اول مداخل الشام لأنها منيعة الحصون فتحول الى قراقر ^(٢) ملازماً جانب الشرق من تخوم وادي سرحان . ثم فوز شمالاً الى 'سوى' ^(٣) وهي مدخل الشام الثاني وبين قراقر وسوى مسير خمسة ايام في البادية القاحلة ، وكان دليله رجلاً من قبيلة طيء يدعى رافع ابن عمير . وكان خالد قد استكثر من الماء فحملة معه اما الخيل فكان يسقيها من اكراش الرواحل ^(٤) التي كان ينجرها ويقدمها طعاماً لجنوده وعددهم بين الخمس والثاني مئة . وكانت الخيل تسير جنيبة للجيش فلم تركبها الجنود الا في حومة الوغى . وقد بهر النور بصر رافع ، ولاشعة الشمس في الصحراء بريق تعكسه الرمال يفعل في العيون اسوأ فعل ، فلم تسعه رؤية مواطن الماء ولكنه أشار الى شجرة عوسج على ظهر الطريق فوجدوها واحتفروا فوجدوا عيناً فشربوا منها حتى رووا وأخذوا من الماء حاجتهم .

وظهر خالد بجوار دمشق مفاجئاً مؤخرة جيش الروم مفاجئة مسرحية بعد رحلة دامت ثمانية عشر يوماً . وهنا بدأت حملاته التي ظفر فيها بالغنائم فأتى مرج راهط ^(٥) واغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فغلبهم وغنم منهم . ثم قدم 'بصرى' (اسكي شام) فاتصل فيها بالجيوش العربية التي كانت قد لقيت الروم في اجنادين ^(٦) في الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ فكشفتهم وهزمتهم وقتلت كثيراً

(١) وردت في سفر التكوين ١٤:٢٥ واشعيا ١١:٢١

(٢) قلبان قراقر حديثاً .

(٣) بالقرب من سبع ييار الحديثة الى الشمال الشرقي من دمشق .

(٤) قابل اشارة اشور بانيال ملك اشور الى اعدائه العرب الذين « يشقون بطون رواحلهم من الجمل » اطفاء لعطشهم . Luckenbill, vol. ii, § 827 ولا يزال البدو يقولون على ذلك الى اليوم Musil , Arabia Deserta p. 570

(٥) من مضارب الغساسنة على بعد ١٥ ميلاً من دمشق بالقرب من عذراء .

(٦) او جنابتين بين رملة وبيت جبرين (اليوثروبوليس في اليونانية) على طريق غزة واورشليم .

منهم . وبذلك افتتحت ابواب فلسطين امام المسلمين . ولما قدم خالد ابن الوليد على المسلمين في بصرى وهي احدى عواصم غسان اجتمع القواد معاً وأُمرُوا عليهم خالداً وبدأت الحملات النظامية اذ ذاك فسقطت بصرى وطلب اهلها الصلح بلا مقاومة كبرى . ثم تلتها فحل (او فحل بلا في اليونانية) الى الشرق من الاردن وهي حصن يسيطر على معبر الاردن ولقد حاصرها المسلمون حتى طلب اهلها الامان في ٢٣ كانون الثاني سنة ٦٣٥ . وتمهدت امام المسلمين السبيل الى دمشق عاصمة الشام بعد أن هزموا جيوش الروم المجتمعة في مرج الصفر^(١) في ٢٥ شباط سنة ٦٣٥ . وتقدم خالد حتى نزل بجيوشه امام باب دمشق الشرقي هذه المدينة التي تذهب الروايات الى انها اقدم مدن الارض والتي من اسوارها دلى التلاميذ بولس الرسول في سل ليلة هربه المشهورة^(٢) . ولقد سلمت دمشق في ايلول من سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستة اشهر وكان تسليمها أثر خيانة قام بها بعض ارباب السلطة المدنية والروحية ومنهم الاسقف جد القديس يوحنا الذي سنخسه بالذكر فيما يلي من تاريخ الامويين . ولقد قدر لدمشق ان تغدو من بعد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . وقد صالح اهلها الفاتحين عندما بارحتهم الحامية البيزنطية . واصبح العهد الذي اعطاه خالد لاهل دمشق كما اورده البلاذري^(٣) نموذجاً لما اعطاه لسائر المدن السورية :

« بسم الله الرحمان الرحيم هذا ما أعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيئاً من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية . »

وجعلت الجزية ديناراً وجريباً (عيار حنطة) على الرجل ولقد رفع^(٤) عمر

(١) سهل على بعد ٢٠ ميلاً الى الجنوب من دمشق .

(٢) سفر الاعمال ٩: ٢٥ .

(٣) ص ١٢١ .

(٤) البلاذري ص ١٢٤ .

ابن الخطاب هذا المبلغ فيما بعد . ثم تساقطت بعد ذلك بعلبك وحمص وحماء (ايفانا) وسواها من المدن كاوراق الخريف . ولم يعترض مسير الفاتح عقبة ما فضى نحو شيرز (لارسا) فخرج اهلها يكفرون ومعهم المقلسون ^(١) فأذعنوا له .

يوم اليرموك

وكان هرقل قد حشد جيشاً بلغ زهاء خمسين ألفاً وولى عليه اخاه ثيودورس وتحفز للوقوف في وجه العدو وقفة حاسمة . فاسرع خالد الى الجلاء الموقت عن حمص ودمشق وسواها من مراكز الخطر الحربي وحشد خمسة وعشرين ألفاً ^(٢) من جنوده في وادي اليرموك ^(٣) . واليرموك رأفد يصب في الاردن . ومرت شهور دارت فيها المناوشات بين الفريقين الى ان كانت المعركة الفاصلة في العشرين من آب سنة ٦٣٦ في يوم حار انعقدت فيه سحب من الغبار الذي اذرتة الرياح في بقعة من الارض تكاد تلتهب من شدة القيط - ولا نشك في ان القيادة العربية قد تخيرت ذلك اليوم وتلك البقعة للايقاع بالعدو . ولاحق المسلمون الروم حتى هزموهم ولم تجد جهود البيزنطيين شيئاً ولا خروج كهنتهم اليهم ومعهم الصلبان وهم يرتلون ويصلون ^(٤) . واستحر القتال في الارمن ومرترقة العرب ممن واطأ الروم فازال المسلمون من لم يقتلوا منهم عن مواقفهم فراجعوا حتى التجأوا هم والمدد الذي جاءهم الى خندق ضيق المهرب بين نهر اليرموك ووادي الرقاد . اما الفئة الناجية منهم ممن عبروا النهر الى الضفة الاخرى فلقبهم فيها المسلمون وافنوهم او كادوا . وخرّ ثيودورس أخو هرقل صريعاً ولم يسلم من جيشه الا القليلون وهكذا فان وقعة اليرموك كانت ضربة قاضية على البيزنطيين . ولما بلغ هرقل خبرها رحل عن

(١) المصدر نفسه ص ١٣١

(٢) قدرت الاخبار العربية عدد جيش الروم بين مئة الف ومئتين واربعين ألفاً وجعلت جيش المسلمين نحو ربعين . ولا يعتد بالارقام التي وصلتنا - واء منها ما روته المصادر العربية او المصادر اليونانية .

(٣) يرموث في سفر يشوع ١٠: ٣ شمال درعا الحديثة .

(٤) البصري ص ١٩٧ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ١٦٣

البلاد وادرك ان الامبراطورية قد خسرت احدى مقاطعاتها الفضلى ولما جاوز الدرب في طريقه الى القسطنطينية قال مودعاً ارض الشام : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو ! ^(١) .

ودعت الحاجة بعد ان تم الفتح الى رجل ادارة وتنظيم يعتمد الى المسألة والسياسة فكان كتاب عمر ابن الخطاب الى ابي عبيدة ابن الجراح بنعي ابي بكر واستعماله اياه وعزله خالداً . وابو عبيدة من ارفع الصحابة قدراً واعزّ رجال الحكومة الدينية بالمدينة الى الناس . وكان قد سار في جيش الفتوح فتولى الامداد وبلغ حدود الشام ثم رافق خالداً الى الشمال ويقال ان عمر ابن الخطاب كان يضرر عداء شخصياً لخالد . ومهما يكن الامر فلقد كان سقوط دمشق عظيماً وبسقوطها سقطت جميع البلاد الشامية من ايدي البيزنطيين حتى جبال طورس - تخوم سورية الطبيعية في الشمال . وتجلت ميول السوريين فاذا هي في جانب الفاتحين وقد نسب الى اهل حمص مخاطبتهم المسلمين بهذا الكلام : لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم . ^(٢) وسقطت انطاكية وحلب وسواهما من مدائن الشمال دون مشقة الا قنسرين (كلسس) فانها كلفت العرب بعض العناء . ولم يبق في قبضة الروم من مدن سورية الجنوبية الا بيت المقدس وقيسارية وكان الهلينيون هم العنصر الغالب فيها . لذلك صدت هاتان المدينتان غارات المسلمين فلم تدعن لهم الاولى حتى سنة ٦٣٨ والثانية حتى تشرين الاول من ٦٤٠ . وأمد الروم قيسارية بجزراً فلم يقو العرب على مكافحتهم في البحر . وحاصر المسلمون قيسارية سبع سنين وفتحها معاوية بفضل خيانة يهودي من اهلها . وبين سنة ٦٣٣ و ٦٤٠ تم فتح الشام من الجنوب الى الشمال .

وصدق البلاذري في تسميته هذا الفتح « فتحاً يسيراً » ^(٣) . فالاسباب التي

(١) البلاذري ص ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

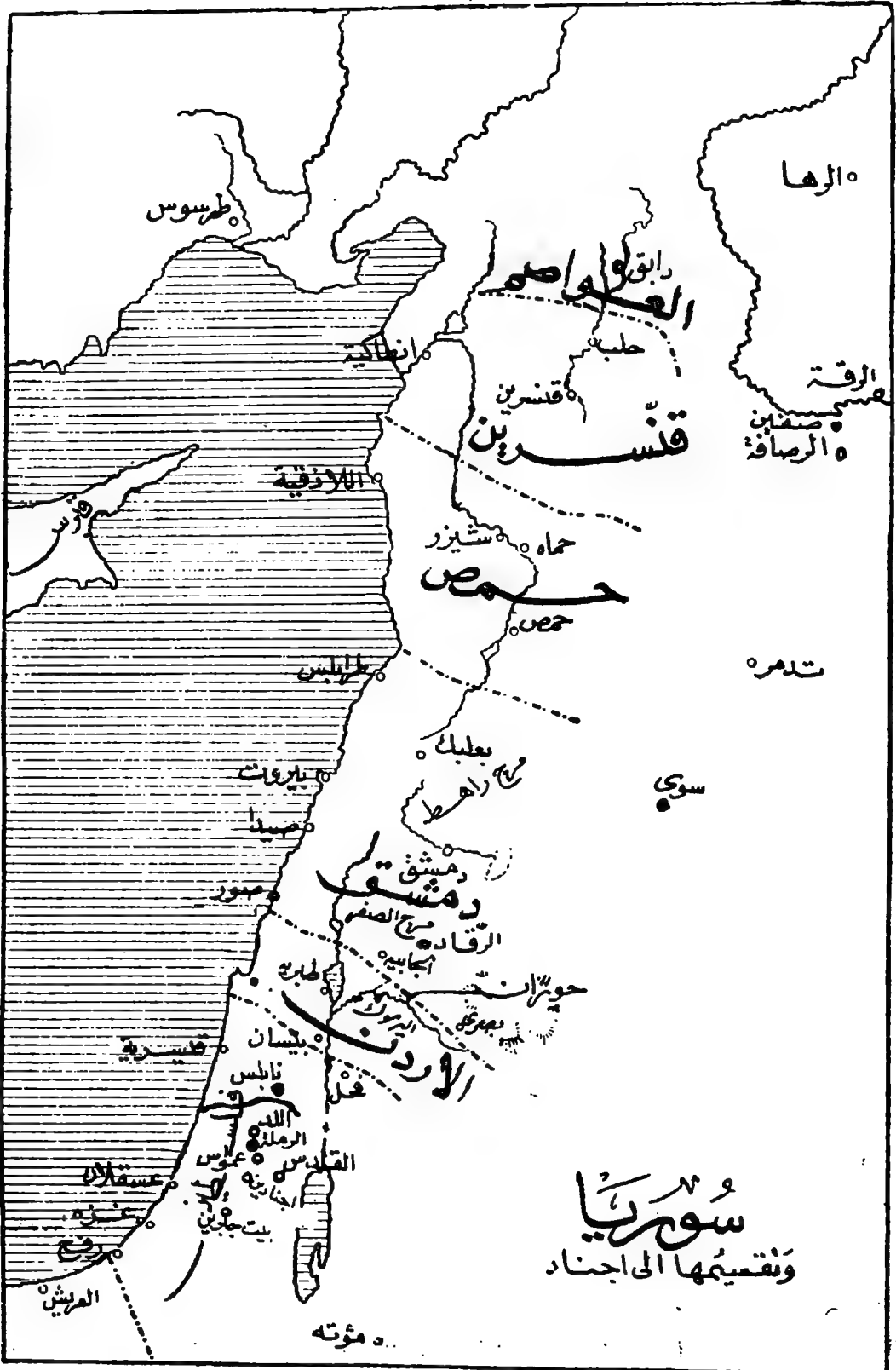
(٣) المصدر نفسه ص ١١٦ ، ١٢٦ .

مهدت سبيل الظفر امام المهاجرين هي ان الثقافة الهلينية التي طمت على البلاد مذ قتحها الاسكندر (٣٣٢ ق . م) لم تكن قد غيرت طبيعة السكان بل لعلها لم تتعد في تأثيرها نطاق المظاهر الخارجية . ولم تنش هذه الحضارة اليونانية الا سكان المدن فقد حافظ سكان الارياض على ثقافتهم الوطنية واختلافاتهم الطائفية التي فصلتهم عن اسياهم الاجانب . وزادت النعرات الطائفية في مدى هذا التنافر بين سكان البلاد وهم ساميون وحكامهم الدخلاء وهم يونان . فالكنيسة السورية المونوفيزية آمنت ان للمسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين (الهية وبشرية) كما ارتأى الجمع الخلقيدوني (٤٥١) الذي اقرته كنيسة بيزنطة اليونانية . وسعى هرقل سنة ٦٣٨ الى تسوية الخلاف الناشب فاصدر صيغة جديدة للايمان كان قد ابتدعها سرجيوس^(١) بطريرك القسطنطينية اراد بها ان يحول الانظار عن مسألة الطبيعة الواحدة والطبعتين ويوجهها الى ان للمسيح مشيئة واحدة ومن هنا نشأ اسم شيعة مسيحية جديدة هي « المونوثلية » اي القائلة بمشيئة واحدة للمسيح . ولم يلاق هذا المسعى الا الاخفاق شأن كل مسعى يقصد به التوفيق بين عقائد الايمان المتنافرة فلم يرض به دعاة كنيسة بيزنطة ولا اقره المنشقون بل ادى الى ظهور طغمة جديدة كونت حزباً ثالثاً . الا ان كثرة السكان في سورية احتفظت بعقيدتها المونوفيزية (طبيعة واحدة) . ولا جدال في ان وراء النزعة الدينية التي حسنت لهؤلاء التعلق بكنيسة سورية المستقلة الشعور الوطني القائل بوجوب التميز عن البيزنطيين الاغراب .

ادارة شؤون الشام

وقدم عمر ابن الخطاب الى الشام قبيل سقوط القدس فنزل في معسكر الجابية وهي الى شمال الساحة التي جرت فيها وقعة اليرموك ولا يزال باب دمشق الغربي الى يومنا يسمى بالجابية . وكان القصد من مقدم الخليفة الاحتفال بالفتح وتقرير حالة المغلوبين والتشاور مع امير الجيش ابي عبيدة الذي تولى الامارة بعد يوم اليرموك

(١) كان سريانياً ينتمي الى عائلة على مذهب اليعاقبة . واصحاب المونوفيزية من أهل سوريا يعرفون في الغالب باليعاقبة نسبة الى بطريركهم يعقوب البرادعي المتوفى سنة ٥٧٨ .



ووضع النظم اللازمة لادارة الحكم في المنطقة التي وقعت تحت سيطرة المسلمين . ولما سلمت القدس جاءها عمر زائراً وأخذ صلح أهلها وكتب لهم به فاستقبله بطريرك اورشليم صفرونيوس الملقب بـ « حامي الكنيسة المسول اللسان » وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الاماكن المقدسة . وكان لهيئة الخليفة البسيطة ولباسه الرث اثراً عظيماً في نفس صفرونيوس فالتفت الى احد مرافقيه وكلمه باليونانية قائلاً : « حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال ^(١) ورآه قائماً في القدس » ^(٢) . وما لبث ابو عبيدة ان توفي في عمّواس (او عمّواس) ^(٣) مصاباً بظاعون قيل انه فتك بعشرين ألفاً من الجنود . ولما اتت عمر ابن الخطاب وفاة ابي عبيدة كتب الى يزيد ابن ابي سفيان بولاية الشام مكانه فلما توفي يزيد انتقلت ولاية الشام الى معاوية . وجعلت سورية اربعة اجناد تتعادل واقسام البلاد الادارية على عهد الرومان والبيزنطيين التي كانت لا تزال مرعية اثناء الفتوح وهي جند دمشق وجند الاردن وفيه الجليل وجند فلسطين وهي الارض الممتدة الى الجنوب من مرج ابن عامر . اما جند قنسرين في الشمال فانما اضافه الى اجناد الشام يزيد الاول الخليفة الاموي . وكان للسرعة والسهولة اللتين تم للمسلمين بهما انتزاع مثل هذا الاقليم الستراتيجي الهام من اعظم سلطان في ذلك العصر اثر كبير اكسب دولة الاسلام الجديدة نفوذاً ومهابة في العالم وولد فيها فوق ذلك ثقة بنفسها ومصيرها . ثم زحفت جحافلهم من الشام الى مصر ومنها سلكت طريق النصر الى كل افريقية الشمالية واتخذت الشام قاعدة شنت منها الغزوات متتابعة الى ارمينية وشمال العراق وبلاد الكرج وآذربيجان . كذلك توالى الغارات على آسية الصغرى طيلة السنين ولم تمض مئة سنة على وفاة الرسول حتى تمكن العرب بمناصرة جنود الشام من التغلب على اسبانية في اقاصي اوروبا ووضعها في دائرة الاسلام المطردة الاتساع .

(١) دانيال ١١: ٣١

Theophanes, p. 339 Constantine Porphyrogenitus, "De administrando (٢) imperio" in J. P. Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cxiii (Paris, 1864), col. 109 وكان صفرونيوس ماروني الأصل على الأرجح . (٣) في سهل اليهودية .

الفصل الثالث عشر

فتح العراق وفارس

قبل أن يترك خالد الحيرة فيثب وثبته الجريئة غرباً الى الشام خلف حليفه البدوي المثنى ابن حارثة شيخ بني شيبان قائداً على الجبهة العراقية . وكان الفرس يستعدون لدرء غارة العدو ففاضلوا الكتائب العربية في معركة الجسر ^(١) بجوار الحيرة في ٢٦ تشرين ثاني سنة ٦٣٤ ووقعوا بها وكادوا ان يقضوا عليها . ولكن لم يفت هذا الخذلان من ساعد المثنى فجمع جيشه وحمل في تشرين الاول او تشرين الثاني من السنة التالية على مهران قائد الفرس فغلبه في وقعة البويب على الفرات . على ان المثنى لم يكن الا سيداً من اسياذ البدو لا نفوذ له في المدينة او مكة ولم يسمع بالاسلام او يقبله ديناً الا بعد وفاة الرسول فأمّر الخليفة عمر سعد ابن ابي وقاص ، احد الصحابة العشرة الذين بشرهم محمد بالجنة على اثر وقعة بدر ، على جيش ارسله لامداد المسلمين في العراق . وكانت وقعة اليرموك قد أدت الى سقوط الشام في أيدي المسلمين فخرج سعد ومعه ستة آلاف رجل لمنازلة رستم عامل الفرس فاشتبك الجيشان في القادسية على مقربة من الحيرة . وكان يوم تلك المعركة (آخر آيار او اول حزيران ٦٣٧) شديد الحر حالك الجو من الغبار الذي اثارته الرياح وهو يوم اشبه بيوم اليرموك تخيره العرب كما تخيروا يوم اليرموك واستعانوا بالاساليب الحربية نفسها التي استعانوا بها هناك ووصلوا الى النتيجة نفسها فقتل رستم وتشتت الجيش الساساني وانفتحت

(١) على الفرات . البلاذري ص ٢٥١-٢ ؛ الطبري ج ١ ص ٢١٩٤-٢٢٠١

أمام الغزاة سهول العراق ^(١) الخصب (السواد) الى الغرب من دجلة . وقد رحب الفلاحون الآراميون بالفتاحين ترحيباً لا يقل عن ترحيب الفلاحين السوريين وذلك لاسباب متشابهة اذ كان العراقيون الساميون يحسبون اسيادهم الايرانيين اجانب ممقوتين ويرون الفتاحين اقرباء لهم . ولم يطب العيش لاهل العراق وهم نصارى اذ ذاك في ظل الفرس وهم اتباع زرادشت . اصف الى ذلك ان امارات ودويلات عربية كانت قد نشأت على الحدود بين الجزيرة والعراق قبل الاسلام بقرون عديدة . كذلك سهل للعرب السيطرة على ارض العراق ما بينهم وبين سكان البلاد من علاقات تعود الى اقدم العصور البابلية ، وصلات ثقافية ، واختلاط مستمر بين معاصر البدو واهل البلاد . وكما حدث في الشام بعد اليرموك حدث ايضاً هنا بعد القادسية فاخذ الكثير من القبائل العربية تتدفق الى العراق وقد اغرتهم خيرات البلاد ونعمائها .

مضى سعد ومن معه الى المدائن ^(٢) عاصمة الفرس فانتهوا الى دجلة وهو طافح بالماء من سيول الربيع واذا الفرس قد رفعوا المعابر والسفن فلم يجد الغزاة سبيلاً الى العبور . ولم يثبط الامر عزيمة سعد فما زال حتى عبر دجلة ونزل الضفة الشرقية ولم يفقد شيئاً ولم يفرق من جمعه احد فقالت الفرس « والله ما تقاتلون الا جنأ » . وحسب اخباريو الاسلام ذلك العبور معجزة . ولم يبق في المدائن احد من اوليائها لأن حاميتها واهل الفرس فروا عنها فافتحمتها جيوش العرب ودخلها سعد في حزيران سنة ٦٣٧ . ولقد اطلق مدونو العرب العنان لخيالتهم في وصف ما جمع من فيء اهل المدائن وما غنمه المسلمون من كنوز « القصر الابيض ومنازل كسرى وسائر المدائن » . قالوا كان في بيوت اموال كسرى تسعة آلاف مليون درهم (ثلاثة

(١) لفظة « عراق » مستعارة في الراجح من البهوية ومعناها الارض الواطئة ولقد أطلق العرب على هذا الاقليم اسم « السواد » لخضرة الزرع والنخيل التي فيه وللتمييز بين ارضه وارض الصحراء . ياقوت ، بلدان ج ٣ ص ١٧٤ وقابل Olmstead, *History of Assyria*, (New York, 1923) p.60.
(٢) نحو عشرين ميلاً الى الجنوب الشرقي من بغداد وتشمل سلوقية في غربي دجلة وتيسفون في الجانب الشرقي

آلاف الف الف ثلاث مرات (١) .

احتل عرب الجزيرة الجديبة اعظم العواصم الملكية في آسية الغربية فاحدقت بهم اسباب البذخ والرخاء ونعموا بوسائل الراحة التي عرفتها حياة الترف في ذلك العصر . واديل من سطوة الفرس الى هؤلاء العرب الذين اقتادهم سعد فقهروا وسلمبوا ملكهم في العراق وترجع على عرشهم سعد فانفتح له ايوان كسرى ذلك القصر الملكي الفخم وفيه المجالس الرحبة والقناطر البديعة والرياش الفاخر والزينة الطريفة - التي اظنت بوصفها الاشعار العربية من بعد . ومن الطرف المستملحة التي سجلتها مدونات العرب فجاءت معياراً نوازن به بين ثقافة الفرس المغلوبين وسداجة العرب الظافرين ان اعرابياً ظفر بجراب فيه كافور فظنه ملحاً وطبخ طعاماً وضعه فيه (٢) وان بعضهم كان يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء (٣) يرى ان الفضة خير من الذهب . ولما أمضى خالد صلح اهل الحيرة دفع الى اعرابي بنت احد كبراء الحيرة فباعها الاعرابي بالف درهم ولما لامه اصحابه على اكتفائه بذلك القدر من المال قال : « ما كنت اظن عدداً يكون أكثر من عشر مئة » (٤) .

فتح المسلمون القادسية والمدائن ثم بدأ بعد ذلك فتح العرب المنظم لبلاد الفرس . وكان لهذا الفتح قوة مركزية يسوسها المولجون بالامور من القاعدة الحربية في البصرة . وورد كتاب عمر الى سعد يأمره فيه ان يتخذ الكوفة دار هجرة للمسلمين ومدينة يسكنونها ومقراً للجند وهي على مقربة من الحيرة القديمة . واستغنى بها الخليفة عن المدائن التي كان سعد قد ابنتى فيها اول مسجد للاسلام في ديار العراق .

(١) الطبري ج ١ ص ٢٤٣٦ ؛ قابل ابن الأثير ج ٢ ص ٤٠٠ ؛ Caetani, Annali, vol. iii, pp.742-6.

(٢) ابن الطقطقي ، الفخري ، نشر ديرنبورغ (باريس ، ١٨٩٥) ص ١١٤

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ ؛ الدينوري ص ١٣٤

(٤) البلاذري ص ٢٤٤

وفي اثناء ذلك كان يزدجرد الثالث الساساني هارباً نحو الشمال يرافقه عطاء بلاطه واهل بيته . وتحصن الاعاجم في جلولا . وخذقوا فيها وهي على حافة المرتفعات الفارسية فعاجلهم العرب فيها (آخر سنة ٦٣٧) وحملوا عليهم حملة اجلوهم بها عن موقعهم فولوا هاربين واستكانت بلاد العراق برمتها لهيبة الغالبين . وفي سنة ٦٤١ تم فتح الموصل وهي على مقربة من انقاض نينوى القديمة على يد عياض ابن غنم الذي سار من شمال الشام . وفي تلك السنة جرت آخر المواقع الكبرى - موقعة نهاوند - بالقرب من همدان (اكباتانا القديمة) وهُزم الناجون من جيش يزدجرد وظهر المسلمون وحذيفة يومئذ على الجيش وكان حذيفة قد أخذ الراية من بعد مقتل النعمان ابن مقرن . وتوجهت حملة من البصرة والكوفة فاحتلت خوزستان (عيلام القديمة وهي شوش من بعد وعربستان اليوم) سنة ٦٤٠ وتوطدت قدم المسلمين في البحرين فاصبحت لهم مقراً ثالثاً من بعد البصرة والكوفة واخذوا يتربصون الفرصة وهم فيها للغارة على ايران ثم ما لبثوا ان جردوا منها حملة على اقليم فارس ^(١) (بارس اي الوطن الفارسي الصميم) على شاطئ خليج العجم الشرقي . ولم يطل الامر بالعرب حتى حطموا شوكة سكان البلاد وهم غير ساميين فاحتلوا اصطخر (برسبوليس) - اعظم مدن فارس - وكان ذلك سنة ٦٤٩ - ٦٥٠ ^(٢) وكان يقودهم عبدالله ابن عامر عامل البصرة . ومن فارس امتدت سطوة العرب الى خراسان وهو مصر بعيد واسع الارحاء في الشمال الشرقي ومنه نفذوا الى ما وراء النهر (اي نهر جيحون او الاكسوس عند الافرنج واسمه اموياء او اموياء داريا عند سكان البلاد) . ولما تحقق للعرب تدويخ مكران اي مناطق الساحل من بلوختان نحو سنة ٦٤٣ اصبحوا على قاب قوسين من بلاد الهند .

وكان المسلمون قد زحفوا على ارمينية البيزنطية سنة ٦٤٠ يتقدمهم عياض ثم

(١) : سمي الفرس بلادهم ايران اما فارس وطن السلاطين الشهيرين الاخمينية والساسانية في الاقليم الجنوبي من ايران . واخذ الاغريق لفظة « بارسا » الفارسية القديمة فحرفوها الى برسيس واطلقوها على الشعب كاه (٢) الطبري ج ١ ص ٢٥٤٥ - ٥١ و، Caetani, vol. iv, pp. 151-3, vol. V, pp. 19-27, vol. vii, pp. 219-20, 248-56.

مضت سنوات اربع فوجهوا حملة ثانية على ارمينية يقودها حبيب ابن مسلمة الفهري فنهض اليها واناخ على اهلها . ولكن لم يتم فتح البلاد حتى حوالي سنة ٦٥٢^(١) . واتخذت الكوفة وهي مقر الجند عاصمة للاقطار المغلوبة في الشرق ونبذ سعد 'سنة عمر المألوفة من حب البساطة والزهد فابتنى داره على شكل القصر الملكي في المدائن ونقل الى الكوفة ابواب المدائن ومثله فعل مشيدو المدن الاخرى الجديدة في الشرق العربي من بعد تيمناً بنصرهم واشعاراً بما لهم من الفخار في ذلك الحضارة السابقة وتأسيس دولتهم الجديدة . واختطت الكوفة فنزلها الجند وابتنيت منازلها لايواء الحارين واهلهم وكانوا قد بنوها اول الامر ثكنات عسكرية من القصب ثم ما عتموا ان شادوا بدلها دوراً من اللبن وانقلب معسكرهم الوضيع مدينة عامرة . هكذا كانت البصرة ايضاً في فاتحة امرها مقراً للجند فما طال بها الامد حتى كسبت ما للكوفة من شأن في تكييف الحياة السياسية والفكرية في العراق العربي حتى قام ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي فشاد مدينة بغداد - زوراء بني العباس الشهيرة في العالم شرقاً وغرباً .

واقبل يزدجرد حتى نزل بمرور فاختلف هو ومن معه واهل خراسان فأوى الى كوخ طحان حيث لحق به قومه وقتلوه سنة ٦٥١ او ٦٥٢ ثم رموا به في النهر وتداعى صرح الدولة الفارسية التي تبوأ مركز الابهة والسلطان نحو اثني عشر قرناً ولم تقم لها قائمة مدة ثمانية قرون او اكثر .

لقد قضى المسلمون اول الأمر نحو عشرة اعوام في حرب الفرس فلم يتم لهم فيها الا فتح جزئي غير مضمون اذ كانت الجيوش العربية تقاسي من مقاومة الاعاجم وتفانيهم في الدفاع عن حياضهم اضعاف ما قاسته في فتح الشام . ولقد اشترك في هذه الحملة زهاء ٣٥ - ٤٠ ألفاً من العرب وفيهم النساء والاحداث والرقيق . والسر في مقاومة الفرس راجع الى ان الفرس ينتمون الى الجنس الآري لا الجنس السامي . ولقد كانت لهم

عهود متباعدة من الاستقلال والوحدة القومية دع عنك ما تسلحوا به من جيش منظم وما حازوه من دربة على الحرب وخبرة بافانيتها . ولقد سبق لهم ان صارعوا الروم صراعاً عنيفاً استغرق اكثر من اربع مئة سنة ، ولكن الفرس غلبوا آخر الأمر واحتلت اللغة العربية في القرون الثلاثة التي حكم العرب فيها البلاد مقاماً سامياً فأصبحت لسان المتأدين ووسيلة لانتشار الثقافة بل صارت اللغة المحكية عند العوام الى درجة محدودة . غير ان الروح القومية الدفينة لم تمت بل تسنى لها النشور يوم اعتقت الامة من اغلالها . واستنفاقت الامة المغلوبة فاحيت ماضي اللغة الوطنية والادب القديم . والفرس في طليعة العناصر التي دفعت بحركة القرامطة الى الامام وسهلت لهم سبل العبث بالخلافة والتآمر على سلامة الدولة الاسلامية العربية . كذلك كان للفرس اثر بين في ظهور الشيعة وقيام الدولة الفاطمية التي تسنمت الحكم في مصر مدة تزيد على القرنين . وحسبك ان الفن الفارسي والأدب الفارسي والفلسفة الفارسية لم تمت بل خضع لتأثيرها العرب بحيث استطاع الفرس فيما بعد ان يستولوا على القاتحين بهذا السلاح المعنوي . ولا عجب اذن اذا رأينا نفراً من رجال الفرس يطلعون في سماء العلوم الاسلامية العربية كواكب تنير القرون الاسلامية الثلاثة الاولى وهم من الاعاجم الداخلين في حظيرة الدين الجديد .

وبينا الجيوش العربية تتوغل شرقاً بقيادة سعد كانت جموع اخرى تتقدم غرباً بقيادة عمرو ابن العاص وتضم الى حظيرة الدولة الاسلامية الناشئة سكان وادي النيل والبربر من ابناء افريقية الشمالية .

ان هذا التوسع العربي المنقطع النظير ، والذي كان في الظاهر دينياً وفي الواقع هو سياسي واقتصادي قد بلغ من النمو بحيث اصبح امبراطورية مترامية الاطراف كامبراطورية الاسكندر ، وكان مثل الخليفة في المدينة مركز هذا التوسع مثل رجل وكل اليه ان يضبط سيلاً متدفقاً اخذت تزايد روافده وتكثر مياهه بحيث تعذر عليه توزيعها او التحكم في مجاريه .

الفصل الرابع عشر

الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة

تطلعت نفوس العرب في شغف الى مصر منذ اوائل عصر الفتح ولقد لفت نظرهم اليها امور جمّة ، منها موقعها الجغرافي الخطير الذي تطل منه على الشام والحجاز ، وخصب تربتها الذي جعلها اهرء القسطنطينية ، وكونها المدخل الى سائر الساحل الافريقي الشمالي . وكانت الاسكندرية يومئذ عاصمتها وقاعدة العمارة البحرية البيزنطية .

ووقع فتح مصر في ابان الحملات المنظمة ولم يكن من باب مجرد الغارة والغزو . وكان منشأه ان عمرو ابن العاص ودّ مباراة زميله خالد ابن الوليد في تدوينخ الامصار فانتهاز فرصة قدوم عمر الى بيت المقدس واستأذنه في المسير الى مصر فقال له عمر « سر وانا مستخير الله في مسيرك ويأتيك كتابي سريعاً » . وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية للتجارة وعرف مدنها وطرقها ورأى كثرة ما فيها ^(١) . ورجع عمر ابن الخطاب الى المدينة وشاور عثمان وسواه فتخوفوا على المسلمين وكرهوا ذلك فكتب الى عمرو ان ينصرف عن مصر بمن معه فادرك الكتاب عمراً وهو لم يقطع الحدود الفلسطينية المصرية فخشى ان هو اخذ الكتاب وفتحها ان يجد فيه الانصراف وكان عمر حين امره بالمسير ووعده بالكتابة اليه قال له « فان ادركك كتابي آمرُك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . ^(٢) وسار عمرو دون

(١) ابن عبد الحكم ص ٥٣

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨-٩ ؛ ابن عبد الحكم ص ٥٦-٧

فض الكتاب حتى نزل العريش (كانون الأول ٦٣٩) .

كان عمرو قرشياً في الخامسة والاربعين من عمره قوي الشكيمة فصيحاً طلق اللسان شديد الدهاء وكان قد سبق له ان فتح ما كان من فلسطين غربي الاردن . وفي النزاع بين علي ومعاوية التحق عمرو بمعاوية واعانه في الظفر بالخلافة فسمي احد الدهاة الاربعة في الاسلام ^(١) . اما الطريق التي سلكها مع فرسانه الاربعة آلاف فهي تلك التي سار عليها ابراهيم وقبيز والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة ونابوليون وجمال باشا . وهي الطريق الدولية في العالم القديم الموصلة بين اهم مراكز حضارته .

واول موضع حصين صادم العرب فيه الروم هو القرماء (بلوسيوم) مدخل مصر الشرقية حيث اشتبك الفريقان في قتال شديد نحو شهر وفي أواسط كانون الثاني سنة ٦٤٠ ^(٢) سقطت المدينة في يد عمرو فاعمل التخريب في حصونها التي لم تكن قد اصلحت منذ الاحتلال الفارسي الاخير (٦١٦ م) ثم اتى عمرو ببليس (او بلبيس) الى الشمال الشرقي من القاهرة وسواها من مدائن وادي النيل فخضعت له بأسرها . واخيراً جاء حصن بابليون ^(٣) وقد برز بازاء جزيرة الروضة في النيل كأنه سد في وجه الغزاة . ولقيهم جاثليق مصر المقوقس ^(٤) مندوب الروم في ادارة حكومة البلاد منذ استرجاعها من ايدي الفرس عام ٦٣١ ومعه رئيس الجيش اوغسطاليس ثيودورس وعساكره . فربط عمرو في عين شمس (هليوبوليس) يتربص الفرصة ويرتقب الامداد ، ولم يمر زمن طويل حتى وصلته نبذة الخليفة يرأسها الزبير ابن العوام احد متقدمي الصحابة فاصبح مجموع الجيش العربي نحو عشرة آلاف مقاتل

(١) ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ، ج ٥ (القاهرة ، ١٩٠٧) ص ٣

(٢) هذا التاريخ وغيره مما يتعلق بفتح مصر غير ثابت فالطبري ج ١ ص ٢٥٩٢ يذهب الى ان تاريخ فتح

مصر هو ربيع الاول سنة ١٦ (نيسان سنة ٦٣٧) . قابل ابن عبد الحكم ص ٥٣ ، ٥٨

(٣) A. G. Butler, *The Arab Conquest of Egypt* (Oxford, 1902, pp. 245-7)

(٤) يقول اخباريو العرب ان المقوقس اهدى الى رسول الله مارية القبطية واختها ولقد ولدت له الأولي ابراهيم . اما البغلة الشهباء والجمار الأشهب اللذان أهداهما أيضاً للرسول فقد كانا اول ما ادخل من صنفيهما من الحيوان الى الحجاز . ابن عبد الحكم ص ٤٨-٩

يقابلهم عشرون الفاً من الجند البيزنطي عدا حامية الحصن المؤلفة من خمسة آلاف .
وفي القتال بين الفريقين في منتصف الطريق بين المعسكرين في تموز سنة ٦٤٠
تفرق جيش البيزنطيين وفر ثيودورس الى الاسكندرية واحتوى المقوقس في بابلين .
وضيق العرب الحصار على بابلين ولم تكن بأيديهم آلات للحصار او وسائل للتدمير
يهدمون القلعة بها . فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه سعى سراً الى رد
الحاصرين بالمال فلم يفلح وكان جواب عمرو الى رسله « انه ليس بيني وبينكم
الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخوانا وكان لكم ما لنا
وان ابيتتم واعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال
حتى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين » ^(١) . ولما رجعت الى المقوقس رسله قال لهم
فما يروى كيف رأيتموهم قالوا : « رأينا قوماً الموت احب الى احدهم من الحياة
والتواضع احب اليه من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم
على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضعهم
ولا السيد فيهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يستخلف عنها منهم احد » ^(٢)
فرد اليهم المقوقس ان ابعثوا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ما عسى ان
يكون فيه صلاح لنا ولكم . فبعث عمرو عشرة انصار احدهم عبادة ابن الصامت
وهو اسود فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فقال المقوقس : « نحوا عني هذا الاسود
وقدموا غيره يكلمني » فقالوا جميعاً : « هذا الاسود سيدنا وخيرنا والمقدم علينا » ^(٣)
وطلب عبادة الى المقوقس ان يختار احدى الخصال الثلاث فقبل بتأدية الجزية
وانقلب راجعاً الى الاسكندرية ليرفع شروط الصلح الى الامبراطور هرقل . ولم
تترض تلك الشروط الامبراطور فغضب على عامله واتهمه بالخيانة ونفاه .

رابط العرب على حصن بابلين سبعة اشهر تمكن الزبير في نهايتها من ردم

(١) ابن عبد الحكم ص ٦٥

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣) المصدر نفسه ص ٦٦

بعض الخندق . ثم اتى بسلم فصعد عليه حتى اوفى على الحصن وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون واتبعوه ففتح الحصن عنوة في السادس من نيسان سنة ٦٤١^(١) . وبعد ان تم لعمر وفتح الجانب الشرقي من ارض الدلتا اخذت قبضته الحديدية تشد على رأس الدلتا وسقطت نقيوس (نكيو وهي شبشير اليوم) في ١٣ ايار وتلا سقوطها معركة دموية . اما الاسكندرية وهي يومئذ ابدع مدن الارض وايقواهن بعد القسطنطينية فلم تكن قد سقطت بعد .

وكان عمر ابن الخطاب قد اشفق ممّا اخبر به عن عمرو وقلة من معه من الجند فارسل الامداد حتى بلغت قوات العرب في مصر نحو ٢٠ الفاً وتمكّن عمرو من الزحف على الاسكندرية فما لبث ان نزل في ظاهرها وسرح طرفه فيما يحيط بها من اسوار منيعة وصرح عانت السماء ووقفت تحرس مدينة مصر الأولى . وفي الجانب الواحد من المدينة انتصب عمود السواري^(٢) القائم على آثار السرايوم الذي كان هيكل الاله سرايوس ودار علم يحوي خزانة الاسكندرية الشهيرة . وبرزت في الجانب الآخر كنيسة تعرف بالقيسارية^(٣) عند العرب وهي كاتدرائية القديس مرقس ، واصلاها معبد شيدته كليوباترة اكراماً ليوليوس قيصر واكمل بنيانه اوغسطس ، والى الغرب ارتفعت السلطان المبنيان من غرانت اسوان الاحمر والمنسوبتان الى كليوباترة ايضاً والصحيح ان بانيهما تحتس الثالث (نحو ١٤٥٠ ق. م) . ولقد نقلت احدهما الى بلاد الانكليز وهي اليوم على رصيف التامس في لندن والاخرى الى مدينة نيويورك حيث نصبت في احدى حدائقها العمومية . وفي طرف اللسان الداخل في البحر ارتفعت منارة الاسكندرية (الفاروس) شاحخة في السماء وفي اعلاها مرآة عظيمة من نوع الاحجار الشفافة تلقي شعاعها على البحر نهاراً ، ومكان مرتب لوقود النار طول الليل تهتدي به السفن عن بعد . وهي تعد بحق من عجائب الدنيا

(١) البلاذري ص ٢١٣ : ابن عبد الحكم ص ٦١ وما يلي .

(٢) القريري ، المواعظ ، (بولاق) ج ٣ ص ١٢٨ وما يلي .

(٣) ابن عبد الحكم ص ٤١ ، ٤٢ .

السبع^(١) . ولعل دهشة هؤلاء العرب القادمين من الجزيرة حين وقفوا امام الاسكندرية لم تكن أقل من دهشة المهاجر القادم الى مدينة نيويورك اليوم عندما تقع عيناه على جسورها وما فيها من ناطحات السحاب .

وكان في الاسكندرية حامية بلغ عددها ٥٠ ألف مقاتل . ينجدها الاسطول البيزنطي القوي وقاعدته في مينائها بينما كان العرب اقل عدداً وعدة وليس لهم سفن ولا آلات حصار او سبيل مباشر يكفل لهم وصول المدد السريع .

وقد وصف لنا يوحنا النحوي وهو مؤرخ معاصر كيف 'صدّ العرب اول مرة امام عرّادات العدو التي كانت تمطرهم وابلاً من الحجارة من فوق اسوار المدينة'^(٢) . وخلف عمرو بالاسكندرية عدداً من اصحابه وشق طريقه الى بابليون ومنها جرد بعض الحملات على مصر العليا . ثم مات هرقل (شباط سنة ٦٤١) فخلفه ابنه قسطنطين الثاني (٦٤٢ - ٦٨) وهو حديث السن فرضي عن المقوقس وانفذه الى الاسكندرية فامّاها يسعى الى الصلح . وكان المقوقس يطمح الى ادارة شؤون البلاد تحت رعاية المسلمين فوقع في ٨ تشرين الثاني سنة ٦٤١ معاهدة يحوز تسميتها بمعاهدة الاسكندرية وقبل ان تستلم مصر صلحاً بفريضة دينارين على كل رجل وخراج مما تنتجه الارض والزرع . وتعهد أن لا تعود سفن الروم الى ساحل مصر ولا يعمل اسطولهم على استرجاع البلاد . وتم جلاء الروم عن المدينة في ١ ايلول سنة ٦٤٢ . ولم يجرؤ الامبراطور قسطنطين وهو حدث ضعيف الجانب على الممانعة فاقر المعاهدة التي اسفرت عن انتقال مقاطعة من افضل ممتلكات الامبراطورية الى ايدي العرب .

وكتب عمرو ابن العاص الى عمر ابن الخطاب يقول :

اما بعد فاني فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصببت فيها اربعة الاف منية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ملهى

(١) القرينزي ، ج ٣ ص ١١٣ - ٤٣ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٣ - ٥٠ .

(٢) H. Zotenberg , *Chronique de Jean , évêque de Nikiou. Texte éthiopien* , (٢ with tr. (Paris , 1883) p. 450

للملوك (١) .

وكيف استقبل الخليفة عمر من جاءه بهذه البشري ؟ قال : « يا جارية هل من طعام ؟ فاتت بخبز وزيت فقال : كل . ثم قال : يا جارية هل من تمر ؟ فاتت بتمر في طبق . وخرج الى المسجد فقال للمؤذن : اذن في الناس . الصلاة الجامعة . فاجتمع الناس ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس . (٢) »

وذكر ابن عبد الحكم (٣) (المتوفى ٢٥٧ / ٨٧١) وهو صاحب اقدم كتاب محفوظ في فتح مصر ان اسقف القبط في الاسكندرية لما بلغه قدوم عمرو ابن العاص الى مصر كتب الى القبط انه لا تكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو . ويقال ان القبط الذين كانوا بالقرماء كانوا يومئذ لعبرو اعوانا ، وما ذلك بمستبعد . فقد اشتد الجفاء بين كنيسة الملكيين - كنيسة الدولة - وفرقة المونوفيزيين وهي الديانة الوطنية فبالغت الاولى في الكيد والمكر بالثانية والتضييق على ابنائها . وكان هرقل قد انصرف بما اوتيه من دهاء الى حمل القبط على ابطال طقس العبادة القبطي واوعز الى المقوقس ان يدعو الكنيسة الوطنية قسراً الى اتخاذ تعاليم المونوثيلية مذهباً فهاج رجال الكهنوت من القبط فانزل فيهم المقوقس شر الاضطهاد والارهاب وعدته تواريخ القبط المسيح الكاذب واعتبرته عدو الامة بل عدو الدين المسيحي .

وتحول عمرو من الاسكندرية فنزل عين شمس واتخذ مقره في الموضع الذي ضربت فيه أخبية الجيش أول ايام الفتح واختط عاصمته المعروفة بالقسطاط وكان ذلك نزولاً عند رغبة عمر ابن الخطاب واسوة بالجالية في الشام وبالبصرة والكوفة في العراق . وبنى عمرو في القسطاط (٤) المسجد واتخذ فيه المنبر فكان اول مسجد

(١) ابن عبد الحكم ص ٨٢ وقابل Zotenberg , p. 463

(٢) ابن عبد الحكم ص ٨١

(٣) ص ٥٨ - ٩

(٤) كلمة لاتينية معناها معسكر

في مصر (٦٤١ - ٢) وهو لا يزال الى اليوم الا ان شكله الحاضر يمثل اضافات وزيادات عديدة . وبقي القسطنطينية (مصر العتيقة) عاصمة مصر الى ان بنى الفاطميون القاهرة سنة ٩٦٩ . واحتقر عمرو القناة الفرعونية القديمة فسميت خليج امير المؤمنين^(١) وهي تمر بعين شمس وتربط النيل شمالا من بابلون بالبحر الاحمر^(٢) عند القلزم^(٣) وكان ذلك تسهيلا لما اراده العرب من نقل المؤونة الى الحرمين . وكان الامبراطور تراجان قد جدد فتح القناة ولكنها طمت بالتراب على مر السنين وامتلات رملاً وطنياً .

وسخر عمرو العملة فشق القناة في بضعة اشهر وقبل وفاة الخليفة عمر (٦٤٤) كانت عشرون سفينة قد وردت على المرافئ العربية^(٤) حاملة بعض حاصلات الديار المصرية . وعرفت هذه القناة من بعد بالخليج الحاكمي نسبة الى الخليفة الفاطمي (المتوفى ١٠٢١) وبقي الخليج معروفاً بشق الاسماء حتى أواخر القرن التاسع عشر . جنح حكام البلاد العرب الى نظام الحكم البيزنطي فابقوا القديم على قدمه ولم يعدلوا من اقسام الادارة بما فيها ادارة المال شيئاً يذكر الا ما أضافوه من اجراءات ضمنوا بها نفوذ الحكومة المركزية في القطر . واحتفظوا باشكل الحكومة الموروثة عن العهد السابق شأنهم في سياسة البلاد الاخرى كسورية والعراق وفارس . وانهجوا خطة من قبلهم من ولاية مصر فاستباحوا لانفسهم خيرات البلاد واستثمروها وحسبوا الارض « بقرة حلوبا » يدلنا على ذلك ما عثر عليه في مصر اخيراً من مذكورات اوراق البردي . وكان عمر ابن الخطاب قبل وفاته قد استقل ما يحصله عمرو من ضرائب البلاد فولى عبدالله ابن سعد ابن ابي سرح على الصعيد . ولما استخلف عثمان عزل عمراً وولى ابن ابي سرح وهو اخوه للرضاعة على جميع البلاد المصرية .

(١) ابن عبد الحكم ص ١٦٢ - ٧

(٢) قابل السعودي ج ٤ ص ٩٩

(٣) كلزما في القديم وهي السويس اليوم

(٤) يعقوبي ج ٢ ص ١٧٧

وتقضت الاسكندرية العهد سنة ٦٤٥ وخرج اهلها على الحكومة الجديدة واسترحوا الامبراطور قسطنطين فارسل ثلاثمئة سفينة عليها منويل^(١) الخصي الارمني فاحتل برجاله الاسكندرية بعد أن ذبحوا حاميتها وهي الف رجل واعادوها قاعدة بحرية ومركزاً للهجوم على القوة العربية في مصر . وللحال اعيد عمرو للولاية لما له من معرفة بالحرب وهيبة في العدو فلقى العدو في جوار نقيوس وقتل من جيشهم عدداً كبيراً . وهكذا تم استيلاء المسلمين للمرة الثانية على الاسكندرية في مطلع سنة ٦٤٦ فدمرت اسوار المدينة المنيعة وظلت الاسكندرية في ايدي المسلمين الى هذا الوقت .

مكتبة الاسكندرية

اما القصة التي تقول ان عمراً احرق مكتبة الاسكندرية باشارة من الخليفة واحي بها حمامات المدينة مدة ستة اشهر فينكرها البحث العلمي . فلقد احرق مكتبة البطالسة العظمى يوليوس قيصر حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ ق . م . اما « المكتبة الصغرى » التي نشأت من بعد فلقد اتلفت بامر الامبراطور ثيودوسيوس حوالي سنة ٣٨٩ . واندثرت مكاتب الاسكندرية من بعد ذلك فلم يك في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتح . زد على هذا ان احداً من الكتاب المعاصرين لهذه الحوادث لم يتهم الخليفة او عامله باحراق مكتبة ما بالاسكندرية . ولا نعرف احداً روى هذه القصة قبل عبد اللطيف البغدادي^(٢) المتوفى سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ ولسنا نفهم الباعث الى اختلاق هذا النبا الذي اعتد به المؤلفون المتأخرون وزادوا عليه^(٣) .

واراد عثمان بعد جلاء الروم ان يكون عمرو على الحرب وعبد الله ابن سعد ابن

(١) البلاذري ص ٢٢١

(٢) في الافادة والاعتبار ، نشره وترجمه (للاتيكية) هويت (اكسفورد ، ١٨٠٠) ص ١١٤
(٣) القفطي ، تاريخ الحكماء ، نشر لبرت (ليزغ ، ١٩٠٣) ص ٣٥٥ - ٦ ؛ وابو الفرج ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، نشر الصالحاني (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٧٥ - ٦ ؛ القريري ، الخطط ج ٣ ص ١٢٩ - ٣٠ ، وراجع ٥- 452 ، vol. v, pp. 401 - 26 ; Gibbon, Decline, ed. Bury ,

ابي سرح على الخراج فقال عمرو : « انا اذاً كملك البقرة بقرنيها وآخر يحملها »^(١)
فولى عثمان عبد الله على مصر .

وكان عبد الله ادارياً افضل منه مقاتلاً . على انه ما كاد يلي مصر حتى بعث المسلمين في جرائد خيل فاصابوا من الغرب والجنوب وغنموا وافلح هو في توسيع نطاق عمله في كلتا الناحيتين . اما المهمة الحربية الكبرى التي افلح فيها فهي انه انشأ اول عمارة بحرية اسلامية وتلك مأثرة تحفظ له ولعاوية . صاحب الشام اذذاك . وغدت الاسكندرية بطبيعة الحال قاعدة للاسطول المصري . وكانت الحملات البحرية سواء التي تولاهها عبد الله من مصر او تلك التي انفذها معاوية من ساحل الشام مصوبة على البيزنطيين . واستولى معاوية على قبرس سنة ٦٤٩ وهي قاعدة هامة للعمارة البحرية البيزنطية كان المسلمون يخشونها لتدانيها من الشواطىء السورية . فسجل للإسلام اول ظفر بحري واضيفت الى الدولة الاسلامية اول جزيرة . وفي السنة التالية فتحت ارواد وهي قريبة جداً من الساحل السوري . وسنة ٦٥٢ بدد عبد الله عمارة بحرية قوية للروم في معركة جرت قبالة الاسكندرية . ومضت سنتان فبعث معاوية جنادة ابن ابي امية الازدي فغزا رودس^(٢) . وفي سنة ٦٥٥^(٣) التقى الاسطول السوري المصري الذي جرده معاوية وعبد الله باسطول بيزنطي مؤلف من ٥٠٠ مركب فدارت الدائرة على الروم بالقرب من فينكس امام شواطىء لىسيا . وغلبت الروم وقهر الامبراطور قسطنطين الثاني الذي حضر المعركة بنفسه وفر يطلب النجاة . هذه معركة ذي الصواري^(٤) التي حل فيها القضاء المبرم على سيادة الروم البحرية . على ان المسلمين لم يصلوا الى القسطنطينية ، وهي هدفهم الابد ، لان القلاقل الداخلية حالت دون ذلك . وفي سنة ٦٦٨ او ٦٦٩ سارت عمارة بحرية مؤلفة من مئتي سفينة من

(١) ابن عبد الحكم ص ١٧٨ ؛ قابل البلاذري ص ٢٢٣

(٢) وهناك حملة اخرى جرت في سنة ٥٢ / ٦٧٢ ذكرها البلاذري ص ٢٣٥ - ٦ .

(٣) قابل C.H. Becker , art. « Abd Allāh B. sa'd » *Encyclopaedia of Islam* .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ - ١٩١

الاسكندرية فتخطت البحر حتى سقلية (سقلية) فغزتها . وكانت سقلية قبلاً قد انتهت مرة على الاقل (٦٥٢) على يد احد قواد معاوية ^(١) . اذاً فمعاوية وعبدالله اول اميرين من امراء البحر الذين انجبههم الاسلام ^(٢) .

لم تقم هذه الحملات البحرية على تشجيع خلفاء المدينة او تحبيذهم بل كانت على عكس ذلك تنظم دون رضاهم . هذا ما يؤخذ من مضمون بعض العبارات الخطيرة التي نجدها في المصادر . فلقد كتب الخليفة عمر الى عمرو وهو في مصر : « لا تجعل بيني وبينك ماء وانزلوا موضعاً متى اردت ان اركب راحتي واصير اليكم فقلت » . ^(٣) ولم يسمح عثمان لمعاوية بغزو قبرس مع انه اخبره بقربها ^(٤) وسهولة الامر فيها الا بعد ان اوصاه ان يركب البحر ومعه امرأته ^(٥) .

ونظر البيزنطيون فاذا ممتلكاتهم الافريقية المتاخمة لمصر يهددها العرب بعد ان اصبحت مصر لقمة سائغة لهم . وادرك العرب ايضاً ان احتلالهم الاسكندرية لا يضمنه الا اكتساح هذه الممتلكات وضمها الى دار الاسلام . وكان عمرو من بعد فتحه الاول للاسكندرية قد اهتم بصون مؤخرته فسار في الخليل على المشهور من نشاطه وفطنته غرباً الى انطابلس (بنتابولس) واحتل برقة دون كبير عناء . وخضعت له اللواته من قبائل البربر وطرابلس ^(٦) . ولما عزل عمرو وأمر عبدالله وجه هذا السرايا الى افريقية واحتل البلاد التي كانت عاصمتها قرطاجنة ^(٧) واخذ منها الخراج . وجعل عثمان للبربر ، وهم عبدة او ثان لا تشملهم جامعة اهل الكتاب ، مثل ما لاهل الذمة من امتياز في البيئة

(١) البلاذري ص ٢٣٥

(٢) ان تفاصيل الوقائع البحرية في هذه الحقبة ضئيلة جداً في المستندات العربية

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٠ ؛ الفخري ص ١١٤ يروي ان عمر كتب الى سعد الا يجعل بحراً بين الخليفة والسلمين .

(٤) تبدو قبرس للرأي في بعض ايام الصيف الصافية الجو ويشاهدها المرء عند الغروب من بعض القرى العالية في لبنان كضهور الشوير ومحمدون .

(٥) البلاذري ص ١٥٢ - ٣

(٦) اليعقوبي ج ٢ ص ٧٩

(٧) ابن عبد الحكم ص ١٨٣

الاسلامية . وُبعث المسلمون جنوباً الى بلاد النوبة ليطأوها وهي تحاكي جزيرة العرب في مراعيها بل هي أكثر ملائمة من وادي النيل لطبيعة الحياة البدوية . وقديماً في ايام الجاهلية الاولى كان بعض العرب يتسربون احياناً الى مصر والسودان . وسنة ٦٥٢ صالح عبد الله اهل النوبة ^(١) ولكن نار كيدهم لم تنطفئ بذلك . وفي القرون التالية اخذت مملكة النوبة النصرانية وعاصمتها دَقَلَة وسكانها خليط من الليبيين والزنوج تقف حاجزاً يمنع توغل الاسلام الى جنوب القارة الافريقية .

(١) البلاذري ص ٢٤٧ - ٨

الفصل الخامس عشر

إدارة الممتلكات الجديدة

كيف تدار تلك الامصار الواسعة الشاسعة التي فتحها المسلمون ؟ وكيف يوفق بين احكام غير منسقة قوامها العرف والعادة وضعت لمجتمع عربي بدائي وبين حاجات مجتمع جديد هائل من اخلاط الملل والنحل يعيش تحت ظروف متباينة ؟ تلك كانت اعقد مشكلة واجهت الاسلام والقائمين على امور الحكومة الفتية . واول من تصدى لهذه المسألة الخطيرة كان الخليفة عمر بحيث يعتبر مؤسس الحكومة الدينية الثانية - الجمهورية الفاضلة الاسلامية - التي لم يقدر لها عمر طويل .

عمر - عمر

وجعل عمر لنظريته التشريعية اسماً اولها الا يسمح بالبقاء في الجزيرة العربية لغير الاسلام ديناً . وعملاً بهذه القاعدة الاساسية أجلى يهود خير^(١) سنة ١٤-١٥ / ٦٣٥ - ٦ فيمن اجلهم بالرغم من عقود الامان السالفة^(٢) فالتجأوا الى اريحا وسواها . وكذلك اجلى نصارى نجران الى الشام والعراق^(٣) . والاساس الثاني هو ان ينظم العرب الذين أصبحوا كلهم مسلمين كتلة واحدة ويجعل منهم جمهورية دينية حربية يحافظ اعضاؤها على تفاوتهم العرقية وعدم اختلاطهم مع غيرهم بالزواج وهو نوع من الارستقراطية العسكرية ويحرم من لم يكن عربياً من حق الرعوية في هذه الجمهورية وتنفيذا لهذا فرض على المسلمين العرب الا يملكوا الاراضي الزراعية خارج الجزيرة العربية . أما في الجزيرة فلقد ترتب على من يستملك ارضاً أن يؤدي العشر . ومن هنا نرى ان

(١) خير واحة على بعد مئة ميل الى الشمال من المدينة لمن يريد الشام .

(٢) انظر الواقدي، المغازي ص ٣٩١-٢ ؛ ابو يوسف ، كتاب الخراج (القاهرة، ١٣٤٦) ص ٨٥-٨٦ حيث تجد الشروط التي اشترطها النبي عليهم . (٣) البلاذري ص ٦٦

الفاحين العرب كانوا يحلون معسكرات خاصة كمعسكر الجابية وحصص (سورية) وعمواس وطبرية ^(١) (الاردن) والد ثم الرملة (فلسطين) . اما في مصر فانزلوا القسطنطينية ومعسكر الاسكندرية . واختطوا في العراق الكوفة والبصرة فاصبحتا مقرين ^(٢) لهم . وخولت الشعوب المغلوبة من سكان الامصار حق الانصراف الى اعمالهم وزراعة الارض الا انهم كانوا اتباعاً وفي نظر الفاتحين هم مادة المسلمين . ^(٣) وكان الاعجمي ولو قبل الاسلام في منزلة دون منزلة المسلم العربي . على ان الاسلام اوصى باهل الذمة ^(٤) خيراً وان يوفى لهم بعهودهم وان يقاتل المسلمون من ورائهم والا يكلفوا فوق طاقتهم . الا انه لا يسمح لهم في ان يشتركوا في الحرب لان الدين حظر دخولهم في جيش الاسلام . وقد وجبت الجزية على جميع الذميين ولما كانت احكام الشريعة المحمدية لا تسري عليهم فقد فوض الى رؤسائهم الروحانيين امر الاشراف على قضايائهم حسبما تفرضه شرائع اديانهم . تلك حال خاصة بهم وفيها شيء من مزايا الاستقلال الذاتي في الاحوال الشخصية . ولقد سلم سلاطين الترك لاهل الذمة بأصول هذا الوضع الخاص . ولا تزال سنته جارية الى اليوم في بعض البلدان العربية كسورية مثلاً .

وتسقط الجزية عن الذمي بمجرد دخوله في الاسلام وهو ما رسمته الاصول الشرعية الاولى التي نسبتها الاخبار الى عمر القاروق . وتشمل الجزية ما يؤخذ على الرؤوس . اما الخراج فيؤخذ من اهل الذمة سواءً اسلموا ام لم يسلموا . ذلك لانه موضوع على رقاب الارض وهي فيء افاءه الله على الجماعة الاسلامية . ويخرج من حكم الفيء الارض التي استولى عليها المسلمون صلحاً فصار اهلها بهذا الصلح اهل

(١) طبرية اليوم . اما عمواس ، بفتح العين او بفتح العين والميم ، فهي عماس القديمة ، لوقا ١٣:٢٤
(٢) نشأ في القرن الاول للهجرة عدد من هذه المقرات للجند منها معسكر مكرام في خوزستان وشيراز في فارس وبرقة والقيروان في شمال افريقية .

(٣) يحيى ابن آدم ، كتاب الخراج ، نشر جوينبل (لندن ، ١٨٩٦) ص ٢٧

(٤) أريد باهل الذمة - اول الامر - اهل الكتاب من النصارى واليهود والصابئة . ثم عومل اتباع زرادشت معاملة الذميين .

عهد وجاز اقرارهم فيها على التأييد وهي تسمى دار الصلح . ومتى سقطت الجزية عن الداخل في الاسلام حلت محلها الزكاة التي لا يجب على المسلم في ماله حق سواها . ولحديث العهد في دين الله سهم من الفئ والغنيمة وله حق في الرواتب والمعاشات التي توزع في المسلمين .

والحقيقة ان الاخبار تعزو الى عمر كثيراً مما احدثته السنون التي لحقت عهده من انشآت دعت اليها انتجارب والاحوال الجديدة ، وان ما جاء به الخلفاء الاول وعمال الامصار الأول في صدد الخراج والجزية واصول جبايتها وسياسة اموال الدولة لم يكن بالشئ الخطير . فلقد ابقى الاسلام اساس الحكم وانظمة الادارة البيزنطية على ما كانت عليه في سورية ومصر ولم يفكر ارباب الامر في الامصار الفارسية ان يبدلوا اصول الحكومة المحلية . ولم يأخذ الفاتحون الضرائب الا طبقاً لطبيعة البلاد وبمقتضى الاصول المرعية في العهد المنقرض سواء أكان بيزنطياً ام فارسياً . ولم يعتبروا في ذلك اذا كانت البلاد قد دانت لهم صلحاً او انهم فتحوها عنوة ولا اهتموا بتشريع قد أوجده عمر . فالنظرية التي تقسم البلاد الى المفتوح صلحاً والمفتوح عنوة لم تكن الا تفسيراً متأخراً اخذ بها القوم من بعد ولا اصل تاريخي لها . وكذلك شأن تفريقهم بين الجزية والخراج (ولعلها لفظة خوريجيا اليونانية) فالتمييز بينهما لم يكن معروفاً ايام الخليفة الراشد الثاني (٦٣٤ - ٤٤) . ولم ترد اللفظتان في العصر الأول الا بمعنى واحد مترادف اي الضريبة على التعميم . ولم يورد القرآن لفظة « جزية » الا في سورة التوبة الاية ٢٩ وذلك دون معنى شرعي معين . اما لفظة « خراج » فقد وردت في القرآن مرة واحدة ايضاً (سورة المؤمنين الاية ٧٤) بمعنى الاجر . والظاهر ان الشروط الاصلية التي عقدت مع الامم المغلوبة ادركها النسيان في الزمن الذي أخذ فيه المؤرخون بتدوين هذه الاخبار ففسروها على ضوء الاحوال والتطورات المتأخرة .

اما وجوه الاختلاف بين الجزية والخراج فلم تعين حتى اواخر العصر الاموي .

واشترط لتأدية الخراج اوقات مضروبة الاجل يقبل فيها الدواب والمتاع وغير ذلك وهو يؤخذ بالقيمة ولا يؤخذ في الخراج ميتة ولا خنزير ولا خمر . اما الجزية فتؤخذ دفعة واحدة وهي علامة المذلة وجزاء على الامان . والغالب ان يؤخذ من كل فرد من الاغنياء اربعة دنانير ^(١) جزية ومن افراد الطبقة الوسطى ديناران ومن الفقراء دينار واحد . ولقد كلفت الشعوب المغلوبة فوق ذلك بضرائب أخرى لاعالة جند المسلمين . ولم تجب الجزية الا على الرجال الاصحاء العقلاء فلم توضع على امرأة او صبي ولا مجنون ولا عبد ولا سابل او سائل ولا راهب او شيخ او زَمَن الا اذا اسروا .

والاساس الثالث الذي استنه عمر بعد مشاوره معاويه من الصحابة ^(٢) هو ان الغنيمة ^(٣) تشمل المال والاسرى مما وقع للقاتمين وهي حق للمقاتلين . اما الارض وما يجبي من اهلها فليست غنيمة بل فيئاً ^(٤) يصرف في مصالح الجماعة الاسلامية . وكذلك فان من يقوم بحراثة ما هو فيء من البلاد فعليه ان يؤدي خراجاً لا يسقط بالاسلام . وكان كل ما اصابه المسلمون من موارد البلدان التي فتحوا يجب ان يودع في بيت المال ويصرف في مصالح المسلمين كادارة الحكومة وشؤون الحرب بما فيها الجيش وما زاد على ذلك فقسمة بين المؤمنين . وامر عمر باحصاء الناس لكي يحسن توزيع ما يأخذون فكان ذلك اول احصاء معروف يقصد منه ضبط ما ينفق في الامة من موارد الدولة . وبدأوا بقرابة النبي ، الاقرب فالاقرب . وفرض عمر لعائشة اثني عشر الف درهم ^(٥) - وهو اعظم ما فرض - ومن بعد اهل البيت

(١) لفظة دينار هي دينار بوس اليونانية واللاتينية وكانت وحدة النقد الذهبي في دول الاسلام وتعادل نحو نصف الليرة الانكليزية الذهبية وزناً . وكان الدينار يساوي نحو عشرة دراهم في عهد الخلفاء الراشدين ثم اصبح اثني عشر درهماً فيما بعد وزاد عن ذلك في بعض ادوار العصر العباسي .

(٢) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢١٢

(٣) تجد بحثاً في الغنيمة والفيء في الماوردي الاحكام السلطانية ، نشر أنثر (بون ، ١٨٥٣) ص ٢١٧

- ٥٤ : ابو يوسف ص ٢١-٣٢

(٤) انظر سورة الانفال ، الآية ٤٢ . وفيها ان خمس الغنيمة لله ورسوله - اي تعود للدولة .

(٥) كان الدرهم (درم في الفارسية من دراخيمه اليونانية) العربي وحدة في النقد الفضي تعادل العشرة منه في الاساس ديناراً غير ان قيمته اخذت تتغير في العصور التالية لصدر الاسلام .

يأتي المهاجرون فالانصار . ولقد قدم عمر اهل السابقة منهم ففرض للواحد خمسة آلاف أو أربعة الاف درهم ^(١) في السنة على المتوسط . ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً ففرض لهم على جهادهم وقراءتهم القرآن . ورتب للمقاتل خمسمئة الى ستمئة درهم في السنة على الاقل . ولم يدع عمر احداً من الناس الا فرض له شيئاً حتى بقيت بقية من النساء والاولاد والموالي ^(٢) ففرض لهم ما بين مئتي درهم وستمئة درهم في السنة ووضح ان عمر اخذ اصول تدوين الديوان ، الذي ضبط فيه دخل الدولة وخرجها وترتيب اهل العطاء في مراتب ، من انظمة الفرس حسبما اكده ابن الطقطقي ^(٣) وعلى ما تفيده لفظة ديوان وهي فارسية .

وكان دستور عمر عسكرياً اشتراكياً قوامه العروبة . وكان المؤمن الاعجمي بموجبه اعلى درجة من غير المؤمن . الا ان هذا الدستور لم يكن طبيعياً فلم يقوَ على مجالدة الزمن . فالخليفة عثمان الذي ولي الحكم من بعد عمر قد رخص لأبناء الجزيرة بامتلاك الاراضي في الامصار . ومضت السنون فاذا سيل الموالي العرم يطغى فيغرق تلك الارستقراطية العربية التي رفعت رأسها في اوائل عهد الفتح .

الجيش

وكان الجيش عبارة عن الأمة بكاملها في معرض الكفاح . والامير المتولي شؤونها هو الخليفة المقيم في المدينة يفوض السلطان الى معاونيه وقواده . وفي اوائل العهد الاسلامي كان القائد اذا فتح مصراً تولى الصلاة والقضاء فيه . ولقد افادنا البلاذري ^(٤) ان عمرو بن أبا الدرداء قضاء دمشق والاردن وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين . اذاً فهو اول من استقضى القضاء في الامصار ^(٥) .

(١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢١٣-١٤ ؛ الماوردي ص ٣٤٧-٨ ؛ ابو يوسف ص ٥٠-٥٤ ؛ البلاذري ص ٤٥٠-٥١

(٢) جمع مولى وهو الاعجمي الداخل في الاسلام المنتحق بالولاء باحدى القبائل العربية . وكانت مكانته الاجتماعية ادنى من مكانة المسلم العربي .

(٣) الفخري ص ١١٦ . وقابل الماوردي ص ٣٤٣ - ٤ .

(٤) ص ١٤١ . (٥) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٠٢

اما تقسيم الجيش الى فرق خمس هي المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة فيمن عن المؤثرات البيزنطية والساسانية . وهذه الوحدة من الجيش تسمى الخميس لاحتوائها على خمس فرق . اما الفرسان فهم حماة الميمنة والميسرة . ولقد جرى تقسيم الجيش على اساس الوحدة القبلية فكل قبيلة لواؤها وهو قطعة من نسيج ترفع على رمح يحمله احد الابطال . وكان شعار النبي العقاب وسلاح المشاة القوس والنشابة والمقلع واحياناً الترس والسيف . والسيف يحمل في غمده ويشد الى الكتف اليمنى . اما الحربة فلقد اخذها العرب عن الاحباش . وظهر سلاح الفارس العربي الرمح وهو قناة طويلة من الخيزران في رأسها حربة ويسمى الرمح في الأدب العربي بالخطي نسبة الى الخط وهو ساحل البحرين حيث كان الخيزران ينمو قديماً قبل استجلابه اليه من الهند . وكان الرمح والقوس والنشابة قوام السلاح القومي وخبر السيوف كانت تصنع آتئذ في الهند حتى صارت لفظة هندي مرادفة للسيف . اما الدفاع فعدته الدرع والترس . والعتاد الحربي عند العرب أخف منه عند البيزنطيين ^(١)

كان نظام القتال عند العرب ساذجاً يبدأ في صفوف متراصة متلاحمة . واول المناوشة براز بين افراد من اقوى رجال الطرفين واشدهم شكيمة يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويدعون العدو الى القتال . وكان المحارب العربي يموئذ يتقاضى ما يفوق راتب خصمه الفارسي او البيزنطي فضلاً عن حصته من الغنائم . فلم تكن الجندية أجل الاعمال واشرفها عند الله فحسب بل اوفر المهن دخلاً . علي أن عظمة الجيش العربي لم تقم على قوة السلاح او جودة التنظيم بل كانت ثمرة القوة المعنوية الروحية التي كان الايمان والدين قد عزّزاها في نفسه ، ووليدة الصبر والمثابرة اللذين تمنحهما البادية لابنائها ونتيجة سرعة حركته العجيبة التي هياها للعرب بالاكثرا اعتمادهم على الابل للركوب ^(٢) .

(١) في موضوع العدة والسلاح انظر ابن قتيبة ، عيون الاخبار ج ١ ص ١٢٨-٣٢ .

(٢) راجع المقارنة بين الجيش العربي والجيش البيزنطي في : Charles Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, 2nd ed. (London ,1924) vol. i, pp. 208 seq.

هفيفة المدنية العربية

وفتح العرب الهلال الخصب وبلاد الفرس ومصر فاستولوا على مواطن جغرافية هامة وامصار كانت اقدم مراكز الحضارة في العالم باسره . فورث ابناء الصحراء تلك الثقافات القديمة التي ترجع تقاليدھا الى عصور اليونان والرومان والايرانيين والقراعنة والاشوريين والبابليين . ولم يكن لاولئك العرب القادمين من الجزيرة علم او ادب او نظام ينقلونه الى الامم المغلوبة بل كان لهم ان يقتبسوا كل ذلك عنها . ولم يقف اقتباسهم عند حد ضيق بل ابدوا رغبة شديدة وقابلية فائقة لأخذ المعارف تدفعهم اليها عوامل الشوق الى الاطلاع والشغف بالاستكشاف . فما لبثت ان تحوت قواهم الكمينية الى قوى فعالة فانطلقوا بمعونة اخوانهم من ابناء البلدان المفتوحة الى استثمار ذلك التراث الفكري الغني والتبحر فيه وسوقه الى مجار تماشي عقليتهم . ففي المدائن والرها ونصيبين ودمشق والقدس والاسكندرية شاهدوا امثلة رائعة من بدائع المهندسين والصناع والصاغة فأعجبوا بها وطفقوا يقلدونها . لقد غلبوا فغلبوا ، غلبوا امماً لها حضارتها العريقة وخضعوا بدورهم لحضارة الامم نفسها التي غلبوها وظهر للعالم كيف يستطيع المغلوب ان يصبح غالباً .

واذن فهذه المدنية التي ندعوها المدنية العربية لم تكن عربية في اصولها او اركانها ولا بجنسية اربابها . وانما كان اثر العرب فيها مقتصرأ على اللغة والدين . ولم تزدهر دول الاسلام حتى قام السوريون والفرس والمصريون وغيرهم سواء من اسلم منهم ومن بقي على نصرانيته او يهوديته طوال تلك الحقب يتقدمون صفوف الامة حاملين مشعل النور والعرفان - شأن اليونان من قبلهم اذ غلبهم الرومان . فالمدنية العربية الاسلامية اذاً قامت على اساس المدنية الآرامية الهلينية والمدنية الايرانية وتدرجت في معارج الرقي تحت لواء الخلافة وعبرت عن نفسها بواسطة اللسان العربي . وباعتبار آخر فهذه المدنية العربية الاسلامية هي تكملة للمدنية السامية العريقة التي زهت في الهلال الخصب . ابتدعها ورعاها الاشوريون والبابليون والفينيقيون والآراميون

والعبرانيون ثم اتم عملهم العرب فهي مثال الذروة القصوى التي بلغتها مدينة البحر المتوسط القائمة في غرب آسية .

افهرو الخلفاء الراشدين

لقد كان الفتح العربي الذي دفع اليه ابو بكر قد بلغ ذروته في ايام عمر ثم اتت خلافة علي فهدأت حركة التوسع لان القلاقل الداخلية اقعدتهم عنها . ولم ينقض الجيل الاول على وفاة الرسول حتى امتدت دولة الاسلام من جيحون الى اقصى طرابلس الغرب . فهذه الخلافة العربية الاسلامية التي لم يكن لها في بدء امرها شيء من الحول اصبحت الآن اعظم قوة في العالم .

وعاش ابو بكر (٦٣٢ - ٣٤) مخضع الجزيرة وناشر علم السلام فيها عيشة البساطة والتقشف وكان منزله الوضع بالسنح مع زوجته حبيبة وهو يغدو كل يوم الى المدينة عاصمته . ولم يتقاض راتباً ما لان دولة الاسلام كانت آتئذ بلا دخل^(١) وقد تفرغ ابو بكر لشؤون الامة فكان يجلس لها في الساحة من مسجد النبي وقد كانت صفاته العالية وايمانه التي لا يتزعزع بصره النبي محمد الذي يكبره ثلاث سنوات عاملاً جعله من اقرب الشخصيات في فجر الاسلام الى القلوب واحبها واكسبه لقب الصديق^(٢) . وكان من حيث الخلق اكثر حزمًا وعزيمة مما ذكرت الاخبار عنه وقد ذكروا عن هيئته انه كان نحيف البنية خفيف اللحم ابيض البشرة وكان يخضب لحيته بالحناء والكمم واذا مشى احنى^(٣) .

واستخلف عمر (٦٣٤ - ٤٤) بعد أبي بكر فكان رجلاً جلدًا نشيطاً وكان مثال البساطة والاقتصاد ومن صفته انه كان طوالا اصلع^(٤) شديد الادمة وما انقطع

(١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٣١ - ٣٢ ، ابن الأثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ، ١٢٨٦) ج ٣ ص ٢١٩

(٢) انظر الصديق في ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٢٠ - ٢١ .

(٣) يعقوبي ج ٢ ص ١٥٧

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٥

اذ ولي الخلافة عن التكسب بالتجارة بل اعتاش بها زمناً وهو ينفق على نفسه من صلب ماله ولم يعيش عيشة رخاء او ترف بل آثر ان يعيش مثل أي رجل من قریش او شيخ من مشايخ البدو . والواقع ان عمر رفعته التقاليد الاسلاميه الى أعلى مرتبة بعد النبي ورأى فيه الكتاب المسلمون عنوان الورع والعدل والبساطة في الشيوخ فصوروه نموذجاً للفضيلة التي يحذر بالخليفة ان يزدان بها حتى أصبحت سيرته مثالا تحبذيه كل خليفة ذي ضمير حي . وقد زعموا أنه لم يكن لعمر الا قميص خلق وازار قَطْرِي مرقوع برقعة من آدم^(١) . وكان ينام على سعوف النخل ولا هم له الا الدفاع عن شعائر الدين واقامة العدل واعلاء شأن الاسلام وتأمين مصالح العرب . وقد حفل الأدب العربي بما يعزز سيرة عمر من الاخبار . فقد روى ابن عمر جلد ابنه حداً على الشرب والخلاعة فمات تحت حده^(٢) . ويروى ايضاً ان رجلاً لقي عمر فقال له ، يا امير المؤمنين انطلق معي فانصرني على فلان فانه قد ظلمني ، قيل فرفع عمر الدرة (السوط) فحقق بها رأسه وقال « تدعون امير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في امر من امور المسلمين اتيتموه : أعدني ! أعدني ! » فانصرف الرجل وهو يتذمر . ثم ندم عمر على ما فعل فدعا الرجل اليه وسأله ان يضربه كما ضربه هو . فأبى الرجل وانصرف الخليفة حتى دخل منزله فصلى ركعتين وقال يناجي نفسه : « يا ابن الخطاب كنت وضعياً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فاعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته . ما تقول لربك غداً اذا اتيته ؟ »^(٣)

ان عمر هذا الذي جعل هجرة النبي بدء التاريخ الاسلامي وقام على فتح الفتوح في الارضين ودون الديوان وكتب للناس على قبائلهم وفرض لهم الاعطية ونظم حكومة الدولة قد لاقى حتفه في ابان سطوته وقوته . ذلك انه بينما كان

(١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٣٧ - ٩ .

(٢) الديار بكرى ، تاريخ الخميس (القاهرة ، ١٣٠٢) ج ٢ ص ٢٨١ ؛ النويري ، نهاية الأرب

ج ٤ (القاهرة ، ١٩٢٥) ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) ابن الاثير ، اسد ، ج ٤ ص ٦١ .

يصلي في القوم وثب عليه ابو لؤلؤة غلام الغيرة ابن شعبة - وهو نجار نصراني فارسي - ^(١) بخنجر وطعنه فارداه في ٣ تشرين الاول سنة ٦٤٤ .

وبويع عثمان ، الذي جمع القرآن في الصحف من بعد ، فتمت في ولايته فتوح ايران وآذربيجان وبعض ارمينية . وكان شيخاً وقوراً طيب الارومة الا انه عجز عن التحكم في اطماع ذوي قرباه فولّى عبدالله اخاه للرضاة على مصر . وعبدالله هذا كان يكتب لرسول الله ولقد عرف عنه انه شك في صدق محمد والوحي ^(٢) فأخذه الرسول بذلك وكان من زمرة العشرة الذين اقصاهم محمد يوم دخوله مكة . اما الوليد ابن عقبة الذي أساء الى محمد واستحق لعنته فلقد ولاه عثمان وهو اخوه لامه على الكوفة . كما انه عقد لمروان ابن الحكم ابن عمه (الذي اصبح فيما بعد خليفة) على الديوان . واستسلم عثمان لآل بيته ^(٣) فامر صغارهم على جلة الاكابر من رجال الصحابة والاسلام واتته الهدايا من عماله واعوانهم . قالوا وصلته يوماً فتاة حسناء هدية من عامله في البصرة . وتعالى الشكوى وتقم الناس عليه محاباته لذوي القربى . وكان من الناقين ثلاثة من رجالات قريش كل منهم يمني نفسه بمنصب الخلافة وهم علي وطلحة والزبير . وظهرت الفتنة وبدأت الثورة في الكوفة وقد اصلى نارها انصار علي ثم اندلعت في مصر واشتد سعيها فاقبل من المصريين زهاء خمسمئة تأثر الى المدينة يريدون عثمان وذلك في نيسان سنة ٦٥٥ . فتسور بعضهم عليه فوجدوه - وهو ابن ثمانين - عند امرأته نائلة يقرأ في المصحف ^(٤) الذي كان قد ضبط قراءته ، واقتحم البغاة الدار يتقدمهم محمد ابن ابي بكر وهو ابن صديقه .

(١) الطبري ج ١ ص ٢٧٢٢ - ٣ ؛ البقوي ج ٢ ص ١٨٣

(٢) سورة الانعام : ٩٣ ؛ البضاوي ج ١ ص ٣٠٠

(٣) ابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ - ٤ ؛ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٤٤ ؛ المسعودي ج ٤ ص ٢٥٧ وما يلي .

(٤) يزعم ابن بطوطة (التوفى ١٣٧٧) ج ٢ ص ١٠ - ١١ ، انه لما زار البصرة ودخل مسجد رآى فيه المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه حين قتل واثر الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى « فسيفيكم الله وهو السميع العليم » (سورة البقرة : ١٣١) . ولقد روى ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٥٢ ان الدم الذي نزل من جرح عثمان يوم مقتله كان يسيل على المصحف حتى وقف عند الآية المذكورة . انظر مقال كاترمير في :

وسلفه الخليفة الاول . فقام اليه بمشقص (نصل عريض) حتى وجاه في رأسه ^(١) . وقتلوه فكان اول خليفة فتكت به ايد مسلمة وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ . وهكذا فان عصر الحكم الجمهوري الذي تركزت الزعامة فيه في مدينة النبي علي اساس مشيخي طافح بذكريات الرسول وروعة هيئته وعميق أثرها في النفوس قد انتهى الآن بحرب اهلية في سبيل الخلافة اولاً بين علي وطلحة والزبير ثم بين علي وطامح جديد هو معاوية زعيم البيت الاموي - هذا البيت الذي كان منه عثمان ، الخليفة المقتول .

الفصل السادس عشر

النزاع بين عليّ ومعاوية على الخلافة

المقدمة الاختيائية

كان ابو بكر من اول اعوان محمد ومن اصدق الصحابة موالاة له وقد أم المؤمنين في الصلاة اثناء مرض الرسول الأخير. ولما توفي النبي ببيع له في ٨ حزيران سنة ٦٣٨ بشكل من الانتخاب اشترك فيه من حضر المدينة من الزعماء فتسلم زمام الأمر وحمل مسؤوليات الرسول وخلفه في وظائفه المختلفة الا ما يخص النبوة فان هذه قد انتهت بموت النبي وهو خاتم الانبياء.

أما لقب خليفة رسول الله الذي عرف به ابو بكر فلعله لم ينتحله لنفسه. وقد وردت لفظة خليفة في القرآن في آيتين (البقرة : ٢٨ وصاد : ٢٥) ولا يظهر لها فيها اي معنى مصطلح او اية دلالة على ان اللفظة ستطلق على من يلي محمداً.

وعين ابو بكر عمر للخلافة من بعده وعمر احق المرشحين لها فدعي عمر خليفة خليفة رسول الله ورأى القوم هذه التسمية طويلة فاجتزأوها ^(١). ويروى ان الخليفة الراشد الثاني (٦٣٤ - ٤) كان اول من دعي بامير المؤمنين باعتباره الأمير الأعلى لجيوش المسلمين. ويقال ان عمر انشأ قبل وفاته مجلس انتخاب من ستة اعضاء : عليّ ابن ابي طالب وعثمان ابن عفان والزبير ابن العوام وطلحة ابن عبدالله وسعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف ^(٢). وامرهم ألا يجعلوا الخلافة

(١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٠٢

(٢) المصدر نفسه ج ٣ قسم ١ ص ٢٤٥ وما يلي.

من بعده لابنه . وفي تأليف هذا المجلس الذي يسمى الشورى وهو يضم اقدم الصحابة سناً واولاهم قدراً ما يدل على ان فكرة الزعامة القبلية القديمة عند العرب تغلبت على فكرة الملكية الوراثية .

وجاءت بيعة عثمان (٦٤٤) الخليفة الراشد الثالث فوزاً على عليّ فاذا هي نتيجة لأثر التقدم في السن . وكان عثمان زعيم الارستقراطية الاموية اما سلفاه فن زعماء المهاجرين ولم يحاول احد من هؤلاء الثلاثة اقرار الملك في اعقابهم .

وبعد مقتل عثمان ^(١) بويح لعلي ابن ابي طالب بالمدينة في مسجد النبي لاربعة وعشرين من حزيران سنة ٦٥٦ واعترف بخلافته كل العالم الاسلامي . وهو ابن عم الرسول وزوج فاطمة احبّ بناته اليه ووالد الحسن والحسين اللذين لم يكن لمحمد في ذريته من ذكور الاّهما . وعليّ ثاني من آمن بمحمد او ثالثهم وقد كان طيب النفس ودوداً تقياً شجاعاً . وكان حزب علي يقول بان الامامة تثبت بالنص والتعيين ^(٢) واحتجوا بان الله ورسوله ارادا علياً للخلافة دون سواء فهو الخليفة الشرعي من البدء واعترضوا على الثلاثة قبله - ابي بكر وعمر وعثمان - واتهموهم بانهم سلبوا علياً حقه المشروع .

موقف علي

واول مشكلة اهتم بها علي هي التخلص من منافسيه طلحة والزبير ^(٣) زعميي الحزب المكي وكان لكل منهما جمهرة من الاتباع في الحجاز والعراق رفضوا ان يعترفوا بولاية علي . وانضمت عائشة ام المؤمنين الى مقاومي علي وكانت قد واطأت الثائرين على عثمان وها هي اليوم تماليء الحاملين على علي في البصرة . وكان النبي قد تزوج منها وهي صغيرة السن جداً ^(٤) لا تزال تلهو بلعبها التي جاءت بها

(١) البلاذري ، انساب الأشراف (القدس ، ١٩٣٦) ج ٥ ص ٥٩ وما يلي

(٢) الشهرستاني ص ١٥

(٣) كانت ام الزبير اختاً لوالد الرسول

(٤) في التاسعة او العاشرة من عمرها على قول ابن هشام ، السيرة ، ص ١٠٠١

من بيت ابيها ابي بكر . وكانت مراحل البغض لعلّي تغلي في صدر عائشة للحادثة التي جرت لها يوم تخلفت عن ركاب النبي فقد ارتاب عليّ في سلوكها ونزل الوحي ببرائتها (سورة النور ، ١١ - ٢١) ولكنها لم تنس ذلك لعلّي .

وانطلق عليّ يجمع الفتنة فضرب على ايدي موقديها بجوار البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ . وتُعرف هذه المعركة بيوم الجمل لان عائشة التي تألب الثأرون حولها كانت راكبة جملًا وقد صرع في هذا اليوم منافسا عليّ على الخلافة طلحة والزبير . وكان من نبل علي ان اظهر الجزع والأسف عليهما ودفنهما في احتفال مهيب ^(١) وجيء بعائشة أسيرة فأحسن علي اليها وعاملها بمنتهى الاحترام الذي يليق بمكانتها باعتبار انها أم المؤمنين واذن لها في الرجوع الى المدينة . وبهذا انتهت اول معركة من المعارك التي حارب فيها المسلم أخاه المسلم على انها لم تكن الا فاتحة الحروب الأهلية في سبيل مسألة الخلافة في العالم الاسلامي ، هذه الحروب التي كانت تغمر الاسلام من حين الى آخر وتكاد تهز كيانه .

واستتب الأمر لعلّي في الظاهر فجعل الكوفة عاصمة له واستهل ولايته بعزل أمراء الامصار الذين استعملهم عثمان فاستعاض عنهم بغيرهم ممن بايعوه . وتربص معاوية ابن ابي سفيان وهو امير الشام منذ زمن عمر فلم يبايع عليا . ثم ألقى قتل عثمان بعلي وطالبه بدم الخليفة الشهيد . واخرج معاوية قميص عثمان الملوّث بالدم واصابع زوجته نائلة التي قطعت حين اتقت ضربة السيف عنه ^(٢) واستطاع معاوية بمحنه وسياسته وقوة ييانه أن يؤثر في قلوب أهل الشام ويحملهم على النقمة على عليّ . واحجم هو بدوره عن تقديم الطاعة لعلّي بل انه اوقع عليا في حيرة كبرى حين ارسل اليه مثل هذا الكلام : سلم قتلة عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمة او لا فإنك شريكهم في الجرم ولا حق لك في الخلافة . ولم تنطو هذه الخصومة على عداا شخصي فحسب بل تجاوزته الى التطاحن بين بيتين من قریش والى تنافس

(١) ولقد نشأت قرية الى جانب قبر الزبير تعرف باسمه الى الآن .

(٢) الفخري ص ١٢٥ ، ١٣٧

بين الكوفة ودمشق او قل العراق والشام في ايها يتصدر في الشؤون الاسلامية .
اما المدينة فقد عافها علي بعد ان بويج له سنة ٦٥٦ ولم يرجع اليها وكانت قد
فقدت سيادتها لما قضى به التوسع والفتوحات من انتقال مركز السياسة الى الشمال .
والتقى الجيشان بصفين في الشمال من الرقة على ضفة الفرات الغربية : عليّ على
اهل العراق وهم نحو خمسين الف مقاتل ومعاوية على اهل الشام ^(١) . وجرت
مناوشات ولم يكن لأي الفريقين رغبة شديدة في معركة حاسمة . فمضى الاسبوعان
وهم يكفون عن الحرب ثم يعودون اليها ، الى ان كان السادس والعشرون من تموز
سنة ٦٥٧ فرحف اهل العراق يتقدمهم مالك الاشتر فازالوا اهل الشام عن مراكزهم .
وظهرت امارات الظفر فاشار عمرو ابن العاص - وهو من هو حيلة ودهاء - على
معاوية برفع المصاحف على الرماح علامة على النزول عند حكم الله لا عند حكم
السيوف ، فتوقف القتال . وتأثر علي - لسلامة طويته - بفكرة معاوية في التحكيم
وقبل بما اراده اكثر اتباعه من ايقاف القتال حقناً لدماء المسلمين . وانما رضي علي
بالتحكيم شرط ان ينزل الفريقان عند حكم الله وكتابه ^(٢) على ما في ذلك
من الابهام .

حقاً ان علياً لم يكن راضياً عن انتخاب ابي موسى الأشعري نائباً عنه في مؤتمر
التحكيم لأن الاشعري على ما امتاز به من التقوى كان فاتراً في ولائه للحزب
العلوي . اما معاوية فقد انتدب عمرو ابن العاص - الذي سمي بداهية العرب ^(٣) -
ممثلاً . وجاء الحكمان كل يحمل صحيفة تخوله حق المفاوضة ويرافقه اربعمئة شاهد
وعقد الحكمان مؤتمراً علياً في اذرح - وكانت اذرح محطاً للقوافل بين المدينة
ودمشق وهي في منتصف المسافة بين معان والبتراء - وكان ذلك في كانون الثاني
من سنة ٦٥٩ .

(١) ابن عساکر ج ١ ص ٧٣

(٢) انظر نص وثيقة التحكيم في الدينوري ص ٢٠٦ - ٨

(٣) المسعودي ج ٤ ص ٣٩١

اما حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي فيصعب استجلاؤها وتضطرب المصادر العربية المختلفة في امرها ^(١) . والمتعارف ان الحكمين قد اتفقا على خلع الزعيمين وجعل الامر شورى بين المسلمين ليختاروا لانفسهم من احبوا فتقدم ابو موسى وهو اكبر الاثنين سنًا فخلع عليًا ومعاوية معًا . اما عمرو فخدع زميله وثبت معاوية بعد ان خلع عليًا . الا ان اباحث الأب لامنس ^(٢) النقدية وما سبقها من اباحث فلهوسن ^(٣) تدل على ان هذه الرواية انما تظهر ميول المدرسة العراقية التي تنتهي اليها كثرة المصادر الموجودة وهي قد وضعت في العصر العباسي عصر العداء لبني امية . والراجح ان ما نتج عن مباحثات مؤتمر اذرح هو ان الحكمين خلعا عليًا ومعاوية وبذلك وقعت الخسارة على علي لان معاوية لم يكن خليفة بل اميرًا على ولاية لا غير . وفي مجرد التسوية بين علي ومعاوية كمرشحين للخلافة في مؤتمر اذرح رفعٌ للثاني وحط من شأن الاول . فكأن عليًا سلم فيها انه مدع للخلافة كزميله ليس الا . وهكذا فقد كانت النتيجة من هذا المؤتمر ان خسر علي منصب الخلافة الذي كان فيه بينما لم يخسر معاوية سوى حقه في الخلافة ، هذا الحق الذي لم يكن قد ادعاه علانية بعد . علي ان معاوية لم يعلن خلافته الا بعد انقضاء سنتين على تحكيم اذرح وذلك في عام الجماعة بايلياء (بيت المقدس) سنة ٦٦١ .

والخطأ الفادح الذي ارتكبه علي بقبوله مبدأ التحكيم جرّ عليه الشر الوخيم حتى من اعوانه الذين خرجت عليه فئة منهم عرفوا بالخوارج ^(٤) واصبحوا اشد اعدائه عليه . ودعوى الخوارج ان عليًا اخطأ في التحكيم اذ حكم الرجال - والحكم لله -

(١) قابل الطبري ج ١ ص ٣٣٤٠ - ٦٠ ؛ المسعودي ج ٤ ص ٣٩٢ - ٤٠٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٢ ؛ الفخري ص ١٢٧ - ٣٠ .

(٢) *Études sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier* (Beirut, 1907) ch. vii. (٣) *Das Arabische Reich und sein Sturz* (Berlin, 1902) ch. ii = *The Arab Kingdom and its Fall*, tr. Margaret G. Weir (Calcutta, 1927) , ch. ii.

(٤) ويسمون ايضاً بالحرورية نسبة الى حروراء (حروراء في ياقوت ، بلدان ج ٢ ص ٢٤٦)

ومن هنا كان نداؤهم حين خرجوا عليه « لا حكم الا لله » ^(١) وساروا الى العراق وهم اربعة آلاف ^(٢) عليهم عبدالله ابن وهب الراسبي فضربهم علي في معسكرهم على ضفة النهر وانزل العقاب بهم حتى كاد يبيدهم . الا انهم ما لبثوا ان هبوا ثانية بعد هذا الانكسار وناووا اهل السلطة وعرفوا باسماء متعددة وظلوا شوكة في جانب الخلافة الى ايام العباسيين .

وفي اوائل كانون الثاني سنة ٦٦١ بينما كان علي في طريقه من داره بالكوفة الى المسجد فيها اعترضه خارجي اسمه عبد الرحمان ابن ملجم وضربه بسيف مسموم على أم رأسه فقتله . وكان ابن ملجم قد علق امرأة فائقة الجمال تدعى قطام كان ابوها واخوها قد قتلوا يوم النهر وانزلت من ابن ملجم شرطاً لتزويجها منه قتل علي ابن ابي طالب . وقد ذهبت بعض الاخبار الى ان ابن ملجم كان واحداً من ثلاثة خوارج اجتمعوا بالكعبة وتواعدوا على ان يكفوا الجماعة الاسلامية شر الثلاثة : علي ومعاوية وعمر بن العاص ^(٣) في يوم واحد . وهو خبر اشبه برواية منه بواقعة تاريخية . وصار مدفن ^(٤) علي في النجف مشهداً من اعظم مراكز الحج في الاسلام . وسرعان ما اصبح الخليفة الرابع ولياً رفيع القدر عند الشيعة بل هو عندهم ولي الله كما كان محمد نبي الله ورسوله . وهكذا اكسب الموت علياً ما لم تكسبه اياه الحياة . وهو وان اعوزته مرزايا الزعامة والسياسة من يقظة وتبصر وحزم وحيلة فانه مثال اعلى لخلق العربي الكريم بما عرف عنه من البسالة في الحرب والحكمة والفصاحة وحفظ العهود والعفو عند المقدرة . ومن هنا وضعت التقاليد الاسلامية علياً في اعلى مقامات الشرف والقوة والفروسية وصيرته « سليمان » الآداب العربية بما حاكت

(١) الفخري ص ١٣٠

(٢) اثنا عشر الفا في الشهرستاني ص ٨٦

(٣) قابل الدينوري ص ٢٢٧

(٤) تؤكد اخبار الشيعة ان هذا المدفن اختير امتثالاً لارادة علي قبل وفاته فلقد امر ان تحمل جثته على جل ولا تدفن الا في المكان الذي يجثو فيه الجمل . وقد اخفي هذا القبر في ايام بني امية وبعد ايامهم الى أن عثر عليه صدقة الخليفة هارون الرشيد سنة ٧٩١ . انظر اقدم وصف مفصل للقبر في ابن حوقل ، المسالك والممالك ، نشر دي غويه ، (ليدن ، ١٨٧٢) ص ١٦٣

حول اسمه من الاشعار والامثال والحكم والمواظ وجوامع الكلم . وكان علي اسمر اللون ادعج العينين اصلع ابيض الرأس تملأ لحيته صدره عظيم البدن ليس بالطويل ولا بالقصير ^(١) . وقد دُعي سيفه الذي امتشقه النبي في وقعة بدر الشهيرة بذِي الفقار (اي قاصم فقرات الظهور) وهو خالد في بيت من الشعر نراه على كثير من السيوف العربية التي ابقتها لنا العصور الوسطى :

لا سيف الا ذو الفقار (م) ولا فتى الا علي

وان حركة الفتوة وما يرافقها من رموز ومراسيم تحاكي ما جاءت به الفروسية الاوربية في العصور الوسطى وما اندرج في نظم الكشفية اليوم قد جعلت علياً نموذجها الاسمى . ولقد اتفق المسلمون على اعتبار علي نبراس الحكمة والشجاعة فوضعتة فرقاً من الفتيان واهل التصوف موضع الجلال النفسي وتخيلته مثلاً عالياً لها وذهب اتباعه من الشيعة الى انه طاهر منزّه عن الخطأ بل حسبه غلاتهم مجلى الله في البشر . ان علياً الذي لم يفلح في ميدان السياسة الدنيوية قد رفع الموت قدره واحله مركزاً لا ينافسه فيه الا الرسول . وان مواكب الحجاج الذين يتوافدون الى مشهد علي في النجف الاشرف والى مشهد الحسين شهيد الشيعة الاعظم في كربلاء وما يمارسونه من حالات الأسى والتفجع كل سنة حين تنشر في العاشر من محرم راية الحزن في انحاء عالم الشيعة وما في ذكرى مقتل الحسين المؤثر من الم وغصة - كل هذه الامور تثبت ان الموت قد ييسر للمرء ان يكون ولياً او مسيحاً اكثر من الحياة .

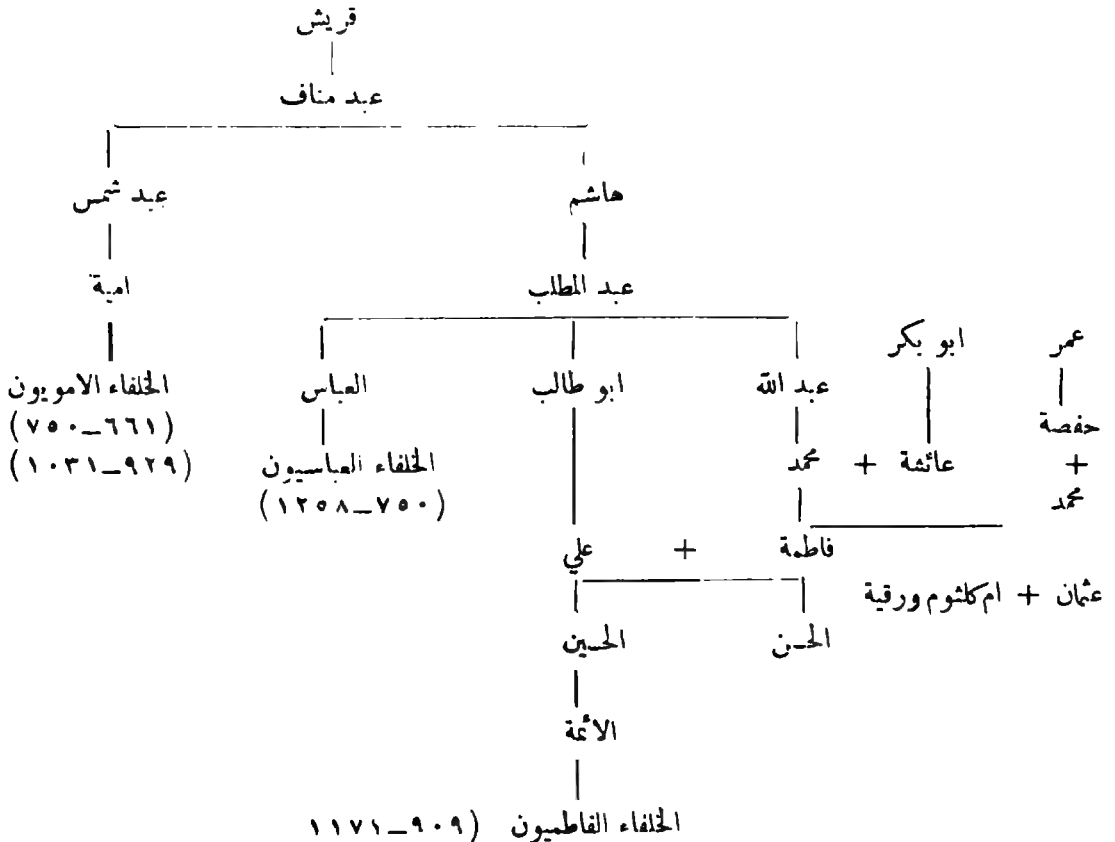
عصر الممونة

وبمقتل علي (٦٦١) انقضى عصر الخلافة الاول الذي يجوز نفعه بالجمهوري . وقد بدأ بولاية ابي بكر (٦٣٢) وعرف الخلفاء الاربعة فيه عند مؤرخي العرب بالخلفاء الراشدين . ثم اعتلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الخلافة الثانية وهو الداهية

المجرب فاقترح حين استتب له الأمر ان يعين ابنه يزيد ولياً للعهد فأسس بذلك اسرة مالكة وراثية ولم يحد من بعده الخلفاء عن هذا النظام كثيراً . ووسع معاوية فكرة عمر في الخلافة فجعلها ملكاً لأول مرة في تاريخ الاسلام . الا أنه أبقى البيعة ^(١) في الانتخاب الاسمي . والبيعة من معنى البيع . يجعل البائع يده في يد الامير تأكيداً للعهد وهو يشبه فعل البائع والمشتري والمصافحة بالايدي علامة الطاعة . وقامت خلافة بني امية (٦٦١ - ٧٥٠) فكانت دمشق عاصمتهم وتلتها خلافة العباسيين (٧٥٠ - ١٢٥٨) في بغداد . ولم تقم الشيعة خلافة كبرى غير خلافة الفاطميين (٩٠٩ - ١١٧١) ومركزها الرئيسي القاهرة . اما خلافة الامويين في قرطبة باسبانيا فلقد ازدهرت من ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وآخر خلافة عرفها الاسلام ليست عربية بل هي خلافة آل عثمان التركية في القسطنطينية (نحو ١٥١٧-١٩٢٤) . ^(٢)

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٧٤ - ٥

(٢) شجرة نسب تبين علاقات البيوت العربية التي وليت الخلافة :



وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ اعلن المجلس الوطني الكبير بانقره الجمهورية التركية وخلع الخليفة السلطان محمد السادس ^(١) ونصب عبد المجيد خليفة بعد ان نزع السلطنة عنه . وفي آذار من سنة ١٩٢٤ ألغى الترك الخلافة اخيراً .

المهوفة منصب سياسي

يحسب البعض خطأ ان الخلافة هي مقام ديني بمثابة نيابة عن صاحب الشريعة. ويقابلها هؤلاء برئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ذاهلين عن ان التمييز في دول النصرانية بين دائرتي السلطة الزمنية والسلطة الروحية هو امر مستحدث . فالخليفة باعتباره امير المؤمنين كانت وظيفته الحرية اكثر بروزاً . واما باعتباره اماماً فانه كان يستطيع ان يقوم بوظيفته الدينية فيصلي في المؤمنين ويلقي خطبة الجمعة ولكن هذا الحق نفسه هو مشاع ويجوز لأقل المسلمين قدراً ممارسته . فالزعامة من بعد النبي انما كانت زعامة سياسية لأن زعامة النبي الدينية كما سبق هي زعامة جاءت عن طريق الرسالة لا غير وقد انتهت الرسالة بموته فانتزعت الزعامة ايضاً وما كان لأحد ان يخلفه في زعامته الدينية كما انه لم يكن لأحد ان يخلفه في رسالته . اما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغيرة عليه فالخليفة هو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك اوروبا يفرض عليه قمع اهل الزيغ والالحاد والمارقين ومحاربة البدع وتوسيع حدود دار الاسلام . وكان يستند في تنفيذ هذه الامور الى سلطته الزمنية ^(٢) .

وان الرجوع الى ما وصفه علماء الشرع الذين عاش اكثرهم في مكة والمدينة وسواهما من المدن البعيدة عن مجرى الحوادث في عواصم الاسلام كدمشق وبغداد والقاهرة بشأن شروط منصب الخلافة وامتيازاته لشيء مضل . فالماوردي ^(٣) (المتوفى ١٠٥٨) في الاحكام السلطانية - وهي رسالة في السياسات تأثر صاحبها بمثله العليا

(١) كان اسمه الأصلي وجيد الدين ؛ خلف محمد الخامس في ١٩١٨

(٢) راجع Thomas W. Arnold, *The Caliphate* (Oxford, 1924) pp. 9 - 41

(٣) ص ٥ - ١٠

- وابن خلدون ^(١) (المتوفى ١٤٠٦) في مقدمته الشهيرة وسواها من الكتاب المتأخرين جعلوا شروط الخلافة : أن يكون الخليفة من قریش ذكراً بالغاً سليم الجسم والعقل شجاعاً نشيطاً وان يحوز غير ذلك من الصفات اللازمة لحماية بيضة الاسلام واكتساب طاعة الناس بدعوتهم الى الدخول في بيعته والانقياد لطاعته . أما الشيعة فانهم يرفعون قدر الامامة ويقولون من شأن الخلافة . وهم الذين شاعوا علياً وقالوا بامامته وخلافته واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عن اولاده . وليست الامامة في رأيهم قضية تناط باختيار العامة بل هي قضية دينية والرسول اقام علياً خليفة له بموجب النص والتعيين وانتقلت ولايته من بعده الى اولاده الذين قدر الله لهم الامامة الكبرى ^(٢) . ولقد جعل أهل السنة واجبات الخليفة كما يلي : حفظ الدين وحماية دار الاسلام (وبالاخص الحرمين الشريفين اي مكة والمدينة) وجهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة وتقليد الاكفاء اعمال الدولة وجباية الفيء والصدقات وتقدير العطايا وما يستحق في بيت المال وتنفيذ الاحكام وقطع الخصام حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم ^(٣) . اما حقوق الخليفة فمنها ان يخاطب باسمه ويدعى له في صلاة الجمعة وان تضرب النقود باسمه وله ان يلبس بردة النبي في احتفالات الدولة الرسمية وان يقوم بحراسة الدخائر النبوية ^(٤) من عصا النبي وخاتمه ونعله وما اشبهه .

أما الفكرة التي تجعل الخليفة شبيهاً بالبابا عند المسيحيين له ما لهذا من السلطة الروحية على ابناء حظيرته في انحاء العالم فلم تلاق رواجاً حتى اواخر القرن الثامن عشر . ولقد اذاع هذه الفكرة الخاطئة لأول مرة مؤلف ارمني كان يقيم

(١) المقدمة ص ١٦١

(٢) الشهرستاني ص ١٠٨ - ٩ ، ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٤ - ٥

(٣) الماوردي ص ٢٣ - ٤ ؛ النسفي ، عمدة عقيدة اهل السنة ، نشر كيرتون (لندن ، ١٨٤٣) ص ٢٨ - ٢٩

(٤) قام سلاطين آل عثمان وهم اخر خلفاء الاسلام بصون الدخائر النبوية التي آتى بها السلطان سليم سنة ١٥١٧ الى القسطنطينية عند مرجعه من فتح مصر . ولا تزال هذه الآثار محفوظة في قبة خاصة من المرايا وهي تعد شارة ثمينة من شارات الخلافة .

في القسطنطينية يدعى ده سون وادعها كتابه (صورة عامة للسلطنة العثمانية) ^(١) .
ورأى عبد الحميد بدهائه ان تلك فكرة تقوي مكانته تجاه الدول الاوربية التي
كانت قد اقتطعت اقساماً كبيرة من جسم مملكته واستحوذت على السواد الاعظم
من مسلمي آسية وافريقية فشجعها . ثم ظهرت حركة مبهمه يرجع اصلها الى اواخر القرن
الثالث اراد اربابها السعي الى جمع شمل المسلمين وتنظيم صفوفهم تحت راية الجامعة
الاسلامية وهم انما يقصدون بذلك مقاومة دول الغرب . ولقد كانت تركيا مركزاً
لهذه الحركة التي غالى اصحابها في اعلاء ما للخلافة من مزايا عامة شاملة .

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الرشيد
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

في ٩ محرم سنة ١٣٦٩ الموافق ٣١ تشرين الأول ١٩٤٩